

فِرْنُ الْجَوَارِمِ

أُصُولُهُ - آدَابُهُ - صِفَاتُ الْمُحَاوِرِ

قَدَّمَ لَهُ فَضِيلَةَ الشَّيْخِ
مُقْبِلُ بْنُ هَاشِمٍ الْوَدَوْدِيُّ

تَأَلَّفَ الرَّوْحِيُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ
فِيصَلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْهَاشِمِيُّ



دارُ الأمانِ
اسْكَنْدَرِيَّة

فِرْنُ الْجَوَارِمِ

دارُ الأمانِ

تَأَلَّفَ الرَّوْحِيُّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ

قَدَّمَ لَهُ فَضِيلَةَ الشَّيْخِ

دارُ الأمانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

مَحْفُوظٌ
جَمِيعُ حَقُوقِ



رقم الإيداع ١٣٤٦٧ / ٢٠٠٣
التسجيل الدولي
977-331-214-3

دار الافتاء
للطباعة والنشر والتوزيع
١٧ شارع جليل الجياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون: ٥٤٥٧٦٩ - فاكس: ٥٤٤٦٤٩٦

فَتْحُ الْجَوَارِمِ

أُصُولُهُ - آدَابُهُ - صِفَاتُ الْمُحَاوِرِ

مَدَامَ لَهُ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ
مُقْبِلُ بْنُ هِشَامِ بْنِ الْوَدَّاعِيِّ

تَأَلَّفَ لِأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ
فِيصَلُ بْنُ عَبْدِ وَائِلِ الْخَاشِرِيِّ

دار الأملانيك
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ٥٠٥٧٧٦٩

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
إسكندرية ٥٠٥٧٧٦٩ ت ٥٤٤٦٤٦١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَدَمِّتَةٌ نَضِيلَةُ الشَّيْخِ
مُقْبِلِ بْنِ هَارِدِيِّ الْوَادِعِيِّ
رَحْمَةُ اللَّهِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

أما بعد :

فقد اطَّلعتُ على بعض المواضيع من رسالة أخينا الفاضل أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي الموسومة بـ « فن الحوار » ، فوجدتُ فيها فوائد تُشدُّ لها الرِّحال ، استفادها من مصادر شتى ، فجزاه الله خيراً .

وأخونا فيصل بن عبده قائد الحاشدي أهلٌ للكتابة في مثل هذا ، فقد أفاد وأجاد ، واقتنص فوائد وشوارد تُثلج صدور القراء .

والأخ فيصل أعرفه مُحباً للسنة ، وغيوراً عليها ، ومُبغِضاً للبدعة والحزبية ، قد فتح الله عليه ، ووهبه ذكاءً خارقاً .

أسألُ الله أن يُمنَّ علينا وعليه بمواصلة السير لخدمة الشرع الشريف ، والحمد لله رب العالمين

مُقْبِلِ بْنِ هَارِدِيِّ الْوَادِعِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة :

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

أما بعد (١) :

فهذه رسالة بعنوان « فن الخوارج » أقدمتها للقارئ الكريم ، وأحبُّ أن أتنبه إلى أن خلاصة هذه الرسالة كانت خاطرةً ألقىتها على بعض الشباب الطيبين الذين أحببهم .

أُولَئِكَ أَصْحَابِي فَحَيِّ هَلَا بِهِمْ وَحَيَّ هَلَا بِالطَّيِّبِينَ وَأَنْعَمُ
وَيَا لَأَتَمِّي فِي حُبِّهِمْ وَوِلَائِهِمْ تَأَمَّلْ - هَذَاكَ اللَّهُ - مَنْ هُمْ الْوَمُ

واستجابةً لرغبة بعض إخواني أقدمتها اليوم مطبوعةً بعد تعديلات وإضافات ، اقتضاها تحويلها من الخطاب المسموع إلى الكتاب المقروء ، مع قناعتي بأنها غير وافية ، لكنني متأكدٌ بأنني لو تركتها إلى أن ترضى عنها نفسي كلُّ الرضى ، لضاعت بين التسويف والتشاغل ؛ فاخترتُ نشرها بدلاً من الانتظار لغيبٍ لا ندري ما الله صانعٌ فيه ، ولاسيما أن الحاجة داعيةٌ إلى طرقِ هذا الموضوع المهمِّ ، والتأكيد عليه في أوساطِ طبَّبةِ العلم والدعاة الذين عناهم ابن عبد البرِّ النمريُّ - رحمه الله - في الثناء على أهل الجهاد بالحُجَّةِ ، الذي اعتبره ابن القيم أكبر الجهادين (٢) .

(١) مختصر صحيح مسلم رقم (٤٠٩) ، وهذه الكلمات كانت سبباً في إسلام الصحابي الجليل ضماد الأزدي رضي الله عنه ، لما سمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) انظر كلاماً متيناً لابن القيم في كتابه « مفتاح دار السعادة » (١/٧٠) .

وَأَوْدُهُمْ فِي اللَّهِ ذِي الْآلَاءِ
غُرٌّ (١) الْوُجُوهِ ، وَزَيْنِ كُلِّ مَلَاءٍ
وَتَوْقُرٍ ، وَسَكِينَةٍ ، وَحَيَاءٍ
وَفَضَائِلَ جَلَّتْ عَنِ الْإِحْصَاءِ
أَزْكَى وَأَفْضَلَ مِنْ دَمِ الشُّهَدَاءِ
مَا أَنْتُمْ وَسِوَاكُمْ بِسَوَاءٍ (٣)

أَهْلًا وَسَهْلًا بِالَّذِينَ أَحْبَبْتَهُمْ
أَهْلًا بِقَوْمٍ صَالِحِينَ ذَوِي تَقَى
يَسْعُونَ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ بَعْفَةً
لَهُمُ الْمَهَابَةُ ، وَالْجَلَالَةُ ، وَالنُّهْيُ (٢)
وَمِدَادُ مَا تَجْرِي بِهِ أَقْلَامُهُمْ
يَا طَالِبِي عِلْمِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

ولا شك أن العلم بموضوع الحوار ، والإحاطة بتفاصيله ، والتسلح بالحجج والبراهين ، سلاح ماضٍ بيد المحاور الناجح ؛ إذ يُمكنه من الوقوف على أرضٍ ثابتة ، وليس على رمالٍ متحركة ، فالمستيقن من الحق الذي معه تراه مطمئن الخاطر ، آمنًا على مذهبه من صولة الباطل ، فينطق عن آثاء ، وتخيرٌ للأقوال الصائبة ، والعرب تقول : « قَبْلَ الرَّمِي يُرَاشُ السَّهْمُ » ، أي : هَمِّي الأمرَ وأعدّه قَبْلَ حَاجَتِكَ إِلَيْهِ (٤) .

أما مَنْ لم يكن على بصيرةٍ من رأيه ، فإنه ينزعجُ عند الحوار ، ويطيشُ به الجدل حتى يقذف بالسباب ، ويلفظ بالكلام الذي لا قيد له ولا زمام من قبل أن يُقيمَ له وزنًا ، والعرب تقول : « عِنْدَ النَّطَاحِ يَغْلِبُ الْكَبْشُ الْأَجْمُ » ؛ لأنه فعل ذلك من غيرِ عُدَّةٍ هيأها (٥) .

فالحوار وسيلةٌ مهمةٌ من وسائل الدَّعوةِ إلى الله ، وبقدر ما يكون الدَّاعيةُ مُتمكِّنًا من فنِّ الحوار ، مُحيطًا بجوانبه ، بقدر ما يكون أقدر على النَّجاحِ .

(١) غُرٌّ : بَيْضٌ ، مَفْرَدُهُ أَغْرٌ .

(٢) النُّهْيُ : الْعُقُولُ الْفَاعِمَةُ ، مَفْرَدُهَا نُهْيَةٌ ، سُمِّيَ الْعَقْلُ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ يَنْهَى صَاحِبَهُ عَنِ مُقَارَفَةِ كُلِّ قَبِيحٍ .

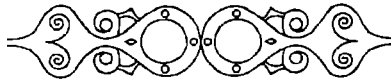
(٣) « جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ » (٣١/١) .

(٤) « الْأَمْثَالُ » (ص ٢١٥)

(٥) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ (ص ٢١٥)

وَإِنِّي لَمُعْتَرَفٌ بِالتَّقْصِيرِ فِي تَنَاوُلِهِ سَلْفًا ، فَعَلَى مَنْ رَأَى خَطَأً أَوْ نَقْصًا أَنْ يُرْشِدَنِي إِلَى الصَّوَابِ مَشْكُورًا ، فَالْمُؤْمِنُونَ نَصَحَةٌ ، وَالْمُؤْمِنُ مِرَاةُ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ ، وَقَدِيمًا قَالَ إِبْرَاهِيمُ الصَّوْلِيُّ : « الْمَتَصَفِّحُ لِلْكِتَابِ أَبْصَرُ بِمَوَاقِعِ الْخَلَلِ فِيهِ مِنْ مُنْشِئِهِ » (١) ، وَرَحِمَ اللَّهُ الْعِمَادَ الْأَصْفَهَانِيَّ الْقَاتِلَ : « إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ فِي غَدِهِ : لَوْ غَيْرَ هَذَا لَكَانَ أَحْسَنَ ، وَلَوْ زِيدَ كَذَا لَكَانَ يُسْتَحْسَنُ ، وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ ، وَلَوْ تُرِكَ هَذَا لَكَانَ أَجْمَلَ ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِبْلَاءِ النَّقْصِ عَلَى جُمْلَةِ الْبَشَرِ » .
 وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ .
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

فِيصَلِّ بْنِ عَبَّاسٍ قَائِلًا لِأَخِي الشَّرِيفِ



تمهيد

- تعريف الحوار .
- عناية القرآن بالحوار .
- عناية السنة بالحوار .
- عناية السلف بالحوار .

1

2

3

تعريف الحوار

الحوار :

أصله من الحَوْر (بفتح الحاء وسكون الواو) : وهو الرجوع عن الشيء ،
والى الشيء .

قال لييد بن ربيعة :

وما المرءُ إلا كالشَّهَابِ وضَوْنِهِ يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ إِذْ هُوَ سَاطِعٌ

يُقال : حَارَ ، يَحُورُ ، حَوْرًا وحَوْرًا : رَجَعَ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ
ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴾ (١٤) ﴿ الانشقاق : ١٤ ﴾ ، أي يرجع إلى ربِّه ، وقوله
عليه السلام : « وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بِالْكَفْرِ ، أَوْ قَالَ : عَدُوَّ اللَّهِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ إِلَّا حَارَ
عَلَيْهِ » (١) ، قال النَّوويُّ - رحمه الله - : « حَارَ عَلَيْهِ - وهو معنى رَجَعَتْ
عَلَيْهِ - : أي رَجَعَ الكفر عليه ، فَبَاءَ وَحَارَ وَرَجَعَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ » (٢) .

والمحار : المرجع .

قال الشاعر :

نَحْنُ بَنُو عَامِرِ بْنِ ذِيانٍ وَالنَّاسُ حَمَامٌ مَحَارُهُمُ لِلْقُبُورِ

والمحاورة : المجاوبة . والتحاور : التَّجَاوَبُ ، يُقال : تحاوروا : تراجعوا
الكلام بينهم ، وأحارَ عليه جوابه : رَدَّهُ ، واستحاره : استنطقه .

فالحوار إذا في اللقنة : هو الرجوع والمجاوبة .

وفي الاصطلاح : هو مُراجعة الكلام وتداوله بين طرفين والأخذ والرَّد فيه (٣) .

(١) رواه مسلم في الإيمان (٦١) عن أبي ذر رضي الله عنه .

(٢) شرح النَّووي (٥٠/٢) .

(٣) الحوار (ص ٢٠) .

وَمِنْهُمْ مَنْ عَرَفَهُ بِأَنَّهُ : نوعٌ من الحديث بين شخصين أو فريقين ، ويتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة ، فلا يستأثر أحدهما دون الآخر ويغلب عليه الهدوء ، والبعد عن الخصومة والتعصب (١) .

وقد ورد لفظ الحوار في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع فقط :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ (٣٤) ﴿ الكهف : ٣٤ ﴾ .

والثاني : قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴾ (٣٧) ﴿ الكهف : ٣٧ ﴾ .

والثالث : قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ (١) ﴿ .

﴿ المجادلة : ١ ﴾ .

ومن المصطلحات القريبة من معنى الحوار :

[١] المجادلة :

أصلها من الجدل ، ومادة جدل في اللغة تدلُّ على الشدة والقوة .

قال ابن منظور : « الجدل : هو شدة الفتل ، وجدلتُ الحبلُ أجذله جدلاً إذا شدت فتله ، وفتلته فتلاً مُحكماً ، ومنه قيل لزمام الناقة : الجديل » (٢) .

وقال الجوهري : « التجديل : هو الزمام المجدول من آدم ، ومنه قول امرئ

القيس :

(١) « أصول الحوار » (ص ٦) .

(٢) « لسان العرب » (١١/١٠٣) .

وَكَشْحٍ (١) لَطِيفٍ كَالْتَّجْدِيلِ مُخَصَّرٍ (٢) وَسَاقٍ كَأَنْبُوبٍ (٣) السَّعْيِ الْمُدَّلِّ (٤)

وغلام جادل : مُشْتَدًّا ، وجدل الحَبُّ في سُنْبِلِهِ : قوي .

قال الأصمعيُّ : الجادل من ولد النَّاقَةِ : الراشح ، وهو الذي قوي وَمَشَى مع أمِّه « (٥) .

وقال ابن منظور: « الأجدل : الصَّقْر ، صنعة غالبية ، وأصله من الجدل الذي هو الشَّدَّة » (٦) .

وقال - أيضًا - : « والجَدَلُ : اللَّدُّ في الخصومة والقُدْرَةُ عليها ، ورجل جدل ، إذا كان أقوى في الخصام ، والجَدَلُ : مُقَابَلَةُ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ ، والمُجَادَلَةُ : المناظرة والمخاصمة » (٧) .

والجدل في الاصطلاح : هو دَفْعُ الْمَرْءِ حَصْمَهُ عن إفساد قوله بحجَّةٍ أو شبهة ، أو يقصد به تصحيح كلامه ، وهو الخصومة في الحقيقة (٨) .

قال النَّوَوِيُّ - رحمه الله - : « الجدل والجدال والمجادلة : مُقَابَلَةُ الْحُجَّةِ بِالْحُجَّةِ ، وتكون بحق وباطل ، وأصله : الخصومة الشديدة ، وُسمِيَ جدلاً ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُحَكِّمُ حُصْمَتَهُ وَحُجَّتَهُ إِحْكَامًا بَلِيغًا عَلَيَّ قَدْرَ طاقته تشبُّهًا بجدل الحبل ، وهو إحكام قتله » (٩) .

(١) الكَشْحُ : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلف .

(٢) الْمُخَصَّرُ : الدَّقِيقُ الخَصْر .

(٣) الأَنْبُوبُ : ما بين العقدين من القصب وغيره .

(٤) السَّعْيُ الْمُدَّلُّ : يعني البردي المسقي الملين بالإرواء يُريدُ تشبيه كَشْحِ مَحْبُوبته بزمام النَّاقَةِ الْمُتَخَذِ من الجلد ، وساقها بنباتة البردي المسقية كثيرًا .

(٥) « الصحاح » (٤/١٦٥٣) .

(٦) « لسان العرب » (١١/١٠٤) .

(٧) المرجع السابق (١١/١٠٥) .

(٨) « التعريفات » (ص ٧٨) .

(٩) « تهذيب الاسماء واللغات » (٣/٤٨) .

ويكون الغرض منه إلزام الخصم ، والتغلب عليه في مقام الاستدلال (١) .
ولفظ الجدل ورد في القرآن الكريم في تسعة وعشرين موضعاً . كلها في
سياق الذم إلا في ثلاثة مواضع :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ { النحل : ١٢٥ } .

والثاني : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .
{ العنكبوت : ٤٦ } .

والثالث : قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾
{ المجادلة : ١ } (٢) .

وقد أطلق الجدل في هذه الآية على الحوار ، وهو مراجعة الكلام بين النبي
ﷺ وخولة بنت ثعلبة رضي الله عنها .

أما في السنة : فالأحاديث التي ورد فيها لفظ الجدل على إطلاقه ، فتدل
على كراهيته ، فمن ذلك حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« ما ضلَّ قومٌ بعدَ هدىً كانوا عليه ، إلاَّ أوتوا الجدلَ » ، ثم تلا رسولُ الله
ﷺ هذه الآية : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جِدَالاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (٥٨)
{ الزخرف : ٥٨ } (٣) .

فالجدل - إذا - لم يُؤمر به ، ولم يُمدح في الكتاب أو السنة على إطلاقه ،
بل الأصل فيه أنه مذموم ، ما لم يُقيد بالحسنى أو بالحق : كما في قوله تعالى :
﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ { النحل : ١٢٥ } ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجَادِلُوا

(١) « تاريخ الجدل » (ص ٥) .

(٢) انظر : « استخراج الجدل من القرآن الكريم » (ص ٥١ ، ٥٢) .

(٣) رواه الترمذي في التفسير (٣٢٥٣) ، وابن ماجه في السنة (٤٨) ، وحسنه الالباني في صحيح

أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿ العنكبوت : ٤٦ ﴾ .

ومن ذلك تبيين الفرق بين الحوار والجدل ، إذ أنهما يلتقيان في كونهما حديثاً أو مراجعةً للكلام بين طرفين ، ويفترقان في أن الجدل فيه لَدَدٌ في الخصومة ، وشدّة في الكلام مع التمسُّك بالرأي ، والتعصُّب له .

أما الحوار فهو مجرد مراجعة الكلام بين الطرفين دون وجود خصومة بالضرورة ، بل الغالب عليه الهدوء ، والبُعد عن التعصُّب ونحوه (١) .

[٢] المناظرة :

المناظرة لغة مُشتقة من النظر ، والنظر : تأمل الشيء بالعين ، وقد نظرت إلى الشيء (٢) .

والتناظر : التّقابل ، يُقال : تناظرت الدّاران : تقابلتا ، ونظر إليك الجبلُ :

تقابلك .

والتّظر : الفكر في الشيء تُقدره وتقيسه منك .

فالتّظر يقع على الأجسام والمعاني : فما كان بالأبصار فهو للأجسام ، وما كان بالبصائر كان للمعاني (٣) . وفي الحديث : « مَنْ ابْتاعَ (٤) مُصْرَاةً (٥) فهو بخير النَّظَرَيْنِ (٦) » (٧) ، أي : خير الأمرين .

(١) « الحوار » (ص ٢٦) .

(٢) « الصحاح » (٢ / ٨٣٠) .

(٣) « لسان العرب » (٥ / ٢١٧) .

(٤) ابتاع : اشترى .

(٥) مُصْرَاةٌ : التي صرّي لبيها ، وحقن في صرعها وجمع ، فلم يُحلب أياماً ، وأصل التّصرية : حبس الماء ، يُقال منه : صرّيت الماء : إذا حبسته .

(٦) أي بعد أن يحتلبها ، فإن رضيها أمسكها ، وإن سخطها ردّها وصاعاً من تمرٍ - أو غيره من الطّعام إلا الحنطة - مقابل حلبتها ، كما جاء في الحديث .

(٧) رواه البخاري في البيوع (٢١٤٨) ، ومسلم في البيوع (١٥١٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

والإنظار: التأخير والإمهال ، والمناظرة : أن تناظر أحاك في أمرٍ نظرتما فيه معاً كيف تأتياه (١) .

والنظير: المثل، يُقال: ناظرتُ فلاناً: أي صرتُ نظيراً له في المخاطبة (٢) .
والمعنى الاصطلاحي للمناظرة يرجع إلى النظير والمقابل في المخاطبة والكلام أو إلى النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشئتين إظهاراً للصواب (٣) .
وعلى المعنى الثاني فهي ممدوحة ، وقريبة من معنى الحوار ، إلا أن المناظرة أدلُّ في النظر والتفكير ، كما أن الحوار أدلُّ في مراجعة الكلام وتداوله (٤) ، أمّا على المعنى الأوّل فلا تُمدح ولا تُذمُّ لذاتها ، وقد تنقلب المناظرة جدلاً ، إذا كان هدفها التغلب على الخصم من غير نظير إلى الحق .
[٣] المرء :

ورد المرء في الشرع على معنى المراجعة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فلا تمارِ فيهم إلا مرءاً ظاهراً ﴾ { الكهف : ٢٢ } .

كما ورد على معنى الجدال بالظنون الكاذبة، والتخريصات الباطلة ومنه قوله تعالى : ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ (٣٤) ﴿ .
{ مريم : ٣٤ } (٥) .

والمرء يُطلق ويُراد به الجدال (٦) إلا أنه غلب استعماله في اصطلاح الأئمة على الجدال المذموم ، فاستعمله بعض أهل العلم على الجدال بالباطل ، وعن الباطل (٧) .

(١) « لسان العرب » (٢١٧/٥) .

(٢) المرجع السابق (٢١٩/٥) .

(٣) انظر « التعريفات » (ص٢٥) ، و« كشف الظنون » (٣٩/١) .

(٤) انظر « رسالة الحوار مع أهل الكتاب » (ص١١٥) .

(٥) « أصول الجدال والمناظرة » (ص١٨) .

(٦) « أصول الفقه » (١٤١٦/٣) .

(٧) « أصول الجدال والمناظرة » (ص١٨) .

قال أبو بكر بن العربي : « أَمَّا الْمِرَاءُ : فهي المجادلة فيما تعلم أنه باطل ، أو على معنى البدعة » (١) .

واستعمله بعض العلماء فيمن فسد قصده وغرضه من الجدل (٢) .

قال ابن مفلح : « المراءُ : استخراجُ غضبِ المِجادِلِ » (٣) .

وقال أبو حامد الغزاليُّ : « المِراءُ : طَعْنٌ في كلامِ الغيرِ بإظهارِ خَلَلٍ فيه ، من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير ، وإظهارِ ميزة الكياسة » (٤) .

وقال ابن الوزير : « المراءُ : وهو ما يغلب على الظنُّ أَنَّهُ يُهَيِّجُ الشَّرَّ ، ولا يقصد به صاحبهُ إلاَّ حظَّ نفسه في غلبةِ الخُصومِ » (٥) .

[٤] المِحاَجَّةُ :

تُطلقُ المِحاَجَّةُ لغةً وشرعاً على التَّخاصمِ والجدالِ ، يُقالُ : رجلٌ مِحاَجٌ : أي جدلٌ ، والتَّحاجُّ : التَّخاصمُ (٦) .

والكثير من المفسرين يُفسرُ المِحاَجَّةَ بالجدالِ والتَّخاصمِ ، ففي قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ﴾ { آل عمران : ٢٠ } ، قال الطَّبْرِيُّ في معنى حاجُّوكَ : « أي خاصموك فيه بالباطل » (٧) .

(١) « قانون التأويل » (ص ٦٧٥) .

(٢) « أصول الجدل والناظرة » (ص ١٩) .

(٣) « أصول الفقه » (٣/١٤١٦) .

(٤) « إحياء علوم الدين » (٣/١١٥) .

تنبيه مهم على الإحياء :

قال شمسُ الدِّينِ الذَّهَبِيُّ - يرحمه اللهُ - : « وَأَمَّا الإِحياءُ ففيه من الأحاديثِ الباطلةِ جملةٌ ، وفيه

خيرٌ كثيرٌ ، لولا ما فيه من آدابِ ورُسُوٍ ، وَهُدًى من طرائقِ الحكماءِ ، وَمُنْحَرَفِي الصُّوفِيَّةِ ، نالُ

اللهُ علماً نافعاً « السِّيرُ (١٩/٣٣٩) .

(٥) « العواصم والقواصم » (٣/٣٣٨) .

(٦) « لسان العرب » (٢/٢٢٦) .

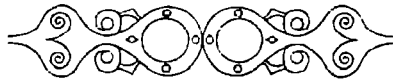
(٧) « الطَّبْرِيُّ » (٣/٢١٤) .

وقال ابن كثير في الآية نفسها : « أي جادلوك في التوحيد » (١) .
وقال ابن الجوزي - أيضاً - في نفس الآية : « حاجُّوكَ : أي جادلوك
وخاصموك » (٢) .

أمَّا الحِجَّةُ فتُطلق على البرهان والدليل ، تقول : حاجَّه محجَّةً : أي غلبه
بالحِجَّةُ (٣) ، والصَّحِيحُ أَنَّ الحِجَّةَ : هي ما دُفِعَ به الخصم ، سواء أكان برهانًا
صحيحًا ، أو شبهةً باطلةً ، وفي الحديث : « فَحَجَّ أَدَمُ مُوسَى » (٤) ، أي غلبه
بالحِجَّةُ (٥) .

والفرق بين الحِجَّةِ والمُحاجَّةِ : أَنَّ الحِجَّةَ قد تُمدَّحُ وقد تُذمُّ ، وذلك بحسب
إطلاقتها ؛ لأنَّها تُطلق على البرهان الصحيح ، كما تُطلق على الشبهة الفاسدة
كما سبق بيانه ، وأمَّا المُحاجَّةُ فإنَّها - في الغالب - مذمومة ؛ إذ القصد منها دفع
الخصم وردِّه ، لا لبيان الحقِّ ، وهي قريبة من معنى الجدال والمخاصمة (٦) .
[٥] الخصومة :

وهي لجاح الكلام ؛ ليستوفي به مقصوده من مالٍ أو غيره ، وتارةً تكون
ابتداءً ، وتارةً تكون اعتراضاً ، والمراءُ لا يكون إلاَّ اعتراضاً (٧) .



-
- (١) « ابن كثير » (١/٣٥٤) .
(٢) « زاد المسير » (١/٣٦٣) .
(٣) « الصحاح » (١/٣٠٤) .
(٤) رواه البخاريُّ في أحاديث الانبياء (٩-٣٤) ، ومسلم في القدر (٢٦٥٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه .
(٥) « لسان العرب » (٢/٢٢٦) .
(٦) « الحوار » (ص ٣١) .
(٧) « الأذكار » (ص ٣٢٩) .

عناية القرآن بالحوار

عُنِيَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمَ عِنَايَةً بِالْغَةِ بِالْحَوَارِ ، وَذَلِكَ أَمْرٌ لَا غُرَابَةَ فِيهِ أَبَدًا ؛ فَالْحَوَارِ هُوَ الطَّرِيقُ الْأَمْتَلُ لِلْإِقْتِنَاعِ ، فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَمَازِجٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْحَوَارِ ، فَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ لَا الْحَصْرِ :

[١] حِوَارِ رَبِّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ مَعَ الْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَارِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ :

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) ﴾ [البقرة : ٣٠ - ٣٢] .

[٢] حِوَارِ رَبِّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ مَعَ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لِمَ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

[٣] حِوَارِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ قَوْمِهِ :

وَهَبَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نُوحًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَلَدًا وَصَبْرًا فِي جِدَالِهِ مَعَ الْكَافِرِينَ ؛ لِإِقْتِنَاعِهِمْ بِالْحَقِّ ، وَلَبَّثَ فِيهِمْ زَمَانًا طَوِيلًا يُجَادِلُهُمْ بِشَتَّى الصُّورِ وَالْوَسَائِلِ بِهَيْمَتِهِ الْعَالِيَةِ ، وَعَزِيمَتِهِ الصَّادِقَةِ ، وَنَفْسِهِ الطَّوِيلِ ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا

فَرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) ﴿ .

{ نوح : ٥ - ١٠ } .

وبسبب هذه الجديّة الحارّة ، والجلّد العظيم ، والحرص الكبير على تبليغ أمر الله عزّ وجلّ الذي لا يعرف الضعف أو الكلال ، تبرّم به قومه (١) وملّوا منه ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ (٣٢) ﴾ { هود : ٣٢ } .

[٤] حوار إبراهيم ﷺ مع الملك الكافر النمرود بن كنعان في إثبات ربوبية الله :

وهب الله سبحانه وتعالى إبراهيم ﷺ قوّة الحجّة ، وظهر البرهان ، والقدرة على الإفحام ، قال الله سبحانه وتعالى مبيناً نعمته على عبده وخليئه إبراهيم ﷺ : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣) ﴾ { الأنعام : ٨٣ } .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰلِمِينَ (٢٥٨) ﴾ { البقرة : ٢٥٨ } .

الله ما أعظم ذلك الجواب الهادئ المُسكّت ، وتلك الحجّة البيّنة التي يشهد لها الجميع ، والتي لا يستطيع المحاور إنكارها ، أو حتّى التّدليس أو التّحايل

(١) تبرّم : تَضَجَّرَ .

على دلالتها ، الخلق قد شهد شروق الشمس من جهة المشرق قبل أن يكون التمرود ، فإن كان إلهاً قادراً ، فليحاول أن يأتي بها من المغرب ! .

وهذا - أخي الحبيب - غَيْضٌ من قَيْضٍ ، ونقطةٌ من بحرٍ ، ففي السير ما يغني عن الجَمِّ الغفير ، ولكنها مجرد صور ، وإن كان الشريط طويلاً في انكتاب العزيز ، والسَّجْلُ حافلاً ، فقد قيل : « يكفيك من الزَّاد ما يُبلغك المحلَّ » .

ومن خلال الاطلاع على هذه النماذج وأمثالها يتأكد لنا أن القرآن الكريم يعتمد اعتماداً كبيراً على أسلوب الحوار ، مع روعة الفصاحة والبلاغة وجلال البيان ، ولقد أودع الله سبحانه وتعالى معاني كتابه في قوالب لفظية عربية ، وزينه بروعة الفصاحة ، وكساه حُلَّة البلاغة وجلال الإعجاز ، فدَهَشَتْ به العرب جميعاً إذ سمعته ، حتَّى قال قائلهم ^(١) : « إنَّ له لَحَلَاوَةً وإنَّ عليه لَطَلَاوَةٌ ^(٢) وإنَّه لَمُثْمِرٌ أعلاه ، مُغْدِقٌ أسفله ، وإنَّه لَيَعْلُو ولا يُعلَى عليه ، وإنَّه ليحطم ما تحته ^(٣) » .

وفي هذا المعنى يقول الأخ ابو عبد الرحمن عبد الرزاق الغول :

صَاحَ الْوَلِيدُ لَقَدْ تَعَالَى اللَّهُ وكلامُ ربِّ العرشِ ما أحلاه
مَنْ لِي بِقُرْآنٍ عَلَيْهِ طَلَاوَةٌ غَدَقَ الْأَسَافِلِ ، مُثْمِرِ أَعْلَاهُ ؟ !
وَاللَّهِ ، مَا بَشَرٌ يَفُوهُ بِمِثْلِهِ فِي الْكُونِ ، بَلْ لِمَحْمَدٍ أَوْحَاهُ

(١) هو الوليد بن المغيرة المخزومي :

(٢) طلاوة - بتثنية الطاء - : الحسن والبهجة .

(٣) هذه القصة أخرجه الحاكم في المستدرک من حديث عبد الرزاق عن معمر عن أيوب السخيتاني عن

عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ، ولم

يخرجه ، ووافقه الذهبي (٢/٥٠٧) ، وأخرجها البيهقي في دلائل النبوة عن عبد الرزاق - أيضاً -

كما أخرجه من طريق آخر (٢/١٩٨ - ٢٠٥) .

وخرَّ بعضهم سُجَّدًا تعظيمًا عندما سمعه يُتلى ، وانجذبتُ إليه صنديد الكفر
والعناد ، فكانوا يستمعون إليه تَلذُّذًا وإعجابًا ، بل انقادتُ إليه قلوب العرب
والعجم عندما كشف الستار عن جماله ، وحاكى العقول ، لذلك خالطتُ
محبته بشاشة القلوب ، حتَّى إنَّ نَفَرًا من الجن انقادوا إليه عندما سمعوه يُتلى ،
ورأوا إعجازه ، وأيقنوا بسلطانه .

قال الله سبحانه وتعالى على لسانهم : ﴿ قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ
الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا
أَحَدًا ۝٢ ﴾ { الجن : ١ ، ٢ } .

وفي هذا المعنى يقول الإمام محمد بن إسماعيل الأثير الصنعاني - رحمه الله - :

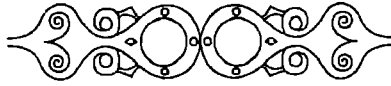
ويعتاضُ - جهلاً - بالرياضِ هضابُ
مفاوزِ جهلِ كُلِّها وشعابُ
فألفاظُهُ - مهما تَلَوْتَ - عذابُ
وتَبْلُغُ أَقْصَى العُمُرِ وهي كِعَابُ
وفيه عُلُومٌ جَمَّةٌ وثوابُ
وذا كُلُّهُ عندَ اللَّبِيبِ بُبَابُ
آتَى مِنْ رَسُولِ اللَّهِ فَهُوَ صَوَابُ
عَلَيْهِ وَلَوْ لَمْ يَبْقَ فِي الفَمِّ نَابُ
إِذَا كَانَ فِيكُمْ هَمَّةٌ وَغِلَابُ
تُدْرِي عَلَيْكُمْ بِالْعُلُومِ سَحَابُ
الوفا تَجِدُ مَا ضَاقَ عَنْهَا حَسَابُ

أَتَعْرِضُ عَنْهُ عَن رِياضِ أَرِيضَةِ
يُرِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَغَيْرُهُ
يَزِيدُ عَلَيَّ مَرَّ الْجَدِيدَيْنِ (١) مِنْ جَدَّةٍ
وَأَبَائِهِ فِي كُلِّ حِينٍ طَوِيَّةٌ
وفيه هُدَى للعالمينَ ورحمةٌ
فَكُلُّ كَلَامٍ غَيْرِهِ القَشْرُ لا سِوَى
دَعُوا كُلُّ قَوْلٍ غَيْرِهِ ما سِوَى الَّذِي
وَعَضُّوا عَلَيْهِ بِالنَّوْاجِدِ وَاصْبُرُوا
تَرَوْا كُلُّ ما تَرَجُونَ مِنْ كُلِّ مَطْلَبٍ
أَطِيلُوا عَلَى السَّبْعِ الطَّوَالِ وَقُوفُكُمْ
وَكَمْ مِنْ أَلُوفٍ فِي المِتِّينِ ، وَكَمْ بِهَا

(١) الجَدِيدَيْنِ : اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .

يَطِيبُ لَهَا نَشْرٌ ، وَيُفْتَحُ بَابُ
أَصُولًا ، إِلَيْهَا لِلذِّكْرِ مَابُ
سِوَاهُ لِهَدْيِ الْعَالَمِينَ كِتَابُ
فَأَبْلَسَ ، حَتَّى لَا يَكُونَ جَوَابُ
وَيَعْلَمُوا ، وَلَا يَعْلَمُوا عَلَيْهِ خَطَابُ
يُدَبِّرُ مَاذَا فِي الْأَنَامِ يُعَابُ (١)

وَفِي طَيِّ أَثْنَاءِ الْمَثَانِي نَفَائِسُ
وَكَمْ مِنْ فُصُولٍ فِي الْمَقْصَلِ قَدْ حَوَتْ
وَمَا كَانَ فِي عَصْرِ الرَّسُولِ وَصَحْبِهِ
تَلَا « فُصِّلْتُ » لَمَّا أَتَاهُ مُجَادِلُ
أَقْرَبَ بِأَنَّ الْقَوْلَ فِيهِ طَلَاوَةٌ
وَأَدْبَرَ عَنْهُ هَائِمًا فِي ضَلَالِهِ



عناية السنة بالحوار

إنَّ سيرة الرَّسول ﷺ العطرة زاخرةٌ بالمواقف الحكيمة التي حاور فيها الرَّسول ﷺ قومه وحاجَّهم ، فعلى جادةِ المثال لا الحصر :

[١] حوار الرَّسول ﷺ مع عُبَّةِ بْنِ رَبِيعَةَ :

أرسلتُ قريشُ عُبَّةَ بْنَ رَبِيعَةَ إلى الرَّسول ﷺ يُحَادِثُهُ ، وَيُفَاوِضُهُ وَيُغْرِيهِ ، فجلسَ عُبَّةُ إلى الرَّسول ﷺ وقال : « يا ابنَ أخي ، إنَّكَ مِنَّا حيثُ قد علمتَ من الشطرِ في العشيرة ، المكانِ في النَّسبِ ، وإنَّكَ قد أتيتَ قومَكَ بِأمرٍ عظيمٍ ، فرقتَ به جماعتهم ، وسفَّهتَ به أحلامهم ، وعبتَ به مَنْ مَضَى من آبائهم ، فاسمَعْ مِنِّي أعرضَ عليك أموراً لعلَّكَ تقبلُ بعضها » .

فقال الرَّسولُ ﷺ : « قُلْ - يا أبا الوليد - أسمع » .

قال : « يا ابنَ أخي ، إنَّ كُنْتَ إِنَّمَا تُريدُ بما جِئتَ به من هذا الأمرِ مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، وإنَّ كُنْتَ إِنَّمَا تُريدُ به شرفاً ، سَوَدْنَاكَ علينا حتَّى لا نقطعَ أمراً دُونَكَ ، وإنَّ كُنْتَ تُريدُ به مُلكاً مَلَكَناك علينا ، وإنَّ كانَ هذا الذي يَأْتِيكَ رِيّاً تراه ، لا تستطيعُ ردهً عن نفسك ، طلبنا لك الطَّبَّ ، وبذلنا فيه أموالنا حتَّى نُبرِّئَكَ منه ، فَإِنَّهُ رَبِّمَّا غلبَ التَّابعُ على الرَّجُلِ حتَّى يُداوى منه » .

حتَّى إذا فرغَ عُبَّةُ ورسولُ الله ﷺ يستمعُ إليه ، قال : « أوقَدَ فرغْتَ يا

أبا الوليد ؟ » ، قال : « نَعَمْ » ، قال : « فاسمَعْ مِنِّي » ، قال : « أفعل » ،

فقال رسولُ الله ﷺ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حم ﴿١﴾ تنزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) ﴿٤﴾ .

{ فَصَلَّتْ : ١ - ٤ } .

ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهَا يَقْرؤها عَلَيْهِ ، فَلَمَّا سَمِعَهَا أَنْصَتَ لَهَا ، وَأَلْقَى يَدَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهَا ، يَسْمَعُ مِنْهُ ، ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى السَّجْدَةِ فِيهَا فَسَجَدَ ، ثُمَّ قَالَ : « قَدْ سَمِعْتُ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ، فَأَنْتَ وَذَلِكَ » ، أَيْ : وَمَا تَخْتَارُ ، فَقَامَ عْتَبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ :

« نَحْلَفُ بِاللَّهِ ، لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الْوَلِيدِ بِوَجْهِهِ غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي ذَهَبَ بِهِ » .

وَطَلَّبَ عْتَبَةُ مِنْهُمْ أَنْ يَدْعُوا الرَّسُولَ ﷺ وَشَأْنَهُ ، فَأَبَوْا وَقَالُوا لَهُ :

« سَحَرَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ بِلِسَانِهِ » (١) .

وفي هذا المعنى يقول الإمام محمد بن إبراهيم الوزير :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمِصْطَفَى يَوْمَ جَاءَهُ الْـ	وَلِيدٌ بِصَوْلِ الْأَحْوَذِيِّ الْمُجَادِلِ
تَجَنَّبَ مِنْهَا جَ الْمِرَاءَ ، وَتَلَا لَهُ	مِنَ السَّجْدَةِ الْآيَاتِ ذَاتِ الْفَوَاصِلِ
وَلَمْ تَجْعَلِ الْقُرْآنَ غَيْرَ مِصْدُقٍ	إِذَا لَمْ تَقْدِمْهُ دُرُوسِ الْأَوَائِلِ
كَذَا فَعَلَ الطَّيَّارُ يَوْمَ خِطَابِهِ	لَأَصْمَحَةَ بَيْنَ الْخُصُومِ الْمَقَاوِلِ
تَلَا عَلَيْهِمْ آيَ الْكِتَابِ ، وَأَيَقِنُوا	بِهَا بِشَهَادَاتِ الدُّمُوعِ الْهَوَاطِلِ
إِلَى ذَاكَ صَارَ الْأَذْكِيَاءُ مِنَ الْوَرَى	وَعَادُوا إِلَيْهِ بَعْدَ بَعْدِ الْمَرَاحِلِ (٢)

فانظر - أخي الحبيب - في حوار الرسول ﷺ مع عتبة ، تجد أكثر من

درس ، فعلى جادة المثال :

(١) « سيرة ابن هشام » (٣١٣/١) ، و« البداية والنهاية » (٦٢/٣) ، وقال الالباني في « فقه السيرة للغزالي » حاشية (ص ١٣) : هذه القصة أخرجها ابن إسحاق في « المغازي » (١٨٥/١) بسند حسن .

(٢) « الروض الباسم » (١٤٧/٢) .

أَنَّهُ ﷺ أَحْسَنَ الْاسْتِمَاعَ لِعُتْبَةَ ، وَقَالَ لَهُ : « قُلْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ، أَسْمَعُ » .
 وَفِي قَوْلِهِ ﷺ : « يَا أَبَا الْوَلِيدِ » أَدَبٌ جَمٌّ ، وَخُلُقٌ عَظِيمٌ ، حَيْثُ كُنَاهُ ،
 وَلَمْ يَدْعُهُ بِاسْمِهِ ، وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُحِبُّ الْمُنَادَاةَ بِالْكُنْيَةِ .
 وَلَمَّا قَالَ عُتْبَةُ مَا عِنْدَهُ ، أَعْطَاهُ الرَّسُولُ ﷺ الْفُرْصَةَ لِإِضَافَةِ شَيْءٍ
 قَدْ يَوَدُّ أَنْ يَقُولَهُ رَبِّمَا نَسِيَهُ ، أَوْ غَفَلَ عَنْهُ ، وَسَأَلَهُ : « أَوْ قَدْ فَرَّغْتَ يَا أَبَا
 الْوَلِيدِ ؟ »

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ أَحْسَنَ الْاسْتِمَاعَ تَمَامًا ، وَأَعْطَى مُحَدِّثُهُ الْفُرْصَةَ لِيَقُولَ مِنْ
 جَدِيدٍ دُونَ أَنْ يُعَاجِلَهُ ، فَلَمَّا سَأَلَهُ لِيَتَأَكَّدَ مِنْ فِرَاقِهِ مِمَّا لَدَيْهِ بِدَا التَّلَاوَةِ ، وَهَذَا
 قِمَّةُ الْأَدَبِ ، وَقِمَّةُ الذُّوقِ ، مِمَّا جَعَلَ الطَّرْفَ الْآخَرَ تَتَفَتَّحُ نَفْسَهُ لِلسَّمَاعِ ،
 فَكَانَتْ تِلْكَ الْمَقْدَمَةُ الْمَحْمُودَةُ لَمَّا جَاءَ بَعْدَهَا ، وَهِيَ تِلَاوَةُ آيَاتٍ مِنَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ ،
 تَنْتَهِي بِسُجْدَةٍ سَجَدَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، ثُمَّ قَالَ لِعُتْبَةَ : « قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا
 الْوَلِيدِ ، فَأَنْتَ وَذَلِكَ » .

فَفِي تَصَرُّفِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَدَبٌ عَالٍ ، وَذَوْقٌ جَمٌّ ، وَحُسْنُ اسْتِمَاعٍ
 مِنْهُ ، يَسْتَدْعِي حُسْنَ إِصْفَاءٍ مِنْ عُتْبَةَ ، وَهَذَا كُلُّهُ جَعَلَ عُتْبَةَ مُسْتَعِدًّا لِلتَّلْقِي ؛
 لِذَلِكَ لَا غَرَابَةَ إِنْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ : « سَحَرَكَ - يَا أَبَا الْوَلِيدِ - بِلِسَانِهِ » (١) .

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ الْإِنِّخ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ الرَّزَّاقِ الْغُولُ :

هَلْ رَأَيْتُمْ مِثْلَ عُتْبَةَ	عَاقِلًا ضَعِيعَ لُبِّهِ (٢) ؟!
يَمِّمَ (٣) الْبَيْتَ بِمَكَّةَ	بِأَغْيَا ، غَالِبَ رَبِّهِ
يَا مَحْمَدُ ، أَنْتَ مِنَّا	لَكَ فِينَا خَيْرٌ نَسَبَهُ

(١) « فِيهِ أَصُولُ الْحَوَارِ » (ص ١٩) .

(٢) اللَّيْبُ : الْعَقْلُ الْخَالِصُ مِنَ الشُّوَابِ ، جَمْعُهُ أَلْبَابٌ .

(٣) يَمِّمُ : قَصَدَ .

أَنْتَ سَبَّيْتَ سُوعَا
وَتَنَقَّصْتَ حُلُومَنَا
إِنْ تَرُمُ (١) مُلْكًا تَجِدُهُ
فَأَقْبِلِ التَّنُؤِيدَ ، أَوْلاً
هَبَّلاً دَاوَمْتَ سَبَّيْتَهُ
فِيكَ عَن قَوْمِكَ رَغْبَهُ
فَالْمَعَالِي بِكَ أَشْبَهُهُ
فَالْتَمِسْ عِلْمَ الْأَطْبَاءِ

[٢] حوار النبي ﷺ مع الأنصار :

في أعقاب معركة حنين ورع النبي ﷺ الغنائم - وكانت كثيرة - في قريش ، وفي قبائل العرب ، ولم يُعْطِ الأنصارَ منها شيئاً ، فغضب بعضهم ، حتى قال قائلهم : « لَقِيَ - والله - رسولُ الله قومه » .

فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ - وكان زعيمَ قومه الخَزْرَجِ - حيًّا من الأنصار - فقال : « يا رسولَ الله ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ ، قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ (٢) فِي أَنْفُسِهِمْ ؛ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفِيءِ الَّذِي أَصَبْتَ ، فَكَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قِبَائِلِ الْعَرَبِ ، وَلَمْ يَكُ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ ! » .

فقال رسول الله ﷺ : « فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ قَوْمِكَ يَا سَعْدُ ؟ » .

قال : « يا رسولَ الله ، ما أنا إِلَّا مِنْ قَوْمِي » .

قال : « فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ » .

فخرج سعدٌ ، فجمع الأنصارَ ، فاتاهم رسولُ الله ﷺ ، فَحَمِدَ اللَّهُ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، مَقَالَةٌ بَلَغْتَنِي عَنْكُمْ ، وَجِدْتُمُوهَا عَلَيَّ فِي أَنْفُسِكُمْ ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ

(١) تَرُمُ : تطلبُ ، أصله تروم ، فحذفت الواو تخلصًا من التقاء الساكنين .

(٢) وجدوا عليك : غضبوا عليك .

الله ، وأعداءَ فألفَ اللهُ بينَ قلوبكم ؟! » .

قالوا : « بلى ، اللهُ ورسولُهُ آمَنُ^(١) وأفضلُ » .

ثمَّ قال : « ألاَّ تجيبوني يا معشرَ الأنصارِ ؟! » .

قالوا : « بما نُجيبُكَ يا رسولَ اللهِ ؟ ، اللهُ ورسولُهُ المَنُّ والفضلُ » .

قال : « أمَّا والله ، لو شئتم لقلتم - ولصدقتُم ولصدقتُم - : أتيتنا مُكذِّبًا

فصدقتناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فواسيناك . أوجدتم -

يا معشرَ الأنصارِ - في لُعاة^(٢) من الدنيا ، تألفتُ بها قلوبَ قومٍ ليسلموا ،

ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألاَّ ترضونَ - يا معشرَ الأنصارِ - أنْ يذهبَ الناسُ

بالشاةِ والبعيرِ ، وترجعوا برسولِ اللهِ إلى رحالكُم ؟! ، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده ،

لولا الهجرةُ لكنتُ امرأً من الأنصارِ ، ولو سلكَ الناسُ شعباً وسلكتُ الأنصارُ

شعباً ، لسلكتُ شعبَ الأنصارِ ، اللهم ارحمِ الأنصارَ ، وأبناءَ الأنصارِ ، وأبناءَ

أبناءَ الأنصارِ » .

فبكى القومُ حتى أخضلوا لِحاهمُ^(٣) ، وقالوا : « رَضِينَا برسولِ اللهِ قسماً

وحظلاً »^(٤) .

فتأملَ ترَ ، وانظرَ تجدُ في هذه الواقعةِ دروساً عظيمةً بليغةً ومُفيدةً ،

فالرسولُ ﷺ لم يَلْمُ سَعْدًا ؛ لأنه لم يردَّ على الأنصارِ الذين غضبوا ، ولم

يُنَاقِشُهُ في حُجَّتِهِ التي فيها ما فيها ، بل إنَّهُ لم يسألْ عن الشخصِ الذي قال :

« لَقِيَ وَاللهُ رسولُ اللهِ قَوْمَهُ » .

(١) آمَنُ : أفعلٌ تفضيل ، معناه أكثرُ مِنَّا علينا وأعظمُ .

(٢) اللُعاة : بقلةِ خضراءِ تستهوي العينَ ، شبهَ بها الدنيا .

(٣) أخضلوا لِحاهمُ : أبلوها بدموعهم .

(٤) أخرجه البخاري (٤٣٣٠) و (٧٢٤٥) ، ومسلم (١٠٦١) عن عبد الله بن زيد .

وفيهما أنه حاباهم فوق حقهم بدافع العصبية ، بل إنه سأل سؤالاً عاماً ؛
ليجعل الحديث للجميع ، وليواجه المشكلة من أساسها ، وبدأ بسؤاله العاتب
عليهم ، وثنى على ذلك بذكر الفضل الكبير الذي فاز به الأنصار إذ أسلموا ،
فانتقلوا من الضلال إلى الهدى ، ومن الفقر إلى الغنى ، ومن العداوة إلى
التآلف ، ولما كان من البديهي^(١) أن يجول في قلوب الأنصار أنهم - أيضاً -
أعطوا الرسول ﷺ ، ونصروه وصدقوه - وهذه كلها مزايا حق - قالها
الرسول ﷺ ؛ ليقر لهم بالجميل ، فذكر أنهم صدقوه ، وقد جاءهم مكذباً ،
ونصروه وقد جاءهم مخذولاً ، وأووه وقد جاءهم طريداً ، ووأسوه وقد جاءهم
عائلاً ، وبعد أن عاتبهم من ناحية وأرضى قلوبهم من ناحية ، ختم كلامه معهم
بأن أقر لهم أنهم أعلى كعباً في الإسلام ؛ لذلك وكلهم إلى إسلامهم ، ثم بين
لهم المنة الكبرى التي فازوا بها ، إذ يذهب الناس بالشاة والبعير ، أما الأنصار
فإنهم يعودون بخاتم الأنبياء إلى رحالهم ، ثم دعا بالرحمة لهم ، ولأبنائهم ،
ولأحفادهم ؛ لذلك لا غرابة أن وجدنا الأنصار يكون ويفرحون ، ويقولون في
سعادة :

« رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قَسَمًا وَحِطًّا » (٢) .

لَيْبِكَ رَسُولَ اللَّهِ مَنْ كَانَ بَاكِيًا
جَزَى اللَّهُ عَنَّا كُلَّ خَيْرٍ مُحَمَّدًا
وَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ رَوْحًا وَرَحْمَةً
وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ بِالْخَيْرِ أَمْرًا
فَلَا تَنْسَ قَبْرًا بِالْمَدِينَةِ ثَاوِيًا (٣)
فَقَدْ كَانَ مَهْدِيًا ، وَقَدْ كَانَ هَادِيًا
وَنُورًا وَبُرْهَانًا مِنَ اللَّهِ بَادِيًا
وَكَانَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالسُّوءِ نَاهِيًا

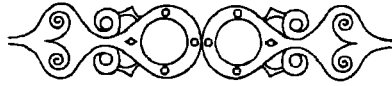
(١) البديهي : الطبيعي .

(٢) « في أصول الحوار » (ص ٢٢) بتصرف .

(٣) ثَاوِيًا : مَقِيمًا .

وكانَ لَمَّا اسْتَرَعَاهُ مَوْلَاهُ رَاعِيَا
 فَلَبَّ رَسُولَ اللَّهِ لَبِيْهِ دَاعِيَا
 وَأَكْرَمَهُمْ بَيْتًا وَشَعْبًا وَوَادِيَا؟!
 وَأَثَارُهُ بِالْمُسْجِدَيْنِ كَمَا هِيََا؟!
 عَلَيْهِ سَلَامٌ كُلُّ مَنْ كَانَ صَافِيَا
 وَكَشَفَتْ الْأَطْمَاعُ مِنَّا مَسَاوِيَا
 وَمَنْ عَلَّمَ أَمْسَى وَأَصْبَحَ عَافِيَا
 تَقَلَّبَ (٢) عُرْيَانًا ، وَإِنْ كَانَ كَاسِيَا
 وَلَا خَيْرَ فَيَمَنْ كَانَ لِلَّهِ عَاصِيَا (٣)

وكانَ رَسُولُ اللَّهِ بِالْقَسْطِ قَائِمًا
 وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَدْعُو إِلَى الْهُدَى
 أَيُنْسَى أَبْرُ النَّاسِ بِالنَّاسِ كُلُّهُمْ
 أَيُنْسَى رَسُولُ اللَّهِ أَكْرَمُ مِنْ مَشَى
 تَكَدَّرَ مَنْ بَعْدَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
 رُكْنَا (١) إِلَى الدُّنْيَا الدَّنِيثَةِ بَعْدَهُ
 وَكَمْ مِنْ مَنَارٍ كَانَ أَوْضَحَهُ لَنَا
 إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التَّقَى
 وَخَيْرُ خِصَالِ الْمَرْءِ طَاعَةُ رَبِّهِ



(١) الرُّكُونُ إِلَى الشَّيْءِ : المِيلُ إِلَيْهِ ، والاعتمادُ عَلَيْهِ .
 (٢) تَقَلَّبَ : تَمَرَّدَ .
 (٣) « لطائف المعارف » (ص ٢١٦) .

عناية السلف بالحوار

فعلى هذا المنهج العظيم في الحوار والمناظرة سارَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ رضوان الله عليهم ، فعلى جادة المثال :

[١] حوارُ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه مع أصحمة النجاشي: (٢)

أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما جاءوا - وقد دعا النجاشي أساقفته ، فنشروا مصاحفهم حوله - سألهم قائلاً : « ما هذا الدين الذي فارقتُم فيه قومكم ، ولم تدخلوا ديني ، ولا دين أحد من هذه الملل ؟! » .
فأجابَه جَعْفَرٌ قائلاً : « أيها الملكُ ، كُنَّا أَهْلَ جاهليَّةٍ ، نَعْبُدُ الأصنامَ ،

(١) هو ابن عم الرسول ﷺ ، وأخو علي بن أبي طالب لأبويه ، أسلمَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ رسولُ الله ﷺ دارَ الأرقم بن أبي الأرقم داعياً إلى الإسلام فيها ، فهو من السابقين الأوّلين للإسلام ، وكان أمير المؤمنين المهاجرين إلى الحبشة ، قدم من الحبشة إثر فتح خيبر ، فالتزمه الرسول ﷺ ، وقبّل ما بين عينيه واعتنقه ، وقال : « والله ، ما أدري بأيهما أسر : بقدم جعفر ، أم بفتح خيبر ؟! » استشهد ﷺ في غزوة مؤتة ، فبكى عليه المسلمون ، ورثاه الصحابة رضي الله عنهم ، فمن ذلك قولُ حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه :

وَلَقَدْ بَكَيْتُ ، وَعَزَّ مَهْلِكُ جَعْفَرٍ حَبَّ النَّبِيِّ عَلَى الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
وَلَقَدْ جَزَعْتُ ، وَقُلْتُ حِينَ نَعَيْتَ لِي : مَنْ لِلجِلَادِ لَدَى الْمِقَابِ وَظَلَمَها ؟!

ومناقبه مشهورة ، وما أصدقَ وَصَفَ رَوْجِهَ أسماء بنت عميس له حين قالت : « ما رأيتُ شاباً من العربِ كانَ خيراً من جعفرٍ » ، وَصَدَّقَتْ فِي رِثائِهِ حين قالت :

فَالَيْتُ لَا تَنفَكُ نَفْسَ حَزِينَةٍ عَلَيْكَ ، وَلَا يَنْفَكُ جِلْدِي أَغْبَرًا
فَللهِ عَيْنًا مَنْ رَأَى مِثْلَهُ فَتَى أَكْرَ وَأَحْمَى فِي الْهَيْجِ وَأَصْبَرًا

(٢) هو النجاشي أصحمة بن الأبحر ملك الحبشة ، كان ملكاً صالحاً ، لا يظلم أحد بأرضه وفيه صلاح ، كتب إليه الرسول ﷺ كتاباً مع جعفر رضي الله عنه ، أرسله إليه عمرو بن أمية الضمري ، يدعوهُ إلى الإسلام ، وكتبَ إليه كتاباً ، فأسلمَ النجاشي على يدِ جعفر ، وصلى عليه الرسول ﷺ صلاة الغائب حين بلغه موته .

وَتَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَتَأْتِي الْفَوَاحِشَ ، وَتَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجَوَارَ ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مَنَا الضَّعِيفَ ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا مِنَّا ، نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ ، وَأَمَانَتَهُ ، وَعَقَافَهُ ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوحِدَهُ وَنَعْبُدَهُ ، وَنَخْلَعُ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَأَبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَحُسْنِ الْجَوَارِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالِدِّمَاءِ ، وَتَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ ، وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ ، وَأَمَرْنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، فَأَمَرْنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَالصِّيَامِ - وَعَدَدَ عَلَيْنَا أُمُورَ الْإِسْلَامِ - فَصَدَّقْنَاهُ وَأَمَّنَّا بِهِ ، وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، فَعَبَدْنَا اللَّهَ ، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا ، فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا ؛ لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا ، وَضَيَّقُوا عَلَيْنَا ، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا ، خَرَجْنَا إِلَى بِلَادِكَ ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَيَّ مِنْ سِوَاكَ ، وَرَغَبْنَا فِي جَوَارِكَ ، وَرَجَوْنَا الْأَنْظَلَكَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ .

فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ : « هَلْ مَعَكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ عَنِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ » .

فَقَرَأَ عَلَيْهِ صَدْرًا مِنْ ﴿ كَهَيْقِصَ ﴾ فَبَكَى النَّجَاشِيُّ حَتَّى اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ (١)

وَبَكَتْ أَسَاقِفَتُهُ حَتَّى أَخْضَلُوا مَصَاحِفَهُمْ حِينَ سَمِعُوا مَا تَلَا عَلَيْهِمْ (٢) ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّ هَذَا وَالَّذِي جَاءَ بِهِ عَيْسَى لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ (٣) وَاحِدَةٍ » (٤) .

(١) اخْضَلَّتْ لِحْيَتُهُ : ابْتَلَتْ بِدُمُوعِهِ .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » (١/٣٥٨ - ٣٥٩) .

المشكاة : الثقب .

(٤) « سيرة ابن هشام » (٣/٣٦٠) ، و« حلية الأولياء » (١/١١٤) ، و« عيون الأثر » (١/١١٨) -

(١١٩) ، وَحَسَّنَ إِسْنَادَهُ فَضِيلَةُ شَيْخِنَا الْعَلَمَةِ مُقْبِلِ الْوَادِعِيِّ فِي كِتَابِهِ « الْجَامِعُ الصَّحِيحُ »

(٣/٣٩٠) .

فانظر أخي - رعاكَ اللهُ - كيف نَجَحَ الحَوَارُ فِي عَرْضِ قَضِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْحَبَشَةِ ، وَشَرَحَ تَعَالِيمَ الْإِسْلَامِ لِلنَّجَاشِيِّ أَصْحَمَةَ وَرَجَالَهُ ، حَتَّى كَانَ ذَلِكَ الْحَوَارِ تَمْهِيدًا لِإِسْلَامِ النَّجَاشِيِّ عَلَى يَدِ جَعْفَرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ فِيمَا بَعْدُ ! .

[٢] حَوَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَعَ الْخَوَارِجِ :

وَمِنَ الْمَنَاطِرَاتِ الشَّهِيرَةِ فِي التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ مَنَاطِرَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَعَ الْخَوَارِجِ ، وَقَدْ كَانَ لِهَذِهِ الْمَنَاطِرَةِ تَأْثِيرٌ كَبِيرٌ فِي سِيرِ الْأَحْدَاثِ فِيمَا بَعْدُ ، حَيْثُ تَجَلَّتْ إِمَامَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَعُمُقُ فِقْهِهِ ، وَقَدْرَتُهُ عَلَى الْمَحَاوِرَةِ وَالْمَنَاطِرَةِ ، وَإِلَيْكَ سِيَاقَ هَذِهِ الْمَحَاوِرَةِ :

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : لَمَّا اعْتَرَلَتِ الْحَرُورِيَّةُ (١) قُلْتُ لِعَلِيِّ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبْرِدْ عَنِ الصَّلَاةِ ؛ فَلَعَلِّي آتِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فَأُكَلِّمُهُمْ .

قَالَ : إِنِّي أَنْخَوْفُهُمْ عَلَيْكَ ، قَالَ : كَلَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَلَبِستُ أَحْسَنَ مَا أَقْدَرُ عَلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْيَمَانِيَّةِ ، ثُمَّ دَخَلْتُ ، فَقَالُوا : مَرَحَبًا بِكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ ، مَا جَاءَ بِكَ ؟ .

قَالَ : جِئْتُ أُحَدِّثُكُمْ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، نَزَلَ الْوَحْيُ وَهُمْ أَعْلَمُ بِتَأْوِيلِهِ .

قَالَ بَعْضُهُمْ : لَا تُحَدِّثُوهُ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لِنُحَدِّثَنَّه .

قَالَ : قُلْتُ : أَخْبَرُونِي مَا تَنْقِمُونَ (٢) عَلَى ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَتَنِهِ وَأَوَّلِ مَنْ آمَنَ بِهِ ، وَأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ ؟ ! .

قَالُوا : ثَلَاثًا . قُلْتُ : مَا هُنَّ ؟ . قَالُوا : أَوْلَهُنَّ أَنَّهُ حَكَّمَ الرُّجَالَ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ { الْإِنْعَامُ : ٥٧ } .

(١) الْحَرُورِيَّةُ : نِسْبَةٌ إِلَى حَرُورَاءَ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ بِالْكُوفَةِ .

(٢) تَنْقِمُونَ : تُنْكِرُونَ .

قال : قلتُ : وماذا ؟ . قالوا : قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ ، لَئِنْ كَانُوا كَفَّارًا لَقَدْ حَلَّتْ لَهُ أَمْوَالُهُمْ ، وَلَئِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ فَقَدْ حُرِّمَتْ عَلَيْهِ دِمَاؤُهُمْ ! .

قال : قلتُ : وماذا ؟ . قالوا : مَحَا نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ أَمِيرُ الْكَافِرِينَ ! .

قال : قلتُ : أَرَأَيْتُمْ ^(١) إِنْ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ كِتَابَ اللَّهِ الْمُحْكَمَ ، وَحَدَّثْتُكُمْ عَنْ سُنَّةِ نَبِيِّكُمْ مَا لَا تُنْكِرُونَ أَتَرْجِعُونَ ؟ . قالوا : نعم .

قال : قلتُ : أَمَّا قَوْلُكُمْ : إِنَّهُ حَكَمَ الرَّجَالَ فِي دِينِ اللَّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيِّدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ [المائدة : ٩٥] ، وَقَالَ فِي الْمَرَاةِ وَزَوْجِهَا : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ . [النساء : ٣٥] .

أُنْشِدْكُمْ اللَّهَ ، أَفَحَكَمَ الرَّجَالَ فِي حَقِّنِ دِمَائِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَصَلَّاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ أَحَقُّ ، أَمْ فِي أَرْبَبِ ثَمَنِهَا رُبْعُ دَرْهَمٍ ؟ .

قالوا : فِي حَقِّنِ دِمَائِهِمْ ، وَصَلَّاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ ، قَالَ : أَخْرَجْتُ مِنْ هَذِهِ ؟ قالوا : اللَّهُمَّ نَعَمْ .

قال : وَأَمَّا قَوْلُكُمْ : قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ ، أَتَسْبُونَ أُمَّكُمْ ^(٢) ، ثُمَّ تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا تَسْتَحِلُّونَ مِنْ غَيْرِهَا ؟ ! ، فَقَدْ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهَا لَيْسَتْ أُمَّكُمْ فَقَدْ كَفَرْتُمْ ، وَخَرَجْتُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ ؛ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : السَّبِيُّ أَوْسَى . [النساء : ٦] .

وَأَنْتُمْ مُتَرَدِّدُونَ بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ ، فَاخْتَارُوا أَيُّهُمَا شِئْتُمْ ، أَخْرَجْتُ مِنْ هَذِهِ ؟ .

(١) أَرَأَيْتُمْ : أَيِ أَخْبَرُونِي .

(٢) يَقْصِدُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَأَرْضَاهَا .

قالوا : اللهم نعم ، ، قال : وأما قولكم : مَحَا نَفْسَهُ من أمير المؤمنين ، فإن رسول الله ﷺ دعا قُرَيْشًا يَوْمَ الْحُدَيْبِيَّةِ على أن تكتبَ بينهم كتابًا ، فقال : اكتب : هذا ما قَضَى عليه محمدٌ رسولُ الله ، فقالوا : والله ، لو نعلمُ أَنَّكَ رسولُ الله ما صَدَدْنَاكَ عن البيتِ وقَاتَلْنَاكَ ، ولكن اكتب : مُحَمَّدُ بن عبد الله . فقال : والله ، إني لرسولُ الله ، وإن كذبتُموني ، واكتب يا عليُّ : مُحَمَّدُ بن عبد الله . ورسولُ الله كَانَ أَفْضَلَ من عليٍّ ، ، أخرجتُ من هذه ؟ . قالوا : اللهم نعم ، فَرَجَعَ منهم أَلْفَانِ ، وخرجَ سائرُهُم ، فقتلوا على ضلالتهم ، قتلَهُم المهاجرون والأَنْصَارُ (١) .

فانظر - رحمك الله - كيف أثرَ الحوارُ الهادفُ العميقُ في مثل هذه الرؤوس اليابسة في مجلسٍ واحدٍ استغرقَ عدَّةَ دقائق فقط ، حتَّى رجعَ منهم أَلْفَانِ إلى مذهبِ السَلَفِ !! ، وكيفَ أفلحَ الحوارُ فيما لم تُفلحَ فيه الحروبُ الطَّاحنةُ ؟ ! . والخورج - كما هو معروف - من أكثرِ النَّاسِ ضَرَاوَةً ، وقوَّةً ، وشجَاعَةً ، وبسَالَةً في الحروبِ ، حتَّى إنَّ النَّاسَ كانوا يهربون منهم ، وحتَّى النِّسَاءُ اللاتي التحقنَ بالخوارجِ كُنَّ يُبَدِّينَ من ضُرُوبِ البَسَالَةِ والشَّجَاعَةِ ما تَندهشُ له العُقُولُ ، حتَّى إنَّ الحَجَّاجَ بنَ يوسُفَ هَرَبَ من غَزَالَةَ امرأةٍ شبيبِ أميرِ الخوارجِ ! ، فسخرَ منه السَّاحِرُونَ ، وكتبَ أحدهمُ شعراً وأرسلَهُ إليه ، ومن ذلك قوله :

أَسَدٌ عَلِيٌّ ، وفي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتَخَاءُ (٢) تَنْفُرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنّف ، وأحمد مختصراً ، والبيهقي في السنن

والمقصود - كما قال شيخ الإسلام في « منهاج السنة » - :

« حسن إسنادهما شيخنا الوادعي كما في الصحيح المسند . »

الفتخاء : العقابُ اللَّيْتَةُ الجَنَاحُ ، والعقابُ : طائرٌ كاسرٌ من الجوارح ، تخفيفُ الجناحِ ، سرعُ الطَّيْرَانِ ، قوَى المخالبِ ، أعقفُ المنقارِ ، حادُ البَصَرِ ، معروفٌ بالعزِّ والمنعة ، ويضربُ به المثلُ في ذلك ، فيقال : « أمتع من عقابِ البحرِ » وجمعُ عقابٍ عقبان ، وأعقب ، وجمع الجمعِ عقابين .

هَلَّا بَرَزْتَ إِلَى غَزَاةٍ فِي الْوَعَى (١) بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرٍ (٢)

[٣] حوار وهب بن منبّه مع ذي خولان أحد الخوارج في اليمن :

قال عليّ المدني : حدثنا هشام بن يوسف الصنعاني أبو عبد الرحمن قاضي صنعاء ، قال : أخبرني داود بن قيس قال : كان لي صديق من أهل بيت خولان من حضور ، يُقال له أبو شمر ذو خولان ، قال : فخرجتُ من صنعاء أريدُ قريته ، فلماً دتوتُ منها ، وجدتُ كتاباً مختوماً في ظهره « إلى أبي شمر ذي خولان » فجتته ، فوجدته مهموماً حزينا ، فسألته عن ذلك ، فقال : قدِمَ رسولٌ من صنعاء ، فذكر أن أصدقاء لي كتبوا إليّ كتاباً ، فضيعة الرسول ، فبعثتُ معه من رقيقي (٣) من يلتسمه من قريتي وصنعاء ، فلم يجدوه ، وأشفقتُ من ذلك .

قلتُ : فهذا الكتابُ قد وجدتهُ ، فقال : الحمدُ لله الذي أقدرك عليه ، فضضه فقرأه ، فقلتُ : أقرئنيه ، فقال : إني لأستحدثُ سنك ، قلتُ : فما فيه؟ . قال : ضربُ الرقابِ ، قلتُ لعلهُ إليك ، ناسٌ من أهلِ حروراءَ في زكاةِ مالك ، قال : من أين تعرفهم ؟ قلتُ : إني وأصحابا لي نجالسُ وهب بن منبّه ، فيقول لنا : احذروا ، أيها الأحداثُ الأغمار ، هؤلاءِ الحروراءُ ، لا يدخلونكم في رأيهم المخالف ؛ فإنهم عرةٌ لهذه الأمة .
فدفع إليّ الكتابَ ، فقرأتهُ فإذا فيه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إلى أبي شمر ذي خولان ، سلامٌ عليك ، فإننا نحمدُ إليك الله الذي لا إله

(١) الوعى : الحرب .

(٢) « البداية والنهاية » (٩ / ٥٣) .

(٣) رقيقي : عبيدي .

إِلَّا هُوَ ، وَنُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، فَإِنَّ دِينَ اللَّهِ رُشْدٌ وَهُدًى فِي الدُّنْيَا ، وَنَجَاةٌ وَفَوْزٌ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِنَّ دِينَ اللَّهِ طَاعَةٌ ، وَمُخَالَفَةٌ مَنْ خَالَفَ سُنَّةَ نَبِيِّهِ وَشَرِيعَتَهُ ، فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابُنَا هَذَا ، فَانظُرْ أَنْ تُؤَدِّيَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ مِنْ حَقِّهِ ، تَسْتَحِقُّ بِذَلِكَ وِلَايَةَ اللَّهِ ، وَوِلَايَةَ أَوْلِيَائِهِ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

قُلْتُ لَهُ : فَإِنِّي أَنَهَاكَ عَنْهُمْ . قَالَ : فَكَيْفَ أَتَّبِعُ قَوْلَكَ ، وَأَتْرِكُ قَوْلَ مَنْ هُوَ أَقْدَمُ مِنْكَ !؟ .

قَالَ : قُلْتُ : أَفْتُحِبُّ أَنْ أُدْخِلَكَ عَلَى وَهْبِ بْنِ مُنْبِهٍ ؛ حَتَّى تَسْمَعَ قَوْلَهُ ، وَيُخْبِرَكَ خَبْرَهُمْ ؟ .

قَالَ : نَعَمْ ، فَتَزَلْتُ وَنَزَلَ مَعِيَ إِلَى صَنْعَاءَ ، ثُمَّ غَدَوْنَا حَتَّى أَدْخَلْتُهُ عَلَى وَهْبِ بْنِ مُنْبِهٍ ، وَمَسْعُودِ بْنِ عَوْفِ وَالِ عَلَى الْيَمَنِ مِنْ قَبْلِ عُرْوَةَ بْنِ مُحَمَّدٍ ، - قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ : هُوَ عُرْوَةُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ عَطِيَّةِ السَّعْدِيِّ ، وَلَاؤُنَا لَهُمْ مِنْ سَعْدِ بْنِ بَكْرِ بْنِ هَوَازِنَ - قَالَ : فَوَجَدْنَا عِنْدَ وَهْبٍ نَفْرًا مِنْ جُلَسَائِهِ ، فَقَالَ لِي بَعْضُهُمْ : مَنْ هَذَا الشَّيْخُ ؟ . فَقُلْتُ : هَذَا أَبُو شَمْرِ ذُو خَوْلَانَ مِنْ أَهْلِ حَضْرٍ وَلَهُ حَاجَةٌ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ .

قَالُوا : أَفَلَا يَذْكُرُهَا ؟ . قُلْتُ : إِنَّهَا حَاجَةٌ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَشِيرَهُ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ فَسَقَامَ الْقَوْمِ ، وَقَالَ وَهْبٌ : مَا حَاجَتُكَ يَا ذَا خَوْلَانَ ؟ ، فَهَرَجَ وَجِبْنَ مِنْ الْكَلَامِ ، فَقَالَ لِي وَهْبٌ : عَبَّرَ عَنِ شَيْخِكَ ، فَقُلْتُ ، نَعَمْ ، يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، إِنَّ ذَا خَوْلَانَ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ ، وَأَهْلِ الصَّلَاحِ فِيمَا عَلَّمْنَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِسِرِّيرَتِهِ ، فَأَخْبِرْنِي أَنَّهُ عَرَضَ لَهُ نَفْرٌ مِنْ أَهْلِ صَنْعَاءَ مِنْ أَهْلِ حَرُورَاءَ ، فَقَالُوا لَهُ : زَكَاتُكَ الَّتِي تُؤَدِّيهَا إِلَى الْأَمْرَاءِ لَا تَجْزِي عَنْكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَضْعُونَهَا فِي مَوَاضِعِهَا ، فَأَدَّهَا إِلَيْنَا ، فَإِنَّا نَضَعُهَا فِي مَوَاضِعِهَا ، نُقَسِّمُهَا فِي فُقَرَاءِ

المسلمين ، وتُقيم الحدود .

ورأيتُ أنَّ كلامك يا أبا عبد الله ، أشفى له من كلامي ، وقد ذكر لي أنَّه يُؤدِّي إليهم الثَّمرة للواحد مئةُ فَرَقٍ (١) على دوابِّه ، ويبعثُ بها مع رقيقه . فقال له وهَبْ : يا ذا خولان ، أتريدُ أن تكونَ بَعْدَ الكِبَرِ حَرُورِيًّا (يعني خارجيًّا من الخوارج) تشهدُ على مَنْ هو خيرٌ منك بالضَّلالة ؟! ، فماذا أنت قائلٌ لله غداً حين يُوقفك اللهُ ومَنْ شهدتَ عليه ؟! ، اللهُ يشهدُ له بالإيمان ، وأنت تشهدُ عليه بالكفر ! ، واللهُ يشهدُ له بالهدى ، وأنت تشهدُ عليه بالضَّلالة ! ، فأين تقع إذا خالفَ رأيكَ أمرَ اللهُ ، وشهادتُكَ شهادَةَ اللهُ ؟! . أخبرني يا ذا خولان ، ماذا يقولون لك ؟ .

فتكلَّم عند ذلك ذو خولان ، وقال لوَهَبِ : إنَّهم يأمروني ألا أتصدَّق إلاَّ على مَنْ يرى رأيهم ، ولا أستغفرُ إلاَّ له .

فقال وهَبٌ : صدقتَ هذه محتتهم الكاذبة ، فأما قولهم في الصدقة ، فإنه قد بلغني أن رسولَ اللهِ ﷺ ذكر أن امرأةً من أهل اليمن دخلت النار في هرةً ربطتها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشاشِ الأرضِ (٢) أفإنسانٌ ممن يعبدُ اللهُ وحده ، ولا يُشرك به شيئاً ، أحبُّ إلى اللهُ من أن يُطعمه من جُوعٍ أو هِرَّةٍ ؟ .

واللهُ يقولُ في كتابه : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (٨) إنما نُطْعِمُكُمْ لوجهِ اللهِ لا نريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً (٩) إنا نخافُ من ربِّنا يوماً عبوساً قمطريراً (١٠) ، يقول يوماً عسيراً غضوباً على أهل معصيته ؛ لغضب الله عليهم ﴿ فَوَقَاهُمُ اللهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ ﴾ ، حتى بَلَغَ : ﴿ وَكَانَ

١ الفَرَقُ - بفتح الفاء والرَّاء - : مكيال يسعُ ثلاثة أصع ، أو ستة عشرَ رطلاً عراقياً .

٢ خَشَاشِ الأَرْضِ : هوامها وحشراتهما ، وواحدُها خَشَاشَةٌ .

سَعِيكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴿ الإنسان : ٨ - ٢٢ ﴾ .

ثُمَّ قَالَ وَهَبٌ : مَا كَادَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَفْرَغَ مِنْ نَعْتِ مَا أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ فِي الْجَنَّةِ .

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : لَا يَسْتَغْفِرُ إِلَّا لِمَنْ يَرَى رَأْيَهُمْ ، أَهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ !؟ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ فِي سُورَةِ ﴿ حَمَّ (١) عَسَقَ (٢) ﴾ : ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبِحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ ﴿ الشُّورَى : ٥ ﴾ .

وَأَنَا أَقْسَمُ بِاللَّهِ مَا كَانَتْ الْمَلَائِكَةُ لِيَقْدِرُوا عَلَيَّ ذَلِكَ ، وَلَا لِيَفْعَلُوا حَتَّى أَمْرُوا بِهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ، قَالَ : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ ٢٧ ﴾ .
﴿ الْأَنْبِيَاءُ : ٢٧ ﴾ .

وَأِنَّهُ أَثْبَتَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي سُورَةِ ﴿ حَمَّ (١) عَسَقَ (٢) ﴾ ﴿ الشُّورَى ﴾ ، وَفُسِّرَتْ فِي ﴿ حَمَّ ﴾ الْكَبِيرِ ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ .
﴿ غَافِرٍ : ٧ ﴾ .

أَلَا تَرَى يَا ذَا خَوْلَانِ ، إِنِّي قَدْ أَدْرَكْتُ صَدْرَ الْإِسْلَامِ ، فَوَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِلخَوَارِجِ جَمَاعَةٌ قَطُّ إِلَّا فَرَّقَهَا اللَّهُ عَلَى شَرِّ حَالَاتِهِمْ ، وَمَا أَظْهَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ قَوْلَهُ إِلَّا ضَرَبَ اللَّهُ عُنُقَهُ ، وَمَا اجْتَمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى رَجُلٍ قَطُّ مِنَ الخَوَارِجِ ، وَلَوْ أَمَكْنَ الخَوَارِجُ مِنْ رَأْيِهِمْ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ، وَقُطِعَتِ السُّبُلُ ، وَقَطَعَ الْحَجُّ عَنِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَإِذَا لَعَادَ أَمْرَ الْإِسْلَامِ جَاهِلِيَّةً ، حَتَّى يَعُودَ النَّاسُ يَسْتَعِينُونَ بِرُؤُوسِ الْجِبَالِ كَمَا كَانُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَإِذَا لَقَامَ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرَةٍ - أَوْ عَشْرِينَ رَجُلًا - لَيْسَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَهُوَ يَدْعُو لِنَفْسِهِ بِالْخِلَافَةِ ، وَمَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَكْثَرَ مِنْ عَشْرَةِ آلَافٍ يُقَاتِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَيَشْهَدُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْكَفْرِ ، حَتَّى يُصْبِحَ الرَّجُلُ الْمُؤْمِنُ خَائِفًا عَلَى نَفْسِهِ وَدِينِهِ ، وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ ، لَا يَدْرِي أَيْنَ

يسلُك ، أو مع مَنْ يكون ، غير أن الله بحكمه وعلمه ورحمته نظر لهذه الأمة ، فأحسنَ النَّظْرَ لهم ، فجمعهم وألَّفَ بين قلوبهم على رجلٍ واحدٍ ليس من الخوارج ، فحقنَ اللهُ به دماءهم ، وسترَ به عوراتهم ، وعوراتِ ذراريهم ، وجمعَ به فُرقتهم ، وأمَّنَ به سُبُلَهم ، وقاتلَ به عن بِيضَةِ المسلمينِ عَدُوَّهم ، وأقامَ به حدودهم ، وأنصفَ به مظلومهم ، وجاهدَ به ظالمهم رحمةً من الله رحمهم بها ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ ﴾ إلى ﴿ الْعَالَمِينَ (٢٥١) ﴾ ﴿ [البقرة : ٢٥١] ، ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ ﴿ [آل عمران : ١٠٣] .

وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١) ﴾ [غافر : ٥١] ، فأين هم من هذه الآية ؟! ، فلو كانوا مؤمنين لَنَصَرُوا .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) ﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) ﴾ وَإِنَّا جُنْدُنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات : ١٧١ - ١٧٣] ، فلو كانوا جُنْدَ اللهِ غَلَبُوا ولو مرَّةً واحدةً في الإسلام .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ﴾ حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿ نَصَرَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) ﴾ ﴿ [الرُّوم : ٤٧] ، فلو كانوا مؤمنين نُصَرُوا ، وقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ حَتَّىٰ بَلَغَ ﴿ لَا يَشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ [النور : ٥٥] .

فأين هم من هذا ؟! ، هل كان لأحدٍ منهم قَطُّ أخبر إلى الإسلام من يوم عمر بن الخطَّاب بغير خليفة ، ولا جماعة ، ولا نظير ، وقد قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ [التوبة : ٣٣] ، وأنا أشهدُ أن الله قد أنفذ للإسلام ما وعدهم من الظهور والتَّمَكُّنِ

وَالنَّصْرَ عَلَى عَدُوِّهِمْ ، وَمَنْ خَالَفَ رَأْيَ جَمَاعَتِهِمْ .

وقال وهبٌ : ألا يسعك يا ذا خولان ، من أهل التوحيد ، وأهل القبلة ، وأهل الإقرار لشرائع الإسلام وسُنَّته وفرائضه ، ما وسع نبيَّ الله نوحًا ﷺ من عبدة الأصنام والكفار ، إذ قال له قومهُ : ﴿ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَالُونَ (١١١) ﴾ حَتَّى بَلَغَ : ﴿ تَشْعُرُونَ (١١٣) ﴾ .

﴿ الشعراء : ١١١ - ١١٣ ﴾ .

أَوْ لَا يَسْعُكَ مِنْهُمْ مَا وَسِعَ نَبِيَّ اللَّهِ وَخَلِيلَهُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ مِنْ عَبَدَةِ الْأَصْنَامِ ، إِذْ قَالَ : ﴿ وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) ﴾ ﴿ إِبْرَاهِيمَ : ٣٥ ، ٣٦ ﴾ .

أَوْ لَا يَسْعُكَ يَا ذَا خَوْلَانَ ، مَا وَسَعَ عَيْسَى ﷺ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُ إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ؟ .

إِنَّ اللَّهَ قَدْ رَضِيَ قَوْلَ نُوحٍ ، وَقَوْلَ إِبْرَاهِيمَ ، وَقَوْلَ عَيْسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِيَقْتَدِيَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ وَمِنْ بَعْدِهِمْ ، يَعْنِي : ﴿ إِنَّ تَعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ ﴿ الْمَائِدَةُ : ١١٨ ﴾ ، وَلَا يُخَالِفُونَ قَوْلَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَرَأْيِهِمْ فَيَمُنُّ بِقِتْدِي إِذَا لَمْ يَقْتَدِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَقَوْلِ أَنْبِيَائِهِمْ ، وَرَأْيِهِمْ .

وَاعْلَمْ أَنَّ دَخُولَكَ عَلَيَّ رَحْمَةٌ لَكَ ، إِنَّ سَمِعْتَ قَوْلِي ، وَقَبِلْتَ نَصِيحَتِي لَكَ ، وَحُجَّةٌ عَلَيْكَ غَدًا عِنْدَ اللَّهِ ، إِنَّ تَرَكْتَ كِتَابَ اللَّهِ ، وَعُدْتَ إِلَى قَوْلِ حُرُورَاءِ .

قال ذو خولان : فما تأمرني ؟ .

قال وهبٌ : انظر زكاتك المفروضة ، فأدِّها إلى مَنْ وِلاهُ اللهُ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَجَمْعَهُمْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الْمُلْكََ مِنَ اللَّهِ وَحُدَّهُ وَبَيْدَهُ ، يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ،

وينزعه مِمَّنْ يشاء ، فَمَنْ مَلَكَهُ اللهُ لا يقدر أحدٌ أن ينزعه منه ، فإذا أديتَ الزَّكَاةَ المفروضةَ إلى والي الأمرِ برئتَ منها ، فإن كان فضلُ فصلٍ به أرحامك ، ومواليك وجيرانك من أهل الحاجة ، وضيفٌ إن ضافك .

فقام ذو خولان فقال : أشهدُ أنني نزلتُ عن رأي الحروريةِ ، وصدقتُ ما قُلتَ ، فلم يلبثُ ذو خولان إلا يسيراً حتى مات (١) .

[٤] حوار الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت مع الملحدين في دعوتهم إلى الله ، وأنه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكه :

اجتمع طائفةٌ من الملاحدةِ بأبي حنيفة ، فقالوا : ما الدليلُ على وجودِ الصَّانعِ (٢) ؟ .

فقال : دعوني فخطري مشغولٌ بأمرٍ غريبٍ ! .

قالوا : ما هو ؟ .

قال : بلغني أن في دجلةٍ سفينةً مملوءةً من أصنافِ الأمتعة العجيبة ، وهي ذاهبةٌ وراجعةٌ من غيرِ أحدٍ يحركها ، ولا يقوم عليها ! .

فقالوا له : أمجنونٌ أنت ؟ ! .

قال : وما ذاك ؟ ! .

قالوا : إنَّ هذا لا يُصدِّقه عاقلٌ .

قال لهم : فكيف صدقتُ عقولكم أنَّ هذا العالمَ بما فيه من الأنواع والأصنافِ والحوادثِ العجيبة ، وهذا الفلكُ الدَّوَّارُ السَّيَّارُ يجري ، وتحدثُ هذه

(١) أخرجه ابن عساكر في « تاريخ دمشق » (١٧/٤٧٨-٤٨٣)، وأوردها المزي في « تهذيب الكمال » (٣١/١٥٠-١٥٦) ، والذهبي في « السير » (٤/٥٥٣-٥٥٥) .

(٢) صوابه الخالق ؛ فإنَّ الصَّانعَ ليس من أسماء الله ، إلا إذا أريد به الخير ؛ فإنَّهم توسَّعوا في الأخبار ما لم يتوسَّعوا في غيرها .

الحوادث من غير مُحدثٍ ، وتتحرك هذه المتحركات بغير مُتحركٍ ؟ ١؟
فرجعوا على أنفسهم باللام (١) .

[٥] حوار رجل من أهل الكلام مع الإمام الشافعي :

جاء رجلٌ من أهلِ الكلامِ إلى الإمامِ الشَّافعيِّ وهو في مِصرَ ، فسأله عن
مسألةٍ في الكلامِ ، فقال له الشَّافعيُّ : أتدري أين أنتَ ؟ .
قال الرجل : نعم .

قال : هذا الموضع الذي أغرقَ اللهُ فيه فرعونَ ، أبلغكَ أن رسولَ اللهِ ﷺ
أمرَ بالسؤال عن ذلك ؟ ١؟ .

قال : لا .

قال : هل تكلمَ فيه الصحابةُ ؟ .

قال : لا .

قال : هل تدري كم نجماً في السماءِ ؟ .

قال : لا .

قال : فكوكب منها تعرف جنسه ، طلوعه ، أفروله ، مهَّ خُلِقَ ؟ .

قال : لا .

قال : فشيء تراه بعينيك من الخلق لست تعرفه تتكلم في علمِ خالقه ؟ ١؟ .

ثمَّ سأله الشافعيُّ عن مسألةٍ من الوضوء ، فأخطأ فيها ، ففرَّعها إلى أربعة
أوجهٍ ، فلم يُصِبْ في شيءٍ من ذلك .

فقال له : شيء تحتاج إليه في اليوم خمسَ مرَّات تدع علمه ، وتتكلف علمَ

(١) انظر « درء تعارض العقل والنقل » ، (١٢٧/٣) ، و« الرِّياض النَّاطرة » (ص ١٥٨) .

الخالق؟! ، إذا هجس في ضميرك ذلك ، فارجع إلى الله ، وإلى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣) إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ | البقرة : ١٦٣ ، ١٦٤ | .

فاستدل بال مخلوق على الخالق ، ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك .
 فتاب الرجل^(١) على يد الشافعي من علم الكلام ، وأقبل على فقه الكتاب والسنة^(٢) ، وكان يقول بعد التوبة : « أنا خلقت من أخلاق الشافعي »^(٣) .

فلعلك - أخي الحبيب - لست بحاجة أن أُبين لك كيف أفلح الحوار الحكيم في الدفاع عن الكتاب والسنة ، فانظر ترأس الأسلوب العظيم الذي امتاز به الإمام الشافعي ، وتأمل تجد أن محاوره قد أصبح علماً من أعلام المسلمين ، أليس ذلك يدل على أهمية الحوار وخطورته؟! .

وليس يزيد الشمس نوراً وبهجة إطالة ذي وصف ، ولا مدح مادح [٦] حوار الإمام أحمد بن حنبل مع أمير المؤمنين الوثائق في مسألة خلق القرآن :

قال الأجرى^(٤) - رحمه الله - :

بلغني عن المهدي - رحمه الله - أنه قال : ما قطع أبي - يعني الوثائق - إلا شيخ جيء به من المصيصة ، فمكث في السجن مدة ، ثم إن أبي ذكره يوماً

(١) هذا الرجل الذي تاب من علم الكلام هو الإمام العلامة علم الزهاد أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى ابن مطلمة الأزني المصري تلميذ الشافعي ، ولد سنة (١٧٥هـ) ، وله المختصر في الفقه ، وقد شرعه عدة علماء ، توفي - رحمه الله - سنة (٢٦٤هـ) ، انظر « السير » (١٢/٤٩٤) .

(٢) المرجع السابق (١٥/٢٥-٣٢) .

(٣) المرجع السابق (١٢/٤٩٢) .

(٤) في الشريعة مخطوط تركيا (ص ٢٤) وما بعدها ، وفي المطبوع (ص ٦٣-٦٤) ، وفيها تصحيحات ، فليس في المعتمد إلا قليل .

فقال : عليّ بالشيخ ، فأتيت به مُقَيِّدًا ، فلَمَّا أُوقِفَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، سَلَّمْتُ عَلَيْهِ ، فلم يردّ عليه السَّلَامَ ، فقال له الشيخ : يا أمير المؤمنين ، ما استعملت معي أدبَ الله تعالى ، ولا أدبَ رسولِ الله ﷺ ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مَنَها أَوْ رُدُّوها ﴾ [النِّسَاءُ : ٨٦] .

وأمرَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَدِّ السَّلَامِ .

فقال له : وعليك السَّلَامُ ، ثُمَّ قال لابن أبي دُوَادٍ : سَلِّهُ .

فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا محبوسٌ مُقَيِّدٌ ، أُصَلِّي فِي الْحَبْسِ بِتَيْمَمٍ ، مَنَعْتُ الْمَاءَ ، فَمَرُّ بِقَيْودِي تُحَلِّ ، ومُرُّ لِي بِمَاءٍ أَتَطَهَّرُ وَأُصَلِّ ، ثُمَّ سَلِّني .

قال : فأمرَ فَحُلَّ قَيْدِهِ ، وأمرَ له بِمَاءٍ ، فتوضأَ وصَلَّى ، ثُمَّ قال لابن أبي

دُوَادٍ : سَلِّهُ .

فقال الشيخ : المسألة لي ، تأمره أن يُجِيبَنِي . فقال : سَلِّ .

فأقبلَ الشيخَ على ابن أبي دُوَادٍ يسألهُ ، فقال : أخبرني عن هذا الأمر الذي

تدعو الناسَ إليه ، أشيءٌ دعا إليه رسولُ الله ﷺ ؟ !

قال : لا .

قال : فشيءٌ دعا إليه أبو بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بَعْدَهُ ؟ !

قال : لا .

قال : فشيءٌ دعا إليه عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بَعْدَهُمَا ؟ !

قال : لا .

قال الشيخ : فشيءٌ دعا إليه عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمُ بَعْدَهُمْ ؟ !

قال : لا .

قال : فشيءٌ دعا إليه عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمُ بَعْدَهُمْ ؟ !

قال : لا .

قِرْنُ الْخِوَالِ

قال الشيخ : فشيءٌ لم يدعُ إليه رسولُ الله ﷺ ، ولا أبو بكرٍ ، ولا عمرٌ ، ولا عثمانُ ، ولا عليٌّ ﷺ تدعو أنتَ النَّاسَ إليه ؟! ، ليس يخلو أن تقولَ : علموه أو جهلوه ، فإن قلتَ جهلوه وعلمتهُ أنا ، فيا لكعُ بنُ لكعٍ (١) ، يجهل النبيُّ ﷺ والخلفاءُ الراشدون ﷺ شيئاً ، وتعلمه أنتَ وأصحابك ؟!

قال المهدي : فرأيتُ أبي وثبَ قائماً ، ودخلَ الحيري (٢) ، وجعلَ ثوبه في فيه يضحك ، ثمَّ جعلَ يقولُ : صدقَ ، ليس يخلو من أن نقولَ : جهلوه أو علموه ، فإن قلنا : علموه وسكتوا عنه ، وسعنا من السُّكوتِ ما وسعَ القومَ ، وإن قلنا : جهلوه وعلمته أنتَ وأصحابك ، فيا لكعُ بنُ لكعٍ ، يجهل النبيُّ ﷺ وأصحابه رضي الله تعالى عنهم ، شيئاً تعلمه أنتَ وأصحابك ؟!

ثمَّ قال : يا أحمدُ . قال : لبيك . قال : لستُ أعنيك ، إنما أعني ابن أبي داود ، فوثبَ إليه ، فقال : أعطِ هذا الشيخَ نفقةً ، وأخرجهُ عن بلدنا . وفي روايةٍ أوردها الذهبيُّ في « السِّير » : وسقطَ من عينه ابن أبي داود ، ولم يمتحن بعدها أحداً .

وفي روايةٍ : قال المهدي : فرَجَعْتُ عن هذه المقالة ، وأظنُّ أن أبي رجَعَ عنها منذُ ذلك الوقت (٣) .

(١) اللُّكْعُ : التَّمِيمُ والاحمقُ .

(٢) الحيري : من الحير ، والحير - بالفتح - شبه الحظيرة . انظر « لسان العرب » (٣/٤١٧) .

(٣) قال الذهبيُّ : هذه قصةٌ مابحةٌ ، وإن كان في طريقها من يُجهلُ ، ولها شاهدٌ في « السِّير » (١١/٢١٣) .

فلستُ قد أمسكتها الأجرى في التريعة (ص ٤١) ، وعنه ابن بطَّة في الإبانة رقم (٤٥٢) ، وأخرجها ابن بطَّة من طرقٍ أخرى في رقم (٤٥٣) ، والخطيب في « تاريخ بغداد » (٤/١٠٥١ و ٧٥/٧٥) ، وابن الجوري في « مناقب أحمد » (ص ٤٣١-٤٣٦) ، والمقدسي في المحنة (ص ١٦٩-١٧٤) ، وابن قدامة في « التوايين » (ص ٢١٠-٢١٥) .

وقال الأمين الشنقيطي في « أضواء البيان » (٤/٤١١) : « فهذه القصة لم تزل مشهورةً عند العلماء ، صحيحة الاحتجاج ، فيها إلقاء الخصم الحجرَ » . هـ .

[٧] حوار شيخ الإسلام ابن تيمية مع بعض الطوائف :

لقد كان شيخ الإسلام وعلم الأعلام ابن تيمية - رحمه الله - مُحاوراً حكيماً ، فكان إذا دخل في مُحاوره مع أي طائفة من الطوائف ، غلب فيها مُحاوريه وأعجزهم ، وانقادوا له طَوْعاً أو كَرْهاً ، وكان على عقيدة السلف الصالح ، ويعصُرُ عليها بالنواجذ ، ويبدل جهده ووقته وفكره في إرجاع جميع الطوائف المنحرفة إلى هذه العقيدة ، ويرى رأي إمام دار الهجرة مالك بن أنس «أنه لا يُصلحُ هذه الأمة إلا ما أصلحَ أولها» ، وهو رأي كُلِّ حَكِيمٍ عليمٍ ببدء الأمة قديماً وحديثاً ، وكان الشيخ شديد الانتصار لمذهب السلف ، والدفاع عنه بالحُجج العقلية والنقلية ، وقد عُقدت له مُناظرات في مصر والشام ، كان معظمها يحومُ حولَ هذه القضية (١) .

ومن هذه المناظرات على سبيل المثال لا الحصر :

المناظرة الأولى :

وكانت في العقيدة الواسطية التي كتبها لرضي الدين الواسطي من أصحاب الشافعي ، حينما طلب منه بالحاج أن يكتب له عقيدة تكون عمدة له ، ولأهل بيته في مدينة واسط ، فكتبها الشيخ ، وانتشرت بين الناس ؛ مما أدى إلى ثورة كبيرة من علماء الجهمية والاتحادية ، والرأفة ، وغيرهم من ذوي الأحقاد ، فسعى هؤلاء إلى السلطان في البلاد المصرية ، فكتب السلطان إلى نائبه على بلاد الشام يأمره بجمع قضاة المذاهب الأربعة ، وغيرهم من نوابهم ، والمفتين ، والمشايخ ، وعندما وصل الكتابُ إلى أمير الشام جمع قضاة المذاهب الأربعة ، والعلماء ، والشيخ ابن تيمية في قصر الولاية بدمشق ، وذلك يوم الاثنين الثامن من رجب سنة (٥٧٧ هـ) ، ثم بدأ المجلس وقراءة العقيدة الواسطية من أولها ،

(١) انظر « حياة شيخ الإسلام ابن تيمية » (ص ٢٧) .

وكانت مناقشة الشيخ ومناظرته بحضور الأمير ، فناظرهم الشيخ ، وردَّ عليهم ، وبين لهم مذهب السلف الصالح ، وأنَّ هذه العقيدة هي عقيدة أهل السنة والجماعة ، وهي التي يدلُّ عليها الكتابُ والسنةُ ، وإجماعُ السلف ، وصار يُناظر أصحاب المذاهب ، فكان أعلمَ بمذهبهم منهم ، وأعجزهم أمام الأمير .

ثمَّ انتهى المجلس الأول ، واجتمعوا للمجلس الثاني يوم الجمعة بعد الصلاة في الثاني عشرَ من رجب سنة (٧٠٥هـ) ، وقد حضرَ قضاةَ المذاهب الأربعة معهم صفي الدين الهندي ، وتكلَّم مع الشيخ تقي الدين كلامًا كثيرًا ، ولكن ساقيته لاطمت بحرًا عميقًا ، ثمَّ استلمَ مَنْ ناظرَ عقبه ، فكان كالبحر الزأخر ، حتَّى إنَّ هؤلاء القضاة والعلماء عجزوا عن مناظرته ؛ لأنَّه كان يردُّ عليهم بالكتاب والسنة ، ويدعوهم إلى التمسُّك بمذهب السلف الصالح ، ويبيِّن لهم أنَّه لم يضعْ هذه العقيدة من ذات نفسه ، وليس لأحد أن يُشرِّع للناس ما لم يأذن به الله ، وإنَّما العقيدة تُؤخذ من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وإجماع سلف هذه الأمة ، فما أثبتَه اللهُ لنفسه ، أو أثبتَه رسولُ الله ﷺ ، وجبَ على كلِّ مسلم أن يُثبتَه اللهُ من غير تحريف ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل ، ولا تكييف ، وما نفاه عن نفسه ، أو نفاه عنه رسولُه ﷺ ، وجبَ نفيه عنه ؛ لأنَّه تعالى أعلمُ بنفسه .

وانتهى هذا المجلس أمام الأمير ، أمَّا عن ابن تيمية فقد خرج والناس يحملون له الشمع إلى منزله على عاداتهم في ذلك .

ثمَّ عقدَ المجلس الثالثُ في اليوم السابع من شعبان سنة (٧٠٥هـ) في القصر واجتمعَ الجماعةُ كلُّهم على الرضى بالعقيدة الواسطية ، وأخذ بعضهم يمدح الشيخ ، ويثني عليه ، وكان هذا كُلُّه أمام رئيس المجلس نائب السلطان (١) .

(١) انظر المناظرة مطوَّلة في « الفتاوى » (٢/ ١٦٠-٢٠١) ، و« حياة ابن تيمية » (ص ٢٧) و« الحكمة في الدعوة إلى الله » (ص ٣١٣-٣١٥) ، و« البداية والنهاية » بالفاظ مختصرة ومُفيدة (١٤/ ٣٦-٣٧) .

فأظهر الله الحقَّ ، وأبطلَ الباطلَ ، وظهرتُ مُحاورةُ ابنِ تيميَّةَ الحكيمَةَ أمامَ الجميعِ ، فجزاه اللهُ خيرًا .
المناظرةُ الثانيةُ :

وكانت هذه المناظرة - والتي أعزَّ اللهُ بها أهلَ السُّنَّةِ ، وخذَلَ بها أهلَ البدعِ والخُرافاتِ - مع الطائفةِ الأحمديةِ الباطنيةِ ^(١) الذين كانوا يُخالفون الشيخَ تقيَّ الدينَ في عقيدةِ السُّلفِ الصَّالحِ ، وكان يأمرهم بِاتِّباعِ الكتابِ والسُّنَّةِ ، ويُنكرُ عليهم فِعْلَهُمْ وأحوالهم الشَّيطانيَّةَ ، وفي يومِ السَّبْتِ تاسعِ جُمادى الأولى سنة (٧٠٥هـ) حضرَ هؤلاءِ المبتدعةُ في جموعٍ هائلةٍ إلى قصرِ نائبِ السُّلطانِ أن يكفَّ عنهم الشيخَ ابنُ تيميَّةَ ومذهبهُ السُّلفيَّ ، وعندما رآهم النَّاسُ اجتمعَ عليهم جَمٌّ غفيرٌ ، ولكن الأميرَ لم يقبلَ منهم إلاَّ بحضورِ الشيخِ ومناظرتهِ ، فأرسلَ إليه يوصلُ ، وسألهُ الأميرُ ، فأخبره ابنُ تيميَّةَ أنَّ هؤلاءِ من أهلِ البدعِ ، وقد أفسدوا من دينِ المسلمين ما اللهُ به عليمٌ ، وذكرَ له جميعَ ما يعرفُ عنهم ، وأنَّهُ نهاهم عن البدعِ ، وهم يأتون بأحوالٍ شيطانيَّةٍ ، ومنها دخولهم النَّارَ ، واستعدَّ الشيخُ أَنَّهُمْ إذا دخلوا النَّارَ في هذا اليومِ فسيدخلُ معهم ، ومَنْ احترقَ فعليه لعنةُ اللهِ ، ولكن بعدَ غسلِ الأجسامِ بالخلِّ والماءِ الحارِّ ؛ لأنَّهُمْ يطلون أجسامهم بأدويةٍ من دُهْنِ الضَّفادعِ ، وباطنِ قشرِ النَّارنجِ ، فإذا غُسِلتِ الأجسامُ بطلتِ الحيلةُ .

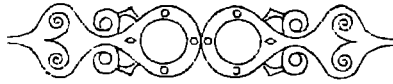
وحضرَ شيوخهم الأكابرَ يطلبون من الأميرِ الإصلاحَ ، والعفو عن الماضيِ والتَّوبةَ ، واتِّباعَ الكتابِ والسُّنَّةِ ، فقبلَ منهم ابنُ تيميَّةَ ، ولكن عارضَ شيخٌ

(١) هي الطائفةُ المعروفةُ اليومَ بالرِّفاعيةِ نسبةً إلي أحمد الرِّفاعيِّ المُتوفى سنة (٥٨٠هـ) من بني رفاعَةَ قبيلةٍ من العربِ ، وجماعتهُ يستخدمون السيوفَ ، والحراِبَ ، واللَّعبَ مع الثَّعابينِ والعقاربِ في إثباتِ الكراماتِ ! .

آخر من الصُّوفِيَّةِ ، فناظره ابن تيميةَ أمامَ الجموعِ الغفيرةَ ، وتحداهم ابن تيميةَ في مشارقِ الأرضِ ومغاربها بأيِّ شيءٍ يصنعونه في النَّارِ من حيلهم مثلهم بشرطِ الغسلِ ، ولحكمةِ ابن تيميةَ قال : يكفي في ذلك قنديلٌ يُوقدُ داخلَ أصبعِ المناظرِ منهم وابن تيميةَ بعد الغسلِ .

وعندما سمع الصُّوفِيَّةُ ذلك انهزموا أمامَ الجموعِ ، وأقروا بالتزامِ الكتابِ والسُّنةِ ، وطلبَ ابن تيميةَ من الأميرِ أن يَضْرِبَ عُنُقَ مَنْ خالفَ الكتابِ والسُّنةَ ، فأعلنَ الأميرُ للنَّاسِ أَنَّ مَنْ خالفَ الكتابِ والسُّنةَ ضُرِبَ عُنُقُهُ ، وطلبَ الصُّوفِيَّةُ من الشيخِ الكُتُبَ الصَّحِيحَةَ ، فَبُذِلَتْ لَهُمْ ، وتفرَّقَ النَّاسُ على التَّوبَةِ ، وسمعَ النَّاسُ يقولون : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١١٨) فغلبوا هنالك وانقربوا صاغرين (١١٩) ﴿ الأعراف : ١١٨ ، ١١٩ ﴾ (١) .

فانظر - أخي الحبيب - كيف كان الحوار سبباً في توبة هذا الجَمِّ الغفيرِ على يد العالمِ النحريرِ الإمامِ المُجدِّدِ شيخِ الإسلامِ تقيِّ الدِّينِ بن تيميةَ ! ، نسألُ اللهَ أن يجعلَ ذلك في ميزانِ حسناته ، وهذا ما يطمَعُ فيه المحاورُ المُخلصُ .



(١) انظر هذه المناظرة مطوّلة في « الفتاوى » (١١/٤٢٥-٤٧٥) ، وقد سقّتها بالمعنى ، واستفدت ذلك من كتاب « الحكمة في الدعوة إلى الله » ، وانظر مناظراتٍ أخرى مفيدةً في « الفتاوى » (١١/١٣٥-١٥٦) .

[٨] حِوَارِ الإِمَامِ مُحَمَّدَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْوَزِيرِ ^(١) مَعَ شَيْخِهِ جَمَالِ الدِّينِ :
 أَي أَخِي الْقَارِي ، لِعَلِّي قَدْ أَطَلْتُ عَلَيْكَ كَثِيرًا ، وَلَعَلَّ الْمَلَّلَ وَالسَّامَةَ -
 وَرُبَّمَا النُّعَاسَ - يَطْرُدَانِكَ ، فَاصْبِرْ مَعِيَ قَلِيلًا ، فَلَعَلَّ هَذِهِ الْوَقْفَةَ لَمْ تَفْتَضَّ
 بِكَارْتِهَا بَعْدُ .

فَحِيْهَلَا إِنْ كُنْتَ ذَا هِمَّةٍ ، فَقَدْ حَدَا بِكَ حَادِي الشُّوقِ فَاطُوِ الْمَرَاحِلَا
 وَلَا تَنْتَظِرْ بِالسَّيْرِ رُفْقَةً قَاعِدٍ وَدَعَا ، فَإِنَّ الْعَزْمَ يَكْفِيكَ حَامِلَا
 عَوْدَةً عَلَيَّ بَدَا :

اعترضَ عليّ ابن الوزير شيخه العلامة جمال الدين برسالة وصفها ابن
 الوزير بقوله : « إلا أنه لما كثر الكلام ، وطال واتسع مجال القيل والقال ،
 جاءتني رسالة مُحِبِّة ، واعتراضات مُحَرَّرَةٌ مُشْتَمَلَةٌ على الزَّوْجِرِ والعَطَاتِ ،
 والتَّيْبِيهِ بالكلم والموقفات ، زعم صاحبها أنه من النَّاصِحِينَ الْمُحِبِّينَ ، وَأَنَّهُ أَدَّى
 مَا عَلَيْهِ مِنْ حَقِّ الْأَقْرَبِينَ ، وَأَهْلًا بِمَنْ أَبْدَى النَّصِيحَةَ ، فَقَدْ جَاءَ التَّرْغِيبَ إِلَى
 ذَلِكَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ ، وَلَيْسَ بِضَائِرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا يَعْرُضُ فِي ذَلِكَ مِنْ

(١) هو الإمام المجتهد المطلق المفسر الحافظ المحدث المتقن الأصولي الفقيه المتكلم محمد بن إبراهيم
 الوزير ، ينتهي نسبه إلى الحسن السبط ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، ولد عام ١١٥ هـ
 وتوفي في عام (٨٤٤ هـ) عن ٦٥ عامًا ، ترجم له الشوكاني والسخاوي والحافظ ابن حجر وصاحب
 مطلع البدور ، والوجيه ، والعطاب ، والشريف الفاسي ، وصديق حسن خان . قال عنه ابن
 حجر في « أبناء الغمر » (٢٧٢ / ٧) : « كان مقلداً على الاشتغال بالحديث ، شديد الميل إلى السنة »
 وقال عنه الشوكاني : « والذي يغلب على الظن أن شيوخه لو جمعوا جميعاً في ذات واحدة لم
 يبلغ علمهم إلى مقدار علمه ، وناهيك بهذا لو قلت : إنَّ السِّمْنَ لَمْ تُنْجِبْ مِثْلَهُ ، لَمْ أَبْعُدْ عَنِ
 الصَّوَابِ » ، وقال عنه العلامة صديق حسن خان : « كان فريداً عَصْرَهُ ، وَنَادِرَةَ الدَّهْرِ ، خاتمة النقاد
 ، وحامل لواء الإسناد ، وبقية أهل الاجتهاد بلا خلاف وعناد ، رأساً في المعقول والمنقول ، إماماً
 في الفروع والأصول » ، وسئل عنه شيخه ، فقال : « هو أذكى النَّاسِ قَلْبًا ، وَأَزْكاهُمْ لَبًا ، كَانَ
 قَلْبُهُ جَذْوَةً نَارٍ تَتَوَقَّدُ ذِكَاةً » ، ومع هذا الثناء والتقدير من شيخه له ، فإنه قد تحول من مادح إلى
 قادح ، ومن صديق إلى كاشح ، ومن معجب به إلى مسفه له ، ومنقر للناس عنه ، مما ألم
 بالإمام ابن الوزير وأحزنه ، فقال معاتباً شيخه بقصيدته ، والتي مطلعها :
 عَرَفْتُ قَدْرِي ، ثُمَّ أَنْكَرْتَهُ فَمَا عَدَا بِاللَّهِ مِمَّا بَدَأَ !؟

الجدل ، مهما وُزِنَ بميزان الاعتدال ؛ لأنه حينئذ يدخل في السُّنَّةَ ، ويتناولُه أمرٌ : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ { النحل : ١٢٥ } .

وَقَدْ اجَادَ مَنْ قَالَ - وَأَحْسَنَ - :

وَجِدَالُ أَهْلِ الْعِلْمِ لَيْسَ بِضَائِرٍ مَا بَيْنَ غَالِبِهِمْ إِلَى الْمَغْلُوبِ وَعَقَّبَ الْإِمَامُ ابْنُ الْوَزِيرِ عَلَى مَا وَرَدَ فِي هَذِهِ الرَّسَالَةِ بِقَوْلِهِ : « بَيِّدْ أَتْنَهَا لَمْ تَضَعْ تَاجَ الْمَرْحِ وَالْإِخْتِيَالِ ، وَتَسْتَعْمَلُ مِيزَانَ الْعَدْلِ فِي الْإِسْتِدْلَالِ ، بَلْ خَلَطْتَ مِنْ سِيمِ الْمُخْتَالِينَ بِشَوْبِ ، وَمَالَتَ مِنَ التَّعْتُّتِ فِي الْحِجَاجِ إِلَى صَوْبِ ، فَجَاءَتْني تَمْشِي الْخَطْرَا ، وَتَمِيسُ فِي مُحَافِلِ الْخَطَرِ ! ، مَنْفُوضَةٌ لَمْ تُخْتَمِ ، مَشْهُورَةٌ لَمْ تُكْتَمِ ، مُبْتَرِّجَةٌ قَدْ كَشَفَتْ حِجَابَهَا ، وَطَرَحَتْ نِقَابَهَا ، وَطَافَتْ عَلَى الْأَكَابِرِ وَطَاشَتْ إِلَى الْأَصَاغِرِ ، حَتَّى فَضَّتْ أَيْدِي الْإِبْتِدَالِ نَضَارَتَهَا وَافْتَضَّتْ أَفْكَارَ الرَّجَالِ بِكَارَتِهَا ، وَخَيْرُ النَّصَاحِ الْخَفِيُّ ، وَخَيْرُ النَّصَاحِ الْخَفِيُّ ، وَخَيْرُ الْكُتَابِ الْمُخْتومِ ، وَخَيْرُ الْعِتَابِ الْمَكْتومِ ، ثُمَّ إِنِّي تَأَمَّلْتُ فُصُولَهَا ، وَتَدَبَّرْتُ أُصُولَهَا ، فَوَجَدْتُهَا مُشْتَمَلَةً عَلَى الْقَدْحِ تَارَةً فِيمَا نُقِلَ عَنِّي مِنَ الْكَلَامِ ، وَتَارَةً فِي قَوَاعِدِ الْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ ، وَتَارَةً فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَرَأَيْتُ مَا يُخَصِّنِي غَيْرَ جَدِيرٍ بِصَرْفِ الْعِنَايَةِ إِلَيْهِ ، وَلَا كَثِيرٍ يَسْتَحِقُّ الْإِقْبَالَ بِالْجَوَابِ عَلَيْهِ ، وَأَمَّا مَا يُخَصِّنُ بِالسُّنَنِ النَّبَوِيَّةِ ، وَالْقَوَاعِدِ الْإِسْلَامِيَّةِ - مِثْلُ : قَدْحِهِ فِي صِحَّةِ الرَّجُوعِ إِلَى آيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْأَخْبَارِ النَّبَوِيَّةِ ، وَالْآثَارِ الصَّحَابِيَّةِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْقَوَاعِدِ الْأُصُولِيَّةِ - فَإِنِّي رَأَيْتُ الْقَدْحَ فِيهَا لَيْسَ أَمْرًا هَيْئًا ، وَالذَّبَّ عَنْهَا لَازِمًا مُتَعَيِّنًا ، فَتَعَرَّضْتُ لْجَوَابِ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنْ نَقْضِ تِلْكَ الْقَوَاعِدِ الْكِبَارِ الَّتِي قَالَ بِهَا الْجِلَّةُ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْأَخْيَارِ ^(١) ، وَقَدْ قَصِدْتُ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الذَّبِّ عَنِ السُّنَنِ

(١) « الرَّؤُوسُ الْبَاسِمُ » (١/٩-١٠)

النَّبَوِيَّةُ ، والقواعد الدِّيْنِيَّةُ ، وليس يَضُرُّني وقوفُ أهل المعرفة على مالي من التَّقْصِيرِ ، ومعرفتهم بأنَّ باعي في هذا الميدان قصيرٌ لاعترافي بأنِّي لستُ من نُقَّادِ هذا الشأنِ ، ولا من فُرسانِ الميدانِ ، ولكنِّي لم أجدُ من الأصحابِ مَنْ تَصَدَّقَ لذلك من غيرِ إحسانٍ ، ولا إعجابٍ ، وَمَنْ عَدِمَ الماءَ تيمَّمَ بالترابِ ، عالماً بأنِّي لو كنت باري قوسها ونبالها ، وعترة فوارسها ونزالها ، فلن يخلو كلامي من الخطأ عند الانتقاد ، ولا يصفو جوابي من الكدَرِ عند النُّقَادِ ، فالكلام الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خَلْفِهِ هو كلام الله الحكيم ، وكلام من شهِدَ بعصمته القرآن الكريم ، وكلُّ كلامٍ بعد ذلك فله خطأ وصوابٌ ، وقشرٌ ولُبٌّ ، ولو أنَّ العلماءَ رضي الله عنهم تركوا الذَّبَّ عن الحقِّ خوفاً من الخلقِ ^(١) ، لكانوا قد أضعاعوا كثيراً ، وخافوا حقيراً ، وأكثر ما يخاف الخائف في ذلك أن يكلَّ حُسامه ^(٢) في مُعْتَرِكِ المناظرة ، وينبؤ ويعثر جواده في مجال المُحَاجَّةِ ، ويكبُّ ، فالأمر في ذلك قريبٌ ، إن أخطأ فمن الذي ما عصمَ ؟! ، وإن خُطِئَ فمن الذي ما وُصِمَ ؟!

والقاصدُ لوجه الله لا يخاف أن يُنْقَدَ عليه خللٌ في كلامه ، ولا يُهابُ أن يُدَلََّ على بطلانِ قوله ، بل يُحِبُّ الحقَّ من حيثُ أتاهُ ، وَيَقْبَلُ الهُدَى مِنْ أهداهُ ، بل المخاشنة بالحقِّ أحبُّ إليه من المداهنة على الأقوال القبيحة ، وصديقك من صدقك ، لا من صدقك ، وفي نوايغ الحكمة : « عليك بمن يُنذِرُ الإبسالَ والإبلاسَ ، وإياك ومن يقولُ لك : لا بأس ولا تأس » .

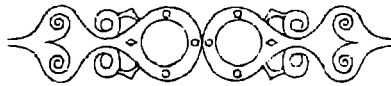
ثمَّ إنَّ الجوابَ لما تمَّ بحمدِ الله تعالى اشتملَ على علومٍ كثيرة ، وفوائد غزيرةٍ أثريةٍ ، ونظريَّةٍ ، ودقيقةٍ ، وجليَّةٍ ، وجدليَّةٍ ، وأدبيَّةٍ ، وكلُّها رياضٌ

(١) له كتابٌ في هذا المعنى بعنوان « إيثار الحقِّ على الخلقِ » .

(٢) الحُسامُ : السيفُ القاطعُ .

للعارفين نَصْرَةً ، وفراديسُ عند المُحَقِّقِينَ مُزْهِرَةٌ ، لِكِنِّي وَضَعْتُهُ وَأَنَا قَوِيُّ
النَّشَاطِ ، مُتَوَقِّرُ الدَّاعِيَةِ ، نَائِرُ الْغَيْرَةِ ، فَاسْتَكْرَثْتُ مِنَ الْاِحْتِجَاجِ رَغْبَةً فِي قَطْعِ
اللَّجَاجِ ، فَرُبَّمَا كَانَتِ الْمَسْأَلَةُ فِي كِتَابِ الْعُلَمَاءِ ﷺ مَذْكُورَةً غَيْرَ مُحْتَجِّ عَلَيْهَا
بِأَكْثَرِ مِنْ حُجَّةٍ وَاحِدَةٍ ، فَاحْتَجُّ عَلَيْهَا بِعَشْرِ حُجَجٍ ، وَتَارَةً بِعَشْرِينَ حُجَّةً ،
وَتَارَةً بِثَلَاثِينَ حُجَّةً ، وَكَذَلِكَ قَدْ يَتَعَنَّتُ صَاحِبُ الرُّسَالَةِ ، وَيُظْهِرُ الْعُجْبَ مِمَّا
قَالَ ، فَأَحَبُّ أَنْ يَظْهَرَ بِهِ ضَعْفُ اخْتِيَارِهِ ، وَعَظِيمُ اغْتِرَارِهِ ، فَاسْتَكْرَثْتُ مِنْ إِيرَادِ
الِإِشْكَالَاتِ عَلَيْهِ ؛ حَتَّى يَتَّضِحَ لَهُ خُرُوجُ الْحَقِّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، فَرُبَّمَا أوردتُ عَلَيْهِ
فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ أَكْثَرَ مِنْ مَائَتِي إِشْكَالٍ عَلَى مَقْدَارِ نِصْفِ الْوَرَقَةِ « (١) .

فَانظُرْ - أَخِي الْحَبِيبُ - إِلَى تِلْكَ الرَّوَائِعِ الرَّائِعَاتِ ، فَلَوْ تَأَمَّلْتَ فصولَهَا ،
وَتَدَبَّرْتَ أَصُولَهَا ، لَعَلِمْتَ أَنَّ صَاحِبَهَا قَدْ بَرَعَ بِفَنِّ الْحَوَارِ ، فَلَوْ ذَهَبْتَ أَنْقَلُ
إِلَيْكَ شَيْئًا مِنْ آدَابِهِ مَعَ شَيْخِهِ ، لَبَكَيْتَ عَلَى مُحَاوِرِي زَمَانِكَ ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ
يُورِدُ فِي مَعْرُضِ رَدِّهِ عَلَى شَيْخِهِ الْعِبَارَةَ الْمُسْعِرَةَ بِالثَّنَاءِ وَالتَّقْدِيرِ ، فَيَبْدَأُ بِذِكْرِ قَوْلِ
شَيْخِهِ بِقَوْلِهِ : « وَقَالَ - أَيْدُهُ اللَّهُ - ... » ، ثُمَّ يَنَاقِشُ قَوْلَهُ بِأَدَبٍ جَمٍّ ، وَعِلْمٍ
غَزِيرٍ ، وَإِنْصَافٍ مُنْقَطِعِ النَّظِيرِ ، فَقَدْ كَانَ - رَجِمَهُ اللَّهُ - مَدْرَسَةً فِي فَنِّ الْحَوَارِ ،
وَأَيَّةً فِي هَذَا الْمِضْمَارِ ، وَقَلَّ مَنْ ارْتَدَى هَذَا الثُّوبَ الْقَشِيبَ فِي عَصْرِهِ سِوَاهُ .



(١) « الرَّوْضُ الْبَاسِمُ » (ط/١١-١٢) ، وَهُوَ مَخْتَصِرُ كِتَابِ الْعَوَاصِمِ وَالْقَوَاصِمِ اخْتِصَرَهُ مُؤَلِّفُهُ ،
وَالْعَوَاصِمُ طَبِعَ مَوْسَسَةُ الرِّسَالَةِ بِتَحْقِيقِ شُعَيْبِ الْأَرْنَؤُوطِ فِي تِسْعَةِ مُجَلَّدَاتٍ ، وَتَحَقَّقْتُ أَمْنِيَّةُ
الشُّوكَانِيِّ الْقَائِلِ عَنْ هَذَا الْكِتَابِ : « لَوْ خَرَجَ إِلَى غَيْرِ الدِّيَارِ الْيَمِينَةِ ، لَكَانَ مِنْ مَفَاخِرِ الْيَمَنِ
وَأَهْلِهِ » .

الباب الأول أصول الحوار

- الإقرار بالخلاف .
- التَّجَرُّدُ فِي الْحَوَارِ .
- الْعِلْمُ .
- الرَّجُوعُ إِلَى النَّصِّ لِذَرَأِ النَّزَاعِ .
- عَدَمُ ادِّعَاءِ الْعِلْمِ فِي كُلِّ حَالٍ .
- حُسْنُ الْفَهْمِ .
- تَحْدِيدُ الْهَدَفِ .
- الْأَمَانَةُ وَالنَّوْثِيقُ .
- الْإِبْتِعَادُ عَنِ الرَّخْصِ الْمُفْتَعَلَةِ .
- عَدَمُ الدُّخُولِ فِي النَّيَّةِ .

الإقرار بالخلاف

اقتضتُ حكمةُ الله سبحانه وتعالى أن تختلف آراءُ النَّاسِ في صغيرِ الأمور وكبيرها ، سواءً في أمور الدنيا أم في أمور الدين ، وسببُ الاختلافِ في الأمور الدينية أن نصوصَ القرآن والسنة المتعلقة بالأحكام ظنيَّةُ الدلالة - أي تحتلُّ أكثرَ من وجهٍ من وجوه التفسير - فإذا أُضيفَ إلى هذا اختلاف العقول في العلم والفهم ، كانت النتيجة اختلاف وجهات النظر فيما عدا ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، وهي أساسيات الدين وأركانه : كأركان الإسلام والإيمان .

فلو كانت نصوص القرآن والسنة كلها قطعية الدلالة ، لا تحتل سوى وجه واحد من وجوه التفسير ، ولو تساوت العقول والأفهام ، لما كان هناك خلاف .

والخلاف - كما عرفه الجرجاني - : هو منارعةٌ تجري بين المتعارضين لتحقيق

حق ، أو لإبطال باطل .

وعلى الرغم من أن الخلاف سنة الله في خلقه ، كما قال الله سبحانه : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿ ١١٨ ، ١١٩ ﴾ .

ورغم وجود هذا التباين والقبالية للاختلاف إلا أن الله سبحانه وتعالى وضع على الصراط المستقيم منائر ؛ ولذا قال الله تعالى في آية أخرى : ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

ويمكن تقسيم الخلاف إلى ثلاثة أنواع :

(أ) الخلاف المحدود الممدوح :

ويُقصدُ به مخالفة المشركين ، وأهل الكتاب ، وأهل الفسوق والمجوس في هيئاتهم وأحوالهم ، وأعيادهم ومناسباتهم ، فالمخالفة في هذا وأمثاله ممدوحة

ومحمودة في الشرع ، وهي مقصد شرعي ، ويصاحبها النهي عن مشابهتهم والتشبه بهم .

(ب) الخلاف المذموم الممقوت :

وهو الاختلاف في الأصول والمناهج ، وطرق الاستدلال والمقاصد الكلية للتشريع ، وهو الذي يُعرف باختلاف التضاد ، ويدخل في ذلك كلُّ جزئية يظهر على صاحبها سوء النية ، أو مُصادمة للنص ولو عن حسن قصد .

(ج) الخلاف السائغ الجائز :

وهو الخلاف في المسائل الفرعية القابلة للاجتهاد ضمن الضوابط الشرعية ، وهذا النوع هو الذي يُسميه علماء الأمة باختلاف الأفهام .

ومسئولية المحاور الناجح الاطلاع على الخلاف ، وتقديره حق قدره ؛ فإنَّ الجهل بالخلاف يؤدي إلى ردِّ بعض الحق الذي لا يعلمه ، إذ الحق غير منحصر في قول فردٍ من العلماء كائناً من كان ، كما أنَّ جهل المحاور بالخلاف يُجرئه على ترجيح ما ليس براجح بمجرد أن يطلع على نص في الموضوع دون أن يبحث هل ثمة نصوص أخرى تُخصِّصه ، أو تُنسخه ، أو تُقيده . . . إلخ .

روى عثمان بن عطاء عن أبيه قوله : « لا ينبغي لأحد أن يفتي الناس ، حتى يكون عالماً باختلاف الناس ، فإنه إن لم يكن كذلك ردَّ من الحق ما هو أوثق من الذي في يديه » (١) .

ألا ترى - أخي المحاور - أنه جزم أنَّ الجاهل بالخلاف يردُّ من العلم ما هو أوثق مما معه من العلم ، ولم يقل : ربَّما ردَّ من الحق ، ولا قال : ما قد يكون أوثق من الذي فيه يديه .

وكان التابعيُّ الجليلُ أيوبُ السخيتانيُّ - رحمه الله - يقول : « أَجَسَرُ النَّاسِ عَلَى الْفُتْيَا أَقْلُهُمْ عِلْمًا بِاخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ ، وَأَمْسَكُ النَّاسِ عَنِ الْفُتْيَا أَعْلَمُهُمْ بِاخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ » (١) .

واعلم - أخي المحاور - أنَّ هناك خلَاقًا مقبولًا لا يُعْتَفُ صاحِبُهُ ، ولا يُشْرَبُ عليه ، وهو ما لم يكنُ بدافعِ العصبيةِ والهوى ، بل طلبًا للحقِّ ، واجتهادًا في تحصيله بوسيلته الشرعيةِ وهي الاجتهادُ ، ما دام كُلُّ طَرَفٍ مُصِيبًا في أداء ما عليه من حقِّ الاجتهاد ، وينبغي ألاَّ يُؤدِّي اختلافُ الآراءِ إلى اختلافِ القلوبِ .

قال ابن تيمية - رحمه الله - :

« وقد كان العلماءُ من الصَّحابةِ ، والتَّابعينِ ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ ، إِذَا تَنَازَعُوا فِي الْأَمْرِ اتَّبَعُوا أَمْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي قَوْلِهِ : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (٥٩) » { النساءُ : ٥٩ } ، وكانوا يُناظرونَ في المسألةِ العلميَّةِ والعمليةِ مع بقاء الألفةِ والعصمةِ ، وأخوةِ الدِّينِ ، نَعَمَ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ، وَالسُّنَّةَ الْمُسْتَفِيزَةَ أَوْ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلْفُ الْأُمَّةِ ، فَهَذَا يُعَامَلُ بِمَا يُعَامَلُ بِهِ أَهْلُ الْبِدْعِ .
وأما الاختلافُ في الأحكامِ ، فأكثَرُ من أن يُضَبِّطَ ، فلو كان كُلُّمَّا اختلفَ مُسْلِمَانِ فِي شَيْءٍ تَهَاجَرَا ، لَمْ يَبْقَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَصْمَةٌ وَلَا أُخُوَّةٌ » (٢) .

ومن اللطائف التي يحسن ذكرها في هذا الباب :

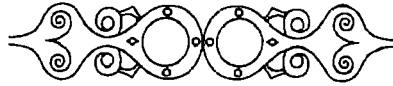
قولُ بيهقَرُ الصُّفَرِيّ - رحمه الله - : « ما رأيتُ أعقلَ من الشَّافعيِّ ، ناظرتهُ في

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٧ .

(٢) الفتاوى ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

مسألة ، ثم افترقنا ، ولقيني ، فأخذ بيدي ، ثم قال : يا أبا موسى ، ألا يستقيم أن نكون إخواناً ، وإن لم نتفق على مسألة ؟! » .

قال الإمام الذهبي معلقاً على كلام الشافعي : « وهذا يدلُّ على كمالِ عقلِ هذا الإمام ، وفقه نفسه ؛ فما زال النظراءُ يختلفون » (١) .



التَّجَرُّدُ فِي الْجَوَارِحِ

أخي ، إنَّ العلمَ وَحْدَهُ لا يكفي في ساحةِ الحوار ، بل لأبَدٍ معه من الإخلاص ، فقد يَظُلُّ المرءُ على علمٍ - والعياذُ بالله - كما قال اللهُ تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ { الجاثية : ٢٣ } .

والإخلاصُ من أعظمِ الأصولِ المهمَّةِ ، ومن أهمِّ أعمالِ القلوبِ عموماً .

قال ابنِ قَيِّمِ الجوزِيَّةِ : « أعمالُ القلوبِ هي الأصلُ ، وأعمالُ الجَوَارِحِ تبعٌ ومُكَمَّلَةٌ ، وإنَّ التَّيَّةَ بمنزلةِ الرُّوحِ ، والعملَ بمنزلةِ الجسدِ للأعضاءِ الذي إذا فارق الرُّوحَ مات ، فمعرفةُ أحكامِ القلوبِ أهمُّ من معرفةِ أحكامِ الجوارحِ » (١) .

وقال أيضاً : « وَمَنْ تَأَمَّلَ الشَّرِيعَةَ فِي مَصَادِرِهَا وَمَوَارِدِهَا ، عِلْمَ ارْتِبَاطِ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ بِأَعْمَالِ الْقُلُوبِ ، وَأَنَّهَا لَا تَنْتَفِعُ بِدُونِهَا ، وَأَنَّ أَعْمَالَ الْقُلُوبِ أَفْرَضُ عَلَى الْعَبْدِ مِنْ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ ، وَهَلْ يُمَيِّزُ الْمُؤْمِنُ عَنِ الْمُنَافِقِ إِلَّا بِمَا فِي قَلْبِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَعْمَالِ الَّتِي مَيَّزَتْ بَيْنَهُمَا ؟ ! ، وَعُبودِيَّةُ الْقَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ عُبودِيَّةِ الْجَوَارِحِ ، وَأَكْثَرُ وَأَدْوَمُ ، فَهِيَ وَاجِبَةٌ فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ » (٢) .

وقال ابنُ تيمِيَّةَ : « والنَّوعُ الواحدُ من العملِ قد يفعلُه الإنسانُ على وَجْهِه يكملُ فيه إخلاصُهُ وعُبودِيَّتُهُ اللهُ ، فيغفرُ اللهُ بهِ كبائرَ الذُّنُوبِ كما في حديثِ البطاقةِ ، فهذا حالُ مَنْ قالها بإخلاصٍ وصدقٍ ، كما قالها هذا الشَّخصُ ، وإلَّا فأهلُ الكبائرِ الذين دخلوا النَّارَ كُلُّهُمْ يقولون كلمةَ التَّوْحِيدِ ، ولم يترجَّحْ قولهم على سيئاتهم ، كما ترجَّحَ قولُ صاحبِ البطاقةِ » .

(١) « البدائع » (٣/ ٢٢٤) .

(٢) المرجع السابق (٣/ ٣٣٠) .

ثم ذكر حديث البغي^(١) التي سقت كلبًا ، فغفر الله لها ، والرجل الذي أمارط الأذى عن الطريق ، فغفر الله له ، ثم قال : « فهذه سقت كلبًا بإيمان خالص كان في قلبها ، وإلا فليس كلُّ بغيٍّ سقت كلبًا يغفر لها ، فالأعمالُ تتفاضلُ بتفاضلِ ما في القلوب من الإيمان والإجلال »^(٢) .

ومن المسالك الدقيقة للرياء أن يجعل الإخلاص لله وسيلة لا غاية ، وقصدًا لأحد المطالب الدنيوية ، وقد نبه ابن تيمية على تلك الآفة الخفية ، فكان مما قاله :

« حكي أن أبا حامد الغزالي بلغه أن من أخلص لله أربعين يومًا تفجرت الحكمة في قلبه ، قال : فأخلصت أربعين يومًا ، فلم يتفجر شيء ، فذكرت ذلك لبعض العارفين ، فقال لي : إنك إنما أخلصت للحكمة ، ولم تخلص لله تعالى »^(٣) .

وهذه تكمة لطيفة : هي أن الإنسان قد يذم نفسه بين الناس ، يريد بذلك أن يرى الناس أنه متواضع عند نفسه ، فيرتفع بذلك عندهم ، ويمدحوه به ، وهذا من دقائق أبواب الرياء ، وقد نبه عليه السلف الصالح .
قال مطرف بن عبد الله الشخير : « كفى بالنفس إطرًا أن تدمها على الملا ، كأنك تريد بدمها ربتها ، وذلك عند الله سفه »^(٤) .

وإذا كنت طالب حق فكن داعية إليه ، واحذر من كل ما يفسد عليك هذه المهمة الجليلة .

(١) البغي : الزانية ، والجمع بغايا .

(٢) « منهاج السنة النبوية » (٢١٨/٦) .

(٣) « درة تعارض العقل والنقل » (٦٦-٦٧) .

(٤) شرح حديث « ما ذئبان جاعان » (ص ٤٦) .

قال الخطيب البغدادي في ذكر آداب الجدل والمناظرة: « وليكن قصده في نظره إيضاح الحق وتثبيت دُون المغالبة للخصم » (١) .

ومتى أخلص المحاورُ الله ، فإنه لا يُبالي أأظهرَ اللهُ الحقَّ على يديه أم على يد مَنْ يُحاوره ، ويرى مُحاوره مُعيَّنًا لا خصمًا ، فيشكره إذا عرفه الخطأ ، أو أظهرَ له الصواب .

ورحم الله الإمام الشافعي القائل : « ما ناظرتُ أحدًا قطُّ فأحبتُّ أن يُخطئني » (٢) .

وقال أيضا: « ما كلَّمتُ أحدًا قطُّ إلا وأحبتُّ أن يوفقَ ويسدَّ ويعانَ ، وما كلَّمتُ أحدًا قطُّ إلا ولم أبالِ بينَ اللهُ الحقَّ على لساني أو لسانه » (٣) .

قال الحافظ ابن رجب مُعلقًا على كلام الشافعي: « وهذا يدلُّ على أنه لم يكن له قصدٌ إلا في ظُهور الحقِّ ، ولو كان على لسان غيره ممن يُناظره أو يُخالفه ، ومَنْ كانتْ هذه حاله ، فإنه لا يكره أن يُردَّ عليه قوله ، ويتبين له مخالفتُهُ للسنة ، لا في حياته ولا بعد مماته ، وهذا هو الظنُّ بغيره من أئمة الإسلام الذابِّين عنه ، القائمين بنصره من السلفِ والخلفِ ، ولم يكونوا يكرهون مخالفةً من خالفهم - أيضًا - بدليلٍ عرَضَ له ، ولو لم يكن ذلك الدليلُ قويًا عندهم بحيث يتمسكون به ، وتركون دليلهم له » (٤) .

وقال أبو حامد الغزالي: « فانظر إلى مناظري زمانك اليوم ، كيف يسودُّ وجهُ أحدِهِمْ إذا اتَّضحَ الحقُّ على لسان خصمِهِ؟! ، وكيف يخجلُ به؟! ، وكيف يجهدُ في مُجاهدته؟! ، وكيف يذمُّ من أفحمه طولَ عمرِهِ؟! » (٥) .

(١) « الفقيه والمتفقه » (٥/٢) .

(٢) « مناقب الشافعي » للرازي (ص ٣٦٠) .

(٣) « الفقيه والمتفقه » (٢/٢٦) .

(٤) « الفرق بين النصيحة والتعير » (ص ٣١) .

(٥) « الإحياء » (٤٤/١) .

العلم

من الخطأ أن يتصدى للحوار مَنْ لا يُدركُ مسالكَ الحقِّ والباطل ، وليس كلُّ واحدٍ مؤهلاً للدُّخولِ في حوارٍ يُؤتي ثماراً يانعةً ، ونتائجَ طيبةً ، ولكن الذي يجمع لك ذلك كله العلمُ ؛ فلا بُدَّ من التَّأهيلِ العلميِّ للمحاور ، إذ أنَّ الجاهلَ بالشيءِ ليس كُفُوًّا للعالم به ، فمن الخطأ أن يدخلَ المحاورُ ساحةَ الحوارِ قبلَ أن يستكملَ أدواته العلميَّةَ والعقليَّةَ ، وقد ذمَّ اللهُ سبحانه وتعالى الذين يُجادلون بغيرِ علمٍ ، قال اللهُ تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ (٨) ﴿ الحجج : ٨ ﴾ .
والعلم لا يُنال بالتَّمَنِّي والأمل ، ولكن بالجدِّ والعمل .

قال أبو بكر الدينوري (ت ٥٣٢هـ) - رحمه الله :-

تَمَّتْ أَنْ تُسَمَّى فَكَيْهًا مُنَاطِرًا بغيرِ عناء ، والجُنُونُ فُنُونُ
فليس اكتسابُ المالِ دُونَ مَشَقَّةٍ تَلَقَّيْتَهَا ، فالعلمُ كَيْفَ يَكُونُ ؟
وَنَهَى السَّلْفُ الصَّالِحُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، عن مُنَاطِرَةِ المبتدعة ؛ لئلاَّ
يُنَاطِرَهُمْ مَنْ لَيْسَ لَدَيْهِ العِلْمُ الَّذِي يُظْهِرُ بِهِ الحُجَّةَ عَلَيْهِمْ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في التأكيد على ضرورة العلم لمن يتصدى للحوار والمناظرات: « وقد ينهون عن المجادلة والمناظرة ، إذا كان المناظرُ ضعيفَ العلمِ بالحُجَّةِ ، وجوابِ الشُّبهةِ ، فيُخافُ عليه أن يُفسدَهُ ذلك المُضِلُّ ، كما يَنْهَى الضَّعِيفُ فِي المِقَاتِلَةِ أَنْ يُقَاتِلَ عِلْجًا قَويًّا من عُلُوجِ الكُفَّارِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَضُرُّهُ ، ويضرُّ المسلمين بلا منفعةٍ » (١) .

(١) « دَرَّةٌ تَعَارَضُ العِقلَ والنَّقلَ » (٧/١٧٣) .

وقال ايضا : « والعَجَبُ من قومٍ أرادوا نصرَ الشرِّ بعقولهم الناقصة ، وأقِسْتِهِم الفاسدة ، فكان ما فعلوه عمراً ، جرأً المُلْحِدِينَ أعداءَ الدِّينِ عليه ، فلا الإسلامَ نصرُوا ، ولا الأعداءَ كسروا » (١) .

قال الشاعر :

بِنُورِ الْعِلْمِ يُكْشَفُ كُلُّ رَيْبٍ وَيَبْصِرُ وَجْهَ مَطْلَبِهِ الْمُرِيدُ
فَأَهْلُ الْعِلْمِ فِي رَحْبٍ وَقُرْبٍ لَهُمْ مِمَّا اشْتَهَوْا - أبدأ - مزيدُ
إِذَا عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا فَكُلُّهُ لَهُ مِمَّا ابْتَغَاهُ مَا يُرِيدُ
فَإِنْ سَكَنُوا فَفِكْرٌ فِي مَعَادٍ وَإِنْ نَطَقُوا فَقَوْلُهُمْ سَدِيدُ (٢)

والعلم المقصود يقتضي أمرين متلازمين :

اولهما : العلم بشرع الله المطهر كتاباً وسنةً ، ومعرفة ما يجب على المكلف من أمر دينه في عبادته ومعاملاته ، والعلم بالله ما يجب له من القيام بأمره ، وتنزيهه عن النقائص ، ومدار ذلك على التفسير ، والحديث ، والفقه (٣) .

ثانيهما : العلم بمنهج السلف قولاً وعملاً ، وفهماً ، واعتقاداً .

قال الاوزاعي - رحمه الله - لبيبة بن الوليد : « يا بَقِيَّةُ ، العلم ما جاء عن أصحاب رسول الله ﷺ ، وما لم يجئ عن أصحاب رسول الله ﷺ ، فليس بعلم » (٤) .

وقال ابن تيمية : « فالصَّحَابَةُ كانوا أعلمَ النَّاسِ بأصولِ الدِّينِ ؛ فإنَّهم تلقَّوه عن أعلمِ الخلقِ بالله على الإطلاق ، وكانوا إذا استشكلوا شيئاً سألوه عنه ، وكان يُجيبهم بما يُزيلُ الإشكالَ ، وَيُبَيِّنُ الصَّوَابَ ، فهم العارفون بأصولِ الدِّينِ

(١) المرجع السابق (٥٣٧/١) ، و« الفتاوى » (١٦٥/٢٠) .

(٢) « جامع بيان العلم » (٤٩/١) .

(٣) « الفتح » (١٤١/١) .

(٤) « جامع بيان العلم » (٢٩/٢) .

حقاً ، لا أهل البدع والأهواء من المتكلمين ، وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ « (١) .

قال الشاعر:

لَوْ أَنَّ الْعِلْمَ مِثْلَ كَانِ نَوْراً يُضَاهِي الشَّمْسَ ، أَوْ يَحْكِي النَّهَارَ
كَذَلِكَ الْجَهْلُ أَظْلَمَ جَانِبَاهُ وَنُورُ الْعِلْمِ أَشْرَقَ وَاسْتَنَارَ (٢)

على كُلِّ لَأَبْدُ للمحاور أن يكون عالماً بالمسألة التي يُريدُ أن يُحاورَ فيها ،
قادراً على النظر والموازنة والترجيح بين الأدلة المختلفة ، مُلمّاً إماماً عاماً بأصول
الأدلة ، يعرف النَّاسِخَ والمنسوخَ ، والمُطلَقَ والمُقَيَّدَ ، والخاصَّ والعامَّ ،
والصَّحِيحَ والضَّعِيفَ ، ومدار ذلك على أصولِ الفقه ، وعلومِ الحديث ، كما
عليه أن يكون على علمٍ بالواقع ، فالعلم بواقع النَّاسِ لأبْدَ منه لكلِّ مُتَصَدِّرٍ
لحوارِ النَّاسِ ، - لحكم على الشيء فرعٌ عن تصوُّره .

ومنه أن يكون المحاورُ واسعَ الاطلاعِ على أدلةِ الطَّرْفِ الآخِرِ ، والوقوف
على مصادره ، وإن لم يتخصَّصْ فيه ، كما يلزمه الاطلاع على العوامل التي
أدت إلى تلك الشُّبُهَاتِ ، والوقوف على تفاصيلها الدقيقة ، حتَّى يكونَ أشبه
بالطَّيِّبِ الذي يعلم تفاصيل المرضِ أكثرَ من المريضِ ، فيحصلُ بحواره شفاءً
الصدور ، وطُمَأْنِينَةً النفوسِ .

واخيراً قال الشاعر:

عَلَيْكَ بِأَهْلِ الْعِلْمِ فَارْغَبْ إِلَيْهِمْ يُفِيدُوكَ عِلْماً ؛ كَيْ تَكُونَ عَلِيماً
وَيَحْسَبُ كُلُّ النَّاسِ أَنَّكَ مِنْهُمْ إِذَا كُنْتَ فِي أَهْلِ الرَّشَادِ مُقِيماً
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ مُقْتَدٍ وَقَدْ قَالَ هَذَا الْقَاتِلُونَ قَدِيمًا (١)

(١) « الفرقان » (١٠٦) .

(٢) « جامع بيان العلم » (٥٨/١) .

(٣) المرجع السابق (٤٩/١) .

الرجوع إلى النص لدرء النزاع

لابد من تحديد أصول يُرجع إليها عند الاختلاف ، وبذلك ينضبط الحوار ويتحدد مساره ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾ { الشورى : ١٠ } .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ { النساء : ٥٩ } .

قال ابن قيم الجوزية : « ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ نكرة في سياق الشرط ، تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون في مسائل الدين دقه وجله (١) ، جلّيه وحفيّه ، ولو لم يكن في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بيان حكم ما تنازعوا فيه ، ولم يكن كافياً ، لم يأمر بالردّ عليه ؛ إذ من الممتنع أن يأمر الله تعالى بالردّ عند النزاع إلى من ليس عنده فصل النزاع » (٢) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « فإذا تنازع المسلمون في مسألة ، وجب ردّ ما تنازعوا فيه إلى الله والرسول ، فأبى القولين دلّ عليه الكتاب والسنة وجب اتباعه » (٣) .

وقال أيضاً : « وهذا لأنّ الناس لم يفصل بينهم النزاع إلاّ كتاب منزل من السماء ، وإذا ردوا لعقولهم ، فلكل واحد منهم عقل » (٤) .

(١) دقه وجله : يعني صغيره وكبيره .

(٢) « أعلام الموقعين » (٤٩/١) .

(٣) « الفتاوى » (١٢/٢٠) .

(٤) « درء تعارض العقل والنقل » (٢١٩/١) .

رسوله ﷺ ، فقد دعا إلى بدعة وضلالة ، وإلّا في نظره مع نفسه ، ومناظرته لغيره ، إذا اعتصم بالكتاب والسنة ، هداة الله إلى الصراط المستقيم ، فإن الشريعة مثل سفينة نوح ﷺ ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق » (١) .

ويشير ابن تيمية إلى قاعدة نفيسة حينما يقول : « وقلّ أن تعوز النصوص من يكون خبيراً بها ، وبدالاتها على الأحكام » (٢) .

وقال الإمام الشاطبي : « وبيانه أن الخصمين إمّا أن يتفقا على أصل يرجعان إليه أم لا ، فإن لم يتفقا على شيء لم يقع بمناظرتهما فائدة بحال ، وقد مرّ هذا فصار الإتيان به عبثاً لا يفيد فائدة ، ولا يحصل مقصوداً ، ومقصود المناظرة ردّ الخصم إلى الصواب بطريق يعرفه ؛ لأنّ رده بغير ما يعرفه من تكليف ما لا يطاق ، فلا بدّ من رجوعهما إلى دليل يعرفه الخصم معرفة الخصم المستدلّ ، وعلى ذلك دلّ قول الله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ ؛ لأنّ الكتاب والسنة لا خلاف فيهما عند أهل الإسلام ، وهما الدليل والأصل المرجوع إليه في مسائل النزاع » (٣) .

قال ابن عباس رضيهما : « أراهم سيهلكون ، أقول : قال النبي ﷺ ويقولون : قال أبو بكر وعمر ! » (٤) .

قلتُ : وفي زماننا يحتجون بقول شيوخهم ، وأين شيوخهم من أبي بكر وعمر ؟ ! .

(١) المرجع السابق (١ / ٢٣٤) .

(٢) « الحسبة في الإسلام » (ص ٦٥) .

(٣) « الموافقات » (٤ / ٢٣٥) .

(٤) أخرجه أحمد وغيره ، وصحّحه أحمد شاكر .

قال الشاعر مُنكَرًا على المحتجِّينَ بقول شيوخهم :

أقولُ : قالَ اللهُ ، قالَ رَسولُهُ فَتُجِيبُ : شيخِي إِنَّهُ قَدْ قالَ !

فلا بُدَّ من الرِّجوعِ عند التَّزاعِ لنصوصِ الوَحْيِينِ الشَّرِيفِينِ على ضوءِ فهمِ سَلَفِنا

الصَّالِحِ ، وإِتما قَدَمَ فِهمِ السَّلَفِ على الخَلْفِ لِأُمورٍ ، مِنْها :

{ ١ } أنَّ خطابَ الشَّارعِ مُتَوَجِّهٌ إِلَيْهم في الأَصْلِ ، وهم المرادون به قَبْلَ غيرهم .

{ ٢ } أَنَّهُم عاصروا التَّشريعَ وعاشوه ، فعلموا مواقعَ التَّنزيلِ ، وورودِ الأدلَّةِ على الوقائعِ والأحوالِ .

{ ٣ } لأنَّهُم أَهلُ الفَصَاحَةِ والبَيانِ ، والوَحْيِ جاء بلسانهم ، والرَّسولُ ﷺ يوضِّحُ لَهُم ما أَشكَلَ عَلَيْهِم .

{ ٤ } أنَّ النُّصوصَ من الكتابِ والسُّنَّةِ الدَّالَّةَ على فَضْلِهِم ، وَعُلُوِّ قَدْرِهِم ، قد تواترتُ .

{ ٥ } ولأنَّ اللهُ سبَّحانه وتعالى جعل لَهُمُ الإمامَةَ في الدِّينِ لِمَنْ بَعَدَهُمْ ، وأثنى عَلَيْهِم ، وَعَلَى مَنْ تَبِعَهُمْ ، وسلكَ سَبيلَهُم ، وإِنَّمَا نالَ التَّابِعُ الفَضْلَ بفضْلِ المَتَّبِعِ . (١) .

ولعلَّكَ - أخي الحبيب - قد فهمتَ من خلالِ ما سبقَ أنَّ أَغلبَ الطَّوائِفِ مُتَمَسِّكَةٌ بِالكتابِ والسُّنَّةِ ، لكن بَفَهمٍ مِنْ أنشأها وأَسَّسها ، فالجَهْمِيَّةُ مُتَمَسِّكَةٌ بِالكتابِ والسُّنَّةِ بَفَهمٍ جَهْمِ بنِ صَفوان ، والجَعْدِ بنِ دَرهم ، والأشعريَّةُ مُتَمَسِّكَةٌ بِالكتابِ والسُّنَّةِ بَفَهمٍ أئِمَّتِهِمُ المُنْتَسِبِينَ لِأبي الحَسَنِ الأشعريِّ (٢) . . . إلخ ، وقِسْ عَلَى ذلكِ بعضَ الجَماعاتِ ، ونظيرَ هذا كَثِيرٌ ، فَأَلْحِقِ النَّظِيرَ بِنظيرِهِ ،

(١) « العَقِيدَةُ السَّلَفِيَّةُ » (ص ٢٥) .

(٢) لَقَدْ مرَّ أبو الحَسَنِ الأشعريُّ بِثَلَاثَةِ أَطوارٍ :

الأوَّلُ : طَورُ الاعتِزالِ .

والثَّانِي : طَورُ الكَلابِيَّةِ .

والثَّالِثُ : رَجوعُهُ إلى مَذهَبِ السَّلَفِ الأَصِيلِ .

فالأشاعرة يتسبون لظوره الثاني .

وهل تُعرَفُ الأنظمةُ إلاً بكبارها ، ومُنشئها ؟!

وقد تجدُ - أخي الحبيب - مُستشرقاً أو مُلحدًا ، أو كافرًا ، أو صاحبَ هوى ، لا يُقيم وزنًا لأدلتك ، مع أنها قويةٌ واضحةٌ وضوحَ الشمسِ في رابعةِ النهار ، فلا يُحيرُك ذلك ؛ فإنما يُنكرها غيرُ المُنصفِ ، ومَنْ لا يُريدُ الحقَّ .

وللهِ دَرُّ القائلِ :

قَدْ تُنكِرُ العَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَتُنكِرُ الفَمُّ طَعْمَ المَاءِ مِنْ سَقَمٍ
كما قد يُورد عليها الشُّبهات ، وهذا مُمكنٌ لعدَّةِ اعتباراتٍ يُذكرها الفطنُ ،
وعندما يحصل مثلُ هذا فيكون له تأثيرٌ في نفس مُخالفيه ، فعليك ألاً تستسلم
للأثر الخفيِّ لمثل هذا الموقف ، بل تخطو الخطوة الأخرى ، وهي النَّظَرُ في أدلَّةِ
المخالف ، ووزنها علميًّا ، أو مُطالبته بإيراد أدلته على ما ذهب إليه ؛ لأنَّه لا
يكفي لإثبات رأيه أو شبهته فقط ، بل لا بُدَّ أن يُقيمَ عليها الدليل ، ولا يكفيه -
أيضًا - إقامته لحجته أن يُورد الاحتمالات على أولئك ، وليس بهذا وحده يُقيم
الدليل على نقيضها ، فعلى سبيل المثال إذا قال لك المستشرق «شاخت» -مثلاً- :
السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ هذه لا وجودَ لها ؛ لأنَّها من وضع الفقهاء والمحدثين ، ثمَّ أورد
بعض الشُّبهات التي دعت للقول بهذا الرأي ، فلا يَكُنْ موقفك هو إقامة الدليل
على رأيك بأنَّ الأمر عكسُ ما ادَّعاه ، ثمَّ تسرد أدلتك فقط ، بل ينبغي أن
تُطالبه - بعدَ ذلك أو قبله - بالأدلة على رأيه ، أو تنظر في أدلته وتُفنِّدها ، فإذا
احتججتَ على أنَّ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ ليست من وضع الفقهاء والمحدثين بأدلة منها
الأسانيد ، فقال لك : هذه الأسانيدُ لا تُثبتُ ما تقول ؛ لأنها - أيضًا -
موضوعةٌ مكذوبةٌ ، فلا تقفُ عند هذا ، وإنَّما طالبه بالدليل على زعمه ؛ فإنَّه
يعودُ خاسئًا وهو حسير (١) .

(١) «قواعد ومنطلقات في أصولِ الجدل» (ص ٢٠) .

عدم أداء العلم في كل حال

ينبغي لك - أخي المحاور - أن تكون كلمة (لا أدري) أصلاً ترجع إليه ، خاصةً إذا سُئِلْتَ عما لا عِلْمَ لك به ، فقد كان السَّلَفُ الصَّالِحُ رضوان الله عليهم ، يقولون : ينبغي للعالم أن يَعْلَمَ جُلُساءَهُ قولاً : لا أدري ، حتى يكون ذلك في أيديهم أصلاً ، فإذا سُئِلَ أَحَدُهُمْ عما لا يدري ، قال : لا أدري .

ومتى سكتَ المحاور عن قول : لا أدري - إذا كان لا يدري - اتَّهِمَ بالجهلِ ، والتَّسْتَرُّ عليه ، وإذا تكلَّفَ ما لا يُحْسِنُ ، وتكلَّمَ في غيرِ فَنِّهِ ، أتى بالعجائب ، ومن أقدمَ على حوارٍ ليس له أهلاً ، استحقَّ الذَّمَّ ، ولم يُلْتَفَتْ إليه ، وربما افتضحَ ونقله ذلك إلى السُّقُوطِ المُبَكِّرِ ، كما قيل :

مَنْ تَحَلَّى بِالَّذِي لَيْسَ فِيهِ فَضَحَتْهُ شَوَاهِدُ الامْتِحَانِ
وَجَرَى فِي الْعُلُومِ جَرَى سَكَيْتِ خَلَقَتْهُ الْجِيَادُ (١) يَوْمَ الرَّهَانِ (٢)

فاحذر - أخي - من الخنفساريين (٣) الذين يركبون مطايا الخير للشر ، فقد

(١) الجياد : جمع جَوَادٍ ، وهو الفرس .

(٢) الرهان : السباق .

(٣) الخنفساريين : جمع خنفساري ، وهو مثل يَضْرَبُ به لمن يدعي ما ليس فيه ، أو يدعي العلم ، وليس بعالم ... إلخ .

وقصة ذلك : أن رجلاً كان يُفتي النَّاسَ دُونَ تَوْقُفٍ ، فلحظ أقرانه ذلك منه ، فأجمعوا أمرهم لامتحانه بنحت كلمة ليس لها أصلٌ هي (الخنفسار) ، فسأله عنها ، فأجاب على البديهة : بأنه نبتٌ طيبٌ الرائحة ، يُنبتُ بأطراف اليمن ، إذا أكلته الإبلُ عقدَ لبنها ، قال شاعرهم اليماني :

لَقَدْ عَقَدْتُ مَحَبَّتَكُمْ فُوَادِي كَمَا عَقَدَ الْحَلِيبُ الْخَنْفَسَارُ

وقال داود الأنطاكي في مذكرته كذا ، وقال فلان وفلان ، وقال النبي ﷺ ، فاستوقفوه ، وقالوا : كذبت على هؤلاء ، فلا تكذب على النبي ﷺ .

وهن الخنفساريين . خبير النعنع ، ففي ملح التاريخ - كما ذكر السخاوي - : أن جهيناً كان من ندماء المهلب ، وكان يأتي بالطامات ، فجرى مرةً حديثٌ في النعنع ، فقال : في البلد الفلاني ننعن يطول حتى يصير شجراً ، ويعمل من خشبه سلالم ، فنار منه أبو الفرج الأصفهاني ، فقال : =

تتابعت الشكوى منهم على مدى العصور ، فشكى حالهم الحسن البصريُّ بقوله :
« اللَّهُمَّ نشكو إليك هذا الغناء » .

وشكى حالهم الشافعيُّ بقوله : « وقد تكلم في العلم من لو أمسك في
بعض ما تكلم فيه منه ، لكان الإمساك أولى به ، وأقرب من السلامة له إن شاء
الله » .

وشكى حالهم الحافظ ابن القيم بقوله :

هَذَا وَإِنِّي بَعْدُ مُمْتَحَنٌ بِأَرْ
فَطٌّ ، غَلِيظٌ ، جَاهِلٌ ، مُتَمَعِّلٌ
مُتَفَيِّهٌ ، مُتَضَلِّعٌ بِالْجَهْلِ ، ذُو
مُزْجَى الْبِضَاعَةِ (٢) فِي الْعُلُومِ وَإِنَّهُ
يَشْكُو إِلَى اللَّهِ الْحُقُوقَ تَطَلُّمًا
مِنْ جَاهِلٍ مُتَطَبِّبٍ يُفْتِي الْوَرَى (٣)

بَعَاةٌ ، وَكُلُّهُمْ ذُو أَوْضَغَانٍ
ضَخَمَ الْعِمَامَةَ ، وَاسِعُ الْأُرْدَانِ (١)
ضَلَعٍ وَذُو جَلْحٍ مِنَ الْعِرْفَانِ
زَاجٍ مِنَ الْإِيهَامِ وَالْهَذْيَانِ
مِنْ جَهْلَةٍ كَشَايَةِ الْأُبْدَانِ
وَيَحِيلُ ذَاكَ عَلَيَّ قَضَا الرَّحْمَنِ (٤)

وشكى حالهم الحافظ الذهبيُّ من وجه آخر . فقال : « فوالله ، لأن يعيشرَ

== نَعَمْ ، عَجَائِبُ الدُّنْيَا كَثِيرَةٌ ، وَلَا يُنْكَرُ هَذَا وَالْقُدْرَةُ صَالِحَةٌ ، وَأَنَا عِنْدِي مَا هُوَ أَغْرَبُ مِنْ هَذَا : أَنَّ
رُوحَ الْحَمَامِ بَيضٌ بِيضَتَيْنِ ، فَأَخَذَهُمَا وَأَضَعَهُمَا تَحْتَهُمَا سُنْجَةً مِثْلَةَ وَسُنْجَةِ خَمْسِينَ (السَّنْجَةُ كَفَّةٌ
مِيزَانٌ) ، فَإِذَا فَرِغَ زَمَنُ الْحِضَانَةِ وَانْقَسَمَتِ السَّنْجَتَانِ عَنِ طَسْتِ وَإِبْرِيقِ ، فَضَحِكَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ ،
وَقَطَّنَ الْجَهَنِيُّ لِمَا قَصَدَ بِهِ أَبُو الْفَرَجِ مِنْ (الطَّنَزِ) ، وَانْقَبَضَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حِكَايَتِهِ .
وَمِنْ الْخَفَشَارِيِّينَ مَنْ يَكُونُ ظَرْفِيًّا بَاحِثًا سَرِيعَ الْجَوَابِ : كَصَاعِدِ بْنِ حَسَنِ الْبَغْدَادِيِّ ، فَإِنَّهُ لَمَّا سَأَلَهُ
رَجُلٌ أَعْمَى عَلَى سَبِيلِ التَّهَكُّمِ : مَا الْحَرْنَقْلُ ؟ ، أَطَرَّقَ سَاعَةً ، وَعَرَفَ أَنَّهُ افْتَعَلَ هَذَا مِنْ عِنْدِ
نَفْسِهِ ، ثُمَّ رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ ، وَقَالَ : هُوَ الَّذِي يَأْتِي نِسَاءَ الْعَمِيَانِ ، فَاسْتَحْيَا ذَلِكَ الْأَعْمَى ، وَضَحِكَ
الْحَاضِرُونَ .

(١) الْأُرْدَانُ : جَمْعُ رُدْنٍ ، وَهُوَ مَقْدَمُ كَمِّ الْقَمِيصِ .

(٢) مُزْجَى الْبِضَاعَةِ : قَلِيلُهَا .

(٣) الْوَرَى : الْخَلْقُ وَالنَّاسُ .

(٤) التَّوْبِيغَةُ (بِسْمِ اللَّهِ) .

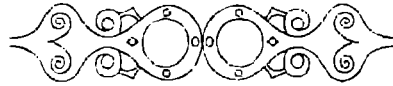
المُسلِمُ أَخْرَسَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَعِيشَ » .

وهذه الأقوال متشعبة ، أضعافها في مثاني كلام أهل العلم على تعاقب القرون ، فإن الترخيص في ذلك عقبة تؤدي إلى جرم القول على الله بلا علم ، ولنقل هنا : إنَّ أَصْلَ الشُّرْكِ والكفران وأساس البدع والعصيان ، وما هو أغلظُ منها ، ومن جميع الفواحش والآثام ، والبغي والعدوان القول على الله بغير علم ، والدليل قولُ الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَإِثْمَ وَالْبَغْيَ بغيرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٤) ﴿ الأعراف : ٣٣ ﴾ (١) .

قال ابن قيم الجوزية في تفسير هذه الآية :

« وقد حرّم الله سبحانه وتعالى القولَ عليه بغير علم في الفُتيا والقضاء ، وجعله من أعظم المحرّمات ، بل جعله في المرتبة العُلّيا منها » .

ثم ذكر الآية ، ثم قال : « فرتّب المحرّمات أربع مراتب ، وبدأ بأسهلها وهي الفواحش ، ثم ثنى بما هو أشدُّ تحريمًا منها وهو الإثم والظلم ، ثم ثلث بما هو أعظم تحريمًا منها وهو الشركُ به سبحانه ، ثم ربّع بما هو أشدُّ تحريمًا من ذلك كلّهُ وهو القولُ على الله بلا علم » (٢) .



(١) ممّا اطّلعْتُ عليه ، واستفدتُ منه في هذا الباب كتابُ التّعالم ، لمؤلّفه العلامة بكر أبو ريد - حفظه

الله - بتصرف يسير .

(٢) « اعلام الموقعين » (١/٢٨) .

حَسَنَ الْفَهْمِ

لكي يسيرُ الحوارُ إلى الطَّرِيقَةِ الصَّحِيحَةِ ، لأبَدٍ من حُسْنِ الْفَهْمِ لِحُجَجِ
الطَّرْفِ الْآخِرِ ، وأدَّتِهِ ، وأقواله ، والظُّرُوفِ الْمُؤَثِّرَةِ عَلَى أفعاله وتصرُّفَاتِهِ ،
فكثيراً من الأحيانِ ما يتحاور الطَّرْفَانِ ، ويطول الحوارُ ، وتتشعب المسائلُ ،
ويستمرُّ الخلافُ ، ولا يصلان إلى نتيجةٍ ، والسَّبَبُ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لم يفهم
مرادَ الْآخِرِ ، ومستندهُ مِنَ الْأَدَلَّةِ والبراهينِ .

وللهِ ذَرُّ أَبِي الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيِّ الْقَائِلِ :

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَأَقْتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ
وَلَكِنْ تَأْخُذُ الْأَذْهَانَ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ الْقَرَائِحِ وَالْفُهْمِ

وقديماً أوصى يحيى بن خالد بن جعفر - رحمه الله - ابنته . فقال له : « لا تردَّ على
أحدٍ جواباً حتى تفهم كلامه ؛ فإنَّ ذلك يصرفك عن جواب كلامه إلى غيره ،
ويؤكِّدُ الجهلَ عليك ، ولكن افهم عنه ، فإذا فهمته فاجبه ، ولا تعجلَ بالجوابِ
قَبْلَ الاستفهامِ ، ولا تستح أن تستفهم إذا لم تفهم ؛ فإنَّ الجوابَ قَبْلَ الْفَهْمِ
حُمُقٌ ، وإذا جهلنا فاسأل فيبدو لك ، واستفهامك أجملُ بك وخيرٌ من
السُّكُوتِ عَلَى الْعَيِّ » (١) .

وقال ابن القيم - رحمه الله - : « ولما كان المقصودُ بالخطابِ دلالةَ السَّمْعِ ،
وإفهامه مرادَ المتكلمِ من كلامه ، وأنَّ يُبينَ له ما في نفسه من المعاني ، وأنَّ يدلُّه
على ذلك بأقربِ الطَّرِيقِ ، كان موقوفاً على أمرين : بيان المتكلمِ وتمكُّن السَّمْعِ
من الْفَهْمِ ، فإنَّ لم يحصل البيانُ من المتكلمِ ، أو حصل ولم يتمكَّن السَّمْعُ من

(١) « جامع بيان العلوم » (١٤٨/١) .

الفهم ، لم يحصل مُرادُ المتكلم ، فإذا بَيَّنَّ المتكلمُ مرادهُ بالألفاظِ الدالةُ على مرادهُ ، ولم يعلم السامعُ معاني تلك الألفاظِ ، لم يحصل البيانُ ، فلا بُدَّ من تمكُّنِ السامعِ من الفهمِ ، وحصول الإفهام من المتكلمِ « (١) » .

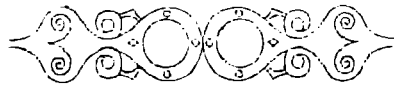
قال صفي الدين الحلي :

اسمع مخاطبةَ الجليسِ ، ولا تكنُ عَجلاً بنُطْقِكَ قَبْلَمَا تَتَفَهَّمُ
لَمْ تُعْطَ مَعَ أُذُنِكَ نُطْقًا وَاحِدًا إِلَّا لَتَسْمَعَ ضِعْفَ مَا تَتَكَلَّمُ (٢)

والحوار بدون فهمٍ يجعلُ المرءَ يحمِلُ المسائلَ ما لا تحتملُ ، كما قال الإمام السبكي - رحمه الله - : « فكثيراً ما رأيتُ مَنْ يسمعُ لفظةً ، فيفهمها على غيرِ وجهها ، فيغيرُ على الكتابِ والمؤلفِ ، ومنَ عاشره ، واستنَّ بسنته ، مع أنَّ المؤلفَ لم يردْ ذلك الوجهَ الذي وصلَ إليه ذلك الرجلُ » .

ومن المتصانفِ في هذا الباب : أنَّ الخليلَ بنَ أحمدَ الفراهيديَّ كان يُقَطِّعُ عِلْمَ العروضِ ، فدخلَ عليه وكدُّه في تلك الحالة التي لم يسبقَ له بها مثيلٌ ، فخرجَ إلى النَّاسِ ، وقال : إنَّ أبي جُنَّ (أي أصابه الجنون) ، فدخلَ النَّاسُ عليه ، وأخبروه بما قال ابنُه ، فقال له :

لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا أَقُولُ عَذَّرْتَنِي
وَعَلِمْتُ أَنَّكَ جَاهِلٌ فَعَذَّرْتَنِي (٣)



(١) « مختصر الصواعق المرسلة » (٢٩/١) ، وانظر كتاب « الروح » (ص ٧٨) .

(٢) « جواهر الادب » (ص ٤٦٩) .

(٣) العَدْلُ : الملامةُ .

(٤) المفرد العلم (ص ٨٩) .

تحديد الهدف

قد يختلف المتحاورين في مسائل عديدة وليس في مسألة واحدة ، ثمَّ يَحْدُثُ الحوارُ بين الطرفين في مسائل الخلاف مجتمعةً ، فينقل الحوار من مسألة إلى أخرى بدون أن يتَّفَقَا على المسألة الأولى ، فيتشعَّبُ الحوار ، ويطولُ في أمورٍ بعيدةٍ عن الهدفِ ، فيكون الحوار عائمًا ، لا زمام له ولا خطام ، سائبًا لا ينتهي إلى نتيجة .

إذا تحدد الهدف من أهمِّ أصول الحوار ؛ لأنَّه لا يصحُّ أن يكون الحوار في مسألتين مختلفتين ، كُلُّ منهما يقصدُ بحواره إحداهما في آن واحد ، وما لم يُحدِّد الهدفُ فإنَّ الطرفَ الآخرَ سوف يُحاول إحراقَ الفروع بعرض الأصول ، فإذا تحدَّثَ المحاور عن الغزو الفضائيِّ ، تأوَّه وبدأ في عرض آلام الأمة ؛ لئيتعدَّ عن مواجهة الموضوع الأساسيِّ للحوار ، كما قيل :

شكَّونا إليهم خرابَ العراق فعابوا علينا لحومَ البقرِ
فصرنا كما قيل فيما مضى : أريها السُّهى ^(١) وتُريني القمرِ

قال الربيع بن مهران - رحمه الله - : « كان الشافعيُّ إذا ناظره إنسانٌ في مسألة ، فغدا إلى غيرها ، يقول : نفرغ من هذه المسألة ، ثمَّ نصير إلى ما تُريدُ » ^(٢) .

وقال الخطيب البغدادي - رحمه الله - في « ذكر آداب الحوار والمناظرة » : « ويكون كلامه يسيرًا جامعًا بليغًا : فإنَّ التَّحَقُّظَ من الزَّلَلِ مع الإقلال دون الإكثار ، وفي الإكثار ما يخفي الفائدة : ودُسِّعُ المقصود ، ويورث الحاضرين المللَ » ^(٣) .

السُّهى : نَجَمٌ خَفِيٌّ ، يمتحنُ النَّاسُ به أَبصارهم .

« تذكرة السامع والمتكلم » (ص ١٠٠) .

(٣) « الفقيه والمنفق » (ص ١٧٨) .

وقال إمام الحرمين الجويني - رحمه الله : « عليك بمراعاة كلام الخصم ، وتفهّم معانيه على غاية الحدّ والاستقصاء ؛ فإنّ فيه أماناً من اضطراب ترتيب فصول الكلام عليك ، فيسهلُ عليك عند ذلك وضعُ كلِّ شيءٍ موضعه ، وفيه - أيضاً - أمانٌ من تلبسِ الخصم ، والذهاب عن تزويره ، ولا تمكنهُ من جمع القصور عليك في الأسئلة والأجوبة ؛ فإنّه يُؤدّي إلى انتشار الكلام ، واختلاطِ مواضع النكته ، والتباسِ موضعِ الحقِّ بغيره ، وإن طوّلَ عليك كلامهُ بعباراته الطويلة ، فلخصّ من جميعها موضعَ الحاجةِ إليه ، فتحضره عليه ، ثمّ تكلمْ فيه بما يليق به ؛ لأنك إذا فعلتَ ذلك ، زال ما أوهم به الحاضرين من إيراد العلوم الكثيرة ، وإذا لم تحصر عليه موضعَ الفائدة ، فوهّ عليهم بتقصيرك ، ولأنك إذا أحصرتَ عليه في كلامه ألفاظه ومعانيه ، وأخذتَ إقراره في كلِّ ذلك ، فقلتَ : ألسنتَ قلتَ كذا ، ومعناه كذا ، لم يُمكنهُ الهربُ ممّا يلزمه عليه من كلامه ، ولا الرجوع ، وإذا لم تفعلْ ذلك ، ربّما ناكرك عند الإلزام ، فتسدّ مواضع الخلل حين تنبّه له عند الإلزام » (١) .

والمراد بالمراد في هذا المقام : مناظرة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مع الخوارج المذكورة آنفاً ، في هذه المناظرة الشهيرة سأل ابنُ عباسٍ الخوارجَ عن مأخذهم على الإمام عليٍّ رضي الله عنه وأصحابه ، فحدّدَ بذلك مسائلَ الاختلافِ بدقّة ، ثمّ بدأ باستعراض هذه المسائل الواحدة تلو الأخرى ، لا ينتقلُ من واحدةٍ إلاّ بعد أن ينتهيَ الحوارُ منها ، ويقولُ لهم بعدَ كلِّ مسألةٍ بينَ وجهِ الحقِّ فيها : أخرجتُ من هذه ؟ ، فإذا قالوا : اللهمّ نعم ، انتقلَ إلى المسألةِ التي تليها ، حتّى مرَّ على جميع المسائل التي أشكلتْ عليهم .

(١) « الكافية في الجدال » (ج ١ ص ٣٥٠) .

الأمانة والتوثيق

لاشكَّ - أخي الحبيب - أنَّ الأقوالَ المُجرَّدةَ من الشَّواهدِ والأدلةِ والبراهينِ أقلُّ تأثيراً في النفوسِ من سوقِها مدعَمةً بالشَّواهدِ المعتمدةِ الصَّحيحةِ والثَّابتةِ ، سواء من الكتابِ والسُّنةِ ، وأقوالِ عُلَماءِ الأُمَّةِ ، إذا كانت مِمَّا له صِلَةٌ بها ، أم من أقوالِ أهلِ الاختصاصِ : كالنَّقلِ عن علماءِ الطَّبِّ في مسائلِ الطَّبِّ ، وما إلى ذلك مع الحَذَرِ من الاستشهادِ بآراءِ وأقوالِ مَنْ لا يُطمئنُّ إلى علمه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « والمجادلة المحمودة إنما تكون بإبداء المدارك ، وإظهار الحُجَجِ التي هي مُستندُ الأقوالِ والأعمالِ ، وأما إظهار الاعتمادِ عمَّا ليس هو المعتمَدُ في القولِ والعملِ ، فنوعٌ من التَّفَاقِ في العلمِ ، والجدَلِ ، والكلامِ والعملِ » (١) .

وكما أنَّه يُطلَبُ منك الأمانة في العرضِ والتَّوثيقِ ، فإنَّ الرِّغْبَةَ في تفنيدِ أوهامِ المخالفِ أو أخطائه تدعوك إلى الاطِّلاعِ أولاً على مصادره ، والتَّعرُّفِ على أدلتهِ ؛ فإنَّ تقصيرك في هذا يبدو وكأنَّه قُصُورٌ في أدلتك على ما تدعو إليه من حقٍّ ، فعليك أن تُدركَ هذه الحقيقةَ ، وأن تُعلِّمَ أنَّه عندما يكونُ المخالفُ أَعْلَمَ منك بتخصُّصِهِ الذي يلزمُكَ الاطِّلاعِ عليه ؛ كي تُردَّ قولُهُ من خلاله ، فإنَّه سينكشفُ له ضَعْفُ اَطِّلاعِكَ على تخصُّصِهِ ، ولعلَّهُ بعدَ ذلك أن ينخدعَ بهذا ، فيقبلُ ضَعْفَكَ هذا على ضَعْفِ منك يتخيَّلهُ في إدراكك صوابَ ما تدعو إليه ، فتكون أنتِ فتنةً له (٢) .

(١) « اتضاء الصراط المستقيم » .

(٢) « في أصول الحوار » (ص ٥٦) .

الابتعاد عن الرخص المبتذلة

أخي الحبيب ، اعلم - علمني الله وإياك - أن الرجوع إلى غثاثة الرخص المبتذلة ، والأقوال الشاذة ، والآراء الفجة ، منابذة لاعتقاد أهل السنة .

قال الإمام الطحاوي: « ونجتنب الشذوذ ، والخلاف والفرقة » (١) .

والمحاور الناجح بناء حوار على الجد والصدق .

قال ابن القيم: « أهل العزائم بناء أمرهم على الجد والصدق ، فalsكون فهم

إلى الرخص رجوع وبطالة » (٢) .

وقال أيضاً: « ثم ذلك الخلاف قد يكون قولاً ضعيفاً ، فيستولد ذلك القول

الضعيف الذي هو من خطأ بعض المجتهدين ، وهذا الظن الفاسد الذي هو خطأ

بعض الجاهلين بتبديل الدين ، وطاعة الشيطان ، ومعصية رب العالمين ، فإذا

انضافت الأقوال الباطلة إلى الظنون الكاذبة ، وأعانتها الأهواء الغالبة ، فلا تسأل

عن تبديل الدين بعد ذلك ، والخروج عن جملة الشرائع بالكليّة » (٣) .

وقال الإمام الذهبي: « وقال شيخنا: إن الإمام بمن التزم بتقليده كالنبي مع

أمته ، لا تحل مخالفته .

قلت: قوله: لا تحل مخالفته مجرد دعوى واجتهاد بلا معرفة ، بل له

مخالفة إمامه إلى إمام آخر حجته في تلك المسألة أقوى ، لا بل عليه اتباع الدليل

فيما تبرهن له ، لا كمن تمذهب لإمام ، فإذا لاح له ما يوافق هواه ، عمل به

من أي مذهب كان ، ومن يتبع رخص المذاهب ، وزلات المجتهدين ، فقد رقى

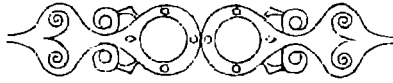
(١) شرح الطحاوي (٤٤/٢) .

(٢) مدارج السالكين .

(٣) إغاثة اللهفان (١٤٦/٢) .

دينه ، كما قال الأوزاعيُّ أو غيره : مَنْ أَخَذَ بِقَوْلِ الْمُكَيَّنِ فِي الْمُتَعَةِ ، وَالْكُوفِيِّينَ فِي النَّيِّدِ ، وَالْمَدَيِّينَ فِي الْغِنَاءِ ، وَالشَّامِيِّينَ فِي عَصْمَةِ الْخُلَفَاءِ ، فَقَدْ وَقَعَ فِي الشَّرِّ ، وَكَذَا مَنْ أَخَذَ فِي الْيُوعِ الرَّبُّوبِيَّةِ لِمَنْ يَتَحِيلُ عَلَيْهَا ، وَفِي الطَّلَاقِ ، وَنِكَاحِ التَّحْلِيلِ لِمَنْ تَوَسَّعَ فِيهِ ، وَشَبَّهَ ذَلِكَ ، فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلانْحِلَالِ ، فَسَأَلَ اللَّهُ الْعَاقِبَةَ وَالتَّوْفِيقَ « (١) .

وقال أيضاً في دخولات إسماعيل القاضي على المعتضد العباسي : « ودخلتُ مرَّةً ، فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا ، فَنَظَرْتُ فِيهِ ، فَإِذَا قَدْ جَمَعَ لَهُ الرُّخْصَ مِنْ زَلَّلِ الْعُلَمَاءِ ، فَقُلْتُ : مُصَنَّفٌ هَذَا زَنْدِيقٌ ، فَقَالَ : أَلَمْ تَصِحَّ هَذِهِ الْأَحَادِيثُ ؟ ! ، قُلْتُ : بَلَى ، وَلَكِنْ مَنْ أَبَاحَ الْمُسْكَرَ لَمْ يُبِحِ الْمُتَعَةَ ، وَمَنْ أَبَاحَ الْمُتَعَةَ لَمْ يُبِحِ الْغِنَاءَ ، وَمَا مِنْ عَالِمٍ إِلَّا وَكَهُ زَلَّةٌ ، وَمَنْ أَخَذَ بِكُلِّ زَلَّلٍ الْعُلَمَاءِ ذَهَبَ دِينُهُ ، فَأَمَرَ بِالْكِتَابِ فَأُحْرِقَ » (٢) .



(١) « السِّير » (٨١ / ٨) .
(٢) المرجع السابق (١٣) ، (٤٦٥) .

عَدَمُ الدُّخُولِ فِي النِّيَّةِ

يَجْمَلُ بِكَ - أَخِي الْحَبِيبِ - أَنْ تُحْسِنَ الظَّنَّ بِنِ تَحَاوِرِهِ ، وَأَنْ تَحْمَلَ كَلَامَهُ عَلَى أَحْسَنِ الْمَحَامِلِ مَا اسْتَطَعْتَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلاً ، وَإِذَا رَأَيْتَ أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ أَخْطَأَ ، وَتَرَجَّحَ لَكَ ذَلِكَ بِالذَّلِيلِ ، فَقُلْ لَهُ : أَخْطَأْتَ ، ثُمَّ اذْكُرْ مُسْتَدَكَ الشَّرْعِيَّ ، وَمَتَى لَمْ يَتَبَيَّنْ لَكَ الْخَطَأُ ، لَمْ يَحِلَّ لَكَ الْإِنْكَارَ عَلَى قَائِلِهِ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ خَطْوُهُ ، فَإِذَا تَحَقَّقْتَ مِنْ ذَلِكَ الْخَطَأَ بَيِّنَةً ، وَلَا تَتَعَدَّ فِي ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ ، فَمَنْ قَوَّعَ الْإِسْلَامَ الْبَيِّنَةَ أَنَّ الْقُلُوبَ عَلِمَهَا عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، فَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْأَخْذُ بِالظَّاهِرِ .

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ : « بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صلی الله علیه وسلم فِي سَرِيَّةٍ (١) ، فَصَبَّحْنَا الْحُرَقَاتَ (٢) مِنْ جُهَيْنَةَ ، فَأَذْرَكْتُ رَجُلًا ، فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَطَعَنَتْهُ ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مِنْ ذَلِكَ ، فَذَكَرْتُهُ لِلنَّبِيِّ صلی الله علیه وسلم فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلی الله علیه وسلم : « أَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَتَلْتَهُ ۚ ۱۹ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّمَا قَالَهَا خَوْفًا مِنَ السَّلَاحِ ، قَالَ : « أَفَلَا شَقَقْتَ عِرْقَ قَلْبِكَ : حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لَا ؟ ! » ، فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا ، حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي أَسْلَمْتُ يَوْمَئِذٍ » (٣) .

وَفِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه فِي ذِكْرِ أَوْصَافِ الْخَوَارِجِ ، فَقَالَ خَالِدٌ : « وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ » ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلی الله علیه وسلم : « إِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ أَنْ أَنْقُبَ قُلُوبَ النَّاسِ ، وَلَا أَسْمِعُ سِرَّهُمْ » (٤) .

(١) السَّرِيَّةُ : الْقِطْعَةُ مِنَ الْجَيْشِ ، سُمِّيَتْ سَرِيَّةً ؛ لِأَنَّهَا تَسْرِي فِي خَفِيَّةٍ ، وَجَمْعُ سَرِيَّةٍ : سَرَايَا .

(٢) الْحُرَقَاتُ : جَمْعُ حُرْقَةٍ ، وَهِيَ بَطْنٌ مِنْ جُهَيْنَةَ الْقَبِيلَةِ الْمَعْرُوفَةِ .

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٢٦٩) وَ (٦٨٧٢) ، وَمُسْلِمٌ (٩٦) .

(٤) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٣٥١) ، وَمُسْلِمٌ (١٠٦٤) .

ولا شك - أخي الحبيب - أن السلف الصالح رضوان الله عليهم قنوا بين البدعة والهوى ، وسموا المخالفين بأهل البدع والأهواء ، ولكن ذلك كان على الغالب (أي على من ظهرت عليه علامات الهوى ظهوراً مستحكما لا خفاء فيه) ومن الأمور المقررة عندهم أنه ليس كل مخالف صاحب هوى ، وليس كل مخطئ قصد ذلك ، فلعله كان متأولاً أو مجتهداً ، وأن الغلط الذي صدر منه له فيه تأويل سانع ، وله اجتهاد هو فيه معذور ، والقادح فيه غير معذور .

صَحَّ عَنْ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا حَكَّمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ، ثُمَّ أَصَابَ ، فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا حَكَّمَ فَاجْتَهَدَ ، ثُمَّ أَخْطَأَ ، فَلَهُ أَجْرٌ » (١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « وكثير من مجتهدي السلف قد قالوا وفعلوا ما هو بدعة ، ولم يعلموا أنه بدعة ؛ إما لأحاديث ضعيفة ظنوها صحيحة ، وإما لآيات فهموا منها ما لم يرد منها ، وإما لرأي رآه ، وفي المسألة نصوص لم تبلغهم ، وإذا اتقى الرجل ربه ما استطاع ، دخل في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ، وفي الصحيح قال : « قد فعلت » (٢) » (٣) .

ومن اللطائف في هذا الباب ما ذكره العلامة السعدي - رحمه الله - في الفتاوى (٤٧ - ٤٨) قوله : « يُعْجِبُنِي مَا وَقَعَ لِبَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَهُوَ أَنَّهُ كَتَبَ لَهُ إِنْسَانٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالِدَيْنِ يَنْتَقِدُهُ انْتِقَادًا حَارًّا فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ ، وَيَزْعُمُ أَنَّهُ مُخْطِئٌ فِيهَا ، حَتَّى أَنَّهُ قَدَحَ فِي قَصْده وَنَيْتِهِ ، وَادَّعَى أَنَّهُ يَدِينُ اللَّهَ بِبِغْضِهِ بِنَاءً عَلَى مَا تَوَهَّمْ

(١) أخرجه البخاري (٧٣٥٢) ، ومسلم (١٧١٦) .

(٢) أخرجه مسلم (١١٦/١) .

(٣) « الفتاوى » (١٩٢/١٩) .

من خطئه ، ، فأجاب المكتوبُ له : يا أخي ، إنك إذا تركت ما يجبُ من المودةِ
الدينيةِ ، وسلكت ما يحرمُ عليك من اتهام أخيك بالقصدِ السيئ - على فرض
أنه أخطأ - وتجنبت الدعوةَ إلى الله بالحكمة في هذه الأمور ، فإني أخبرك قبل
الشروع في جوابي لك عما انتقدتني عليه ، بأنني لا أتُركُ ما يجبُ عليَّ من
الإقامة على مودتك ، والاستمرار على محبتك المبنية على ما أعرفه من دينك
انتصاراً لنفسي ، بل أزيدك بإقامة العذر لك في قدحك في أخيك بأن الدافع لك
على ذلك قصدٌ حسنٌ ، لكن لم يصحبه علمٌ يصححُه ، ولا معرفةٌ تبينُ مرتبتهُ
ولا ورعٌ صحيحٌ يوقفُ العبدَ عند حدِّه الذي أوجبه الشارعُ عليه ، فلحسن
قصدك عفوتُ لك عما كان منك لي من الاتهامِ بالقصدِ السيئ ، فهَبْ (١) أن
الصوابَ معك يقيناً ، فهل خطأ الإنسان عنوانٌ على سوءِ قصده ؟! ، فلو كان
الأمرُ كذلك لوجبَ رميُ جميعِ علماءِ الأمةِ بالقصودِ السيئةِ ! ، فهل سلمَ أحدٌ
من الخطأ ؟! ، وهل هذا الذي تجرأت عليه إلا مخالفاً لما أجمعَ عليه المسلمون
من أنه لا يحلُّ رميُ المسلمِ بالقصدِ السيئِ إذا أخطأ ؟! ، والله تعالى قد عفا عن
خطي المؤمنين في الأقوالِ والأفعالِ ، وجميعِ الأحوالِ ، ثم نقولُ : هَبْ أنه جاز
للإنسانِ القَدْحُ في إدارةٍ من دلت عليه القرائنُ والعلاماتُ على قصدهِ السيئِ ،
أفحلُّ القَدْحُ فيما عندك من الأدلةِ الكثيرةِ على حسنِ قصدهِ وبعدهِ عن إرادةِ
السوءِ ما لا يسوغُ لك أن تتوهمَ فيه شيئاً مما رميتهُ به ؟!

وإنَّ اللهَ أمرَ المؤمنين أن يظنوا بإخوانهم خيراً ، إذا قيلَ فيهم خلافُ ما
يقتضيه الإيمانُ ، فقال تعالى : ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ
بأنفسهم خيراً ﴾ [النور : ١٢] .

(١) هَبْ : ظنَّ وافترض ، وهو فعلٌ جامدٌ ملازمٌ لصورةِ الامريةِ .

..

.

الباب الثاني آداب الحوار :

- فنُّ الأسئلة .
- تحديد الشخصية .
- تقويم اللسان .
- البيان .
- الأمثلة .
- لكلِّ مقام مقال .
- الكلمة الطيبة .
- حاوره باسمه .
- لا تستخدم لفظة « أنا » .
- حسن الاستماع .
- الحوار الصامت .
- محاوره الصغار .
- لا تحاور هؤلاء .
- المعارضة .
- فضول الحوار .

فَرْقُ الْحَوَالِ

الأسئلة هي وسيلتنا للتعارف على الطرف الآخر ، ومترتبته وعلمه ، ومستواه العلمي والجدلي ؛ حتى نعرف حاله فنستعد له ، وقد كان النبي ﷺ يسأل عن أصل شخص غريب ، أو وفد^(١) غريب عند التقائه بهم ؛ كي يتمكن من التعارف على من قدم عليه ، أو التقى هو ﷺ بهم ، فينزلهم منازلهم ، ويتحاور معهم مراعيًا أحوالهم ، ومن ذلك - على سبيل المثال - :

(أ) سؤاله ﷺ رجلاً من همدان^(٢) عن أصله :

عن جابر بن عبد الله قال : كان النبي ﷺ يعرض نفسه على الناس بالموقف^(٣) فيقول : « هل من رجل يحملي إلى قومه ؛ فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي عز وجل ؟ » ، فأتاه رجل من همدان ، فقال : « بمن أنت ؟ » ، فقال الرجل : « من همدان » ، فقال : « هل عند قومك من منعة ؟ » قال : « نعم » ثم إن الرجل خشي أن يحقره قومه ، فأتى رسول الله ﷺ ، فقال : أتيتهم فأخبرهم ، ثم أتيتك من عام قافل . قال : « نعم » ، فانطلق وجاء وفد الأنصار في رجب^(٤) .

(ب) سؤاله ﷺ نقرأ من الخزرج عند عقبة المني عن أصلهم :

لقي النبي ﷺ نقرأ من الخزرج عند عقبة المني في موسم الحج ، فسألهم عن أصلهم - أيضاً - قبل دعوتهم إلى الله عز وجل .

(١) الوفد : الجماعة .

(٢) همدان - بفتح الهاء ، وسكون الميم - : قبيلة باليمن ، « بلوغ الأمان » (٢٠٠ / ٢٦٧) .

(٣) الموقف : أي موقف الناس بمرفات في موسم الحج . المرجع السابق (٢٠٠ / ٢٦٧) .

(٤) أخرجه أحمد (١٣٤ - ٢٠) ، والحاكم (٦١٢ - ٦١٣) ، وقال عنه : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي . انظر « التلخيص » (٦١٣ / ٢) .

رَوَى الإمامُ ابنُ إسحاقَ أَنَّهُ لَمَّا لَقِيَهُمْ (نَفَرًا مِنَ الْخَزْرَجِ) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُمْ : « مَنْ أَنْتُمْ ؟ » ، قَالُوا : نَفَرٌ مِنَ الْخَزْرَجِ ، قَالَ : « أَمِنْ مَوَالِي يَهُودٍ ؟ » قَالُوا : نَعَمْ . قَالَ : « أَفَلَا تَجْلِسُونَ أَكَلَمِكُمْ ؟ » قَالُوا : « بَلَى » فَجَلَسُوا مَعَهُ ، فَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ ، وَتَلَا عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ (١) .

(ج) سؤَالُهُ ﷺ وَقَدْ عَبْدِ الْقَيْسِ عَنْ أَصْلِهِمْ :

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَدِمَ وَقَدْ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَيْهِ ﷺ ، فَسَأَلَهُمْ بِقَوْلِهِ : « مَنْ الْقَوْمُ ؟ » أَوْ « مَنْ الْوَفْدُ ؟ » ، قَالُوا : « رِبِيعَةٌ » ، قَالَ : « مَرَحَبًا بِالْقَوْمِ - أَوْ بِالْوَفْدِ - غَيْرَ خَزَايَا (٢) ، وَلَا نَدَامَى (٣) » الْحَدِيثُ (٤) .

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ : قَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ : فِي قَوْلِهِ : « مَنْ الْقَوْمُ ؟ » دَلِيلٌ عَلَى اسْتِحْبَابِ سؤَالِ الْقَاصِدِ عَنْ نَفْسِهِ ؛ لِيُعْرَفَ فَيُنزَلَ مَنْزِلَتَهُ (٥) .

وَالْأَسْئَلَةُ فَنٌ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ الْمُحَاوِرُ مَاهِرًا فِي صِيَاغَةِ السُّؤَالِ ، وَالتَّعْلِيقِ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ أَوْ بِأُخْرَى ؛ لِأَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُسْأَلَ ، وَيَسْتَوْضَحَ قَبْلَ أَنْ يُصَدَّرَ حُكْمًا أَوْ يَرْفُضَ رَأْيًا ، فَالْعِلْمُ سؤَالٌ وَجَوَابٌ ، وَمَنْ تَمَّ قِيلَ : « حُسْنُ السُّؤَالِ نِصْفُ الْعِلْمِ » (٦) .

(١) سيرة ابن هشام (٥٤/٢) ، وحسنه الألباني ، انظر تعليقه على فقه السيرة للغزالي هامش (ص ١٥٤) ، وحسن إسناده - أيضًا - الدكتور العمري ، والأستاذان شعيب وعبد القادر الأرنؤوط ، انظر هامش زاد المعاد (٥٤/٣) .

(٢) خَزَايَا : جمع خازٍ . والمعنى : أنهم أسلموا طوعًا من غير حربٍ أو سبيٍ يُخزبهم ويفضحهم . الفتح (١٣١/١ - ١٣٢) .

(٣) نَدَامَى : جمع ندمان ، أي المنادم في اللهو . المرجع السابق (١٣١/١ - ١٣٢) .

(٤) أخرجه البخاري (٥٣) ، ومسلم (١٧) .

(٥) « الفتح » (١٣١/١) .

(٦) المرجع السابق (١٤٢/١) .

قال القحطاني - رحمه الله - :

أصلُ الجدالِ مِنَ السُّؤالِ ، وَفَرَعُهُ حُسْنُ الجِوابِ بِأَحْسَنِ التَّبْيَانِ
لا تَلْتَفِتْ عِنْدَ السُّؤالِ ، ولا تُعَدِّ لَفْظَ السُّؤالِ كِلاهُما عَيَّانِ (١)

ويمكن تقسيم الاسئلة إلى ثلاثة أقسام:

[١] الأسئلة المفتوحة :

وهي التي تَسْمَحُ لِلآخِرِ بِالإِجَابَةِ عَنِ السُّؤالِ بِطَرِيقَةٍ غيرِ مَحْدَدَةٍ ، مثل :
أَنْ تَقولَ لِمُحاورِكَ : الأَخُ مِنْ أَيْنَ ؟ ما اسمُكَ ؟ ، كَيْفَ حَالُكَ ؟ ، أَيْنَ طَلَبْتَ
العِلْمَ ؟ ، كَيْفَ أَنْتَ والقِراءَةُ ؟ ، إلى غيرِ ذلك ، وَأَنْتِ تُعَلِّقُ بِقولِكَ : ما شاءَ
اللهُ ، نَعَمْ ، زِدْنِي ، حَدِّثْنِي عَن هَذَا الكِتابِ ، أو تُعَلِّقُ عَلَيَّ جُزْئِيَّةً مِنْ حَدِيثِهِ ،
سِوَا بِالإِيماءِ ، أو الهَمَّهَماتِ ، وتعبيراتِ الوَجْهِ ، مِمَّا يَضطَرُّهُ إلى التَّوضيحِ
أَكثَرَ ، ويبدأ تبادل الحوار والألفة والمحبة بينكما ، وهذا له دورٌ عظيمٌ في اكتشاف
شخصيةِ مُحاورِكَ ، وكذا تحقيقِ الانسجامِ بِصورةٍ طَبِيعِيَّةٍ وتلقائيةٍ ، كما أَنَّها
وسيلةٌ لكسبِ الثَّقَةِ ، وكسبِ الثَّقَةِ يُولِّدُ بالتَّالِي المودَّةَ والمُحَبَّةَ في القلوبِ ،
ناهِيكَ عَن تنشيطِ عَمَلِيَّةِ التَّحاورِ ، وإثارةِ تفكيرِ الآخِرِ ، ومعرفةِ الطَّرِيقَةِ التي
يُفَكِّرُ بِها ، واختبارِ صِحَّةِ بعضِ المَعلوماتِ .

[٢] الأسئلة الموجهة :

وهي التي تُقَيِّدُ الآخِرَ بِوَضْعِ الإِجَابَةِ فِي إِطارِ مَحْدودٍ ، مثل : أَنْ تَسأَلَ :
ما دَليْلُكَ عَلَيَّ ما ذَهَبَ إِلَيهِ ؟ ، هَلْ سَبَقَكَ بِهذا القولِ إمامٌ ؟ ، أَيْنَ مَطَّانٌ هَذَا
القولِ ، أو هذه الفائدةُ ؟ .

[٣] الأسئلة التقريرية :

وهي التي تستدرج الطرف الآخر إلى الإقرار بقوله ، وتجعل جوابه إيجابياً نافعاً ، والإقرارُ يَتميزُ بسِطرةِ السَّائلِ على الأسئلة والأجوبة معاً ، وبطريقةٍ تُمكنه من الوصولِ إلى أهدافِه من أقربِ طريقٍ .

والأسئلة التقريرية قد جاءت في مواضعٍ عدّةٍ من كتاب الله ، فعلى سبيل المثال :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ

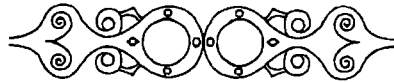
اللَّهُ ﴾ { لقمان : ٢٥ } .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرِ

الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ { العنكبوت : ٦١ } .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ

خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾ { الزُّحُرْفُ : ٩ } .



تحديد الشخصية

ترجع نسبة كبيرة من الحوارات الفاشلة إلى عدم معرفة المحاور للطرف المقابل له معرفة دقيقة ؛ لأنَّ الجهل يُؤدِّي إلى سوء الفهم بكلِّ تأثيراته السلبية التي تصل إلى حدِّ الانشقاق والفرقة ، ومن هنا كانت المعرفة الدقيقة لشخصية الآخر ، وظروفه ، وبيئته ، واهتماماته ، ومُبرراته في التمسُّك بما يقول ، كُلُّ ذلك هو الطَّرِيق إلى تحديد الأسلوب المناسب للتَّحاور معه ، والمفتاح الصَّحيح لفتح قلبه ، والقرب منه وضبط أعصابه .

وتُعرَّف الشخصية بأنها : الصفات المُعيَّنة التي يتَّصفُ بها إنسانٌ ما دون غيره .

ويمتدُّن تقسيم الشخصية التي نتعامل معها إلى أربعة أقسام :

[١] الشخصية اليائسة :

وهي شخصيَّة مَنْ تعرَّضوا للفشل المستمرُّ على طريق الدَّعوة إلى الله ، أو على طريقٍ آخر ، وأسلمهم هذا الفشلُ إلى يأسٍ مُطلقٍ من أيِّ عملٍ ، وهؤلاء لا يتصورون عملاً يمكنه الوصول إلى التغيير للأفضل ، بل ويكرهون من يُحاول القيام بأيِّ محاولةٍ إيجابيةٍ للتَّغيير ، ويجدون مُتعتهم الحقيقية في رَصدِ تجاربِ الفشل .

ولا شكَّ أنَّ الحوار مع هؤلاء يتطلَّب الحذر الشديد ؛ حتَّى لا يضيع وقتُ الحوار فيما لا ينفعُ ، أو يدورُ الحوار في حلقةٍ مفرغةٍ دون الوصول إلى أهدافٍ محدودةٍ يُبنى عليها الحوار .

ومن هنا وجبَ على من يتحاور مع هذا الصَّنْفِ عدمَ الخوض في الأمور التي سببت لهؤلاء الفشلَ ؛ لأنَّ هذه الأمور تستثير شهيتهم لترسيخ اليأس ، وإنَّما يكون التركيزُ في الحوارِ على ترسيخ اليقين بأنَّ هناك ما يُمكن عمله ، وأنَّ

كُلَّ عَمَلٍ مُفِيدٌ .

[٢] الشَّخْصِيَّةُ الْمُنْصَنَفَةُ :

وهي الشَّخْصِيَّةُ التي تَمِيلُ - دائماً - إلى تصنيفِ الآخر وتأخيرهِ بجهالةِ دونِ تروٍّ ، بل وتَعْتَبِرُ الآخرَ عندَ أدنى مُخالفةٍ من معسكرِ الحُصُومِ الذين يجب التصارع معهم وسحقهم .

ولا شكَّ أنَّ التَّحاورَ مع أصحابِ هذه الشَّخْصِيَّةِ يَتَطَلَّبُ قَدْرًا كبيرًا من الذِّكاءِ والحذرِ ، ويقتضي إبرازَ أكبرِ قَدْرٍ ممكنٍ من مواطنِ الاتِّفاقِ بينِ الطَّرْفَيْنِ في بدايةِ التَّحاورِ ؛ لأنَّ ذلكَ يُقَلِّلُ فِجْوَةَ الخِلافِ ، ثُمَّ استِثمارِ الفرصِ للتأكيدِ على خطإِ تصنيفهم عبر رسالةٍ أَخَوِيَّةٍ تُثَبِّتُ حُسْنَ النِّيَّةِ والحُبَّ للآخرِ ؛ لأنَّ ذلكَ يُقَلِّلُ الكراهيةَ .

فإذا ضاقتُ فِجْوَةُ الخِلافِ ، وانحسرتْ حِدَّةُ الكراهيةِ من الآخرِ ، فلايُدَّ من الالتزامِ خلالِ الحوارِ بتركِ الفرصةِ الدَّائِمَةِ للمخالفِ يرجعُ عَنَ أفكارهِ مع حِفْظِ ماءِ الوجهِ .

إنَّ مَنْ نحاوَرَهُ ونُخالَفَهُ في الرَّأيِ بطريقةٍ صحيحةٍ للحوارِ والخِلافِ ، لا يَشعُرُ بالانهزامِ والإرغامِ ، بل يشعرُ بفضيلةِ انكشافِ الحقِّ ، والرضوخِ له دونِ إرغامٍ من أحدٍ ، والحوارِ النَّاجِحِ هو الحوارُ الَّذِي لا يَشعُرُ فيه المتراجِعُ عن الخطإِ بالذُّلِّ كما لا يشعرُ فيه الدَّاعي إلى الحقِّ بالغرورِ .

[٣] الشَّخْصِيَّةُ الْمُتَّصِدَّةُ :

وهي التي يقومُ صاحبها بتصيدِ الحروفِ والألفاظِ ، دونِ الاهتمامِ بمقاصدها ، أو إحسانِ الظَّنِّ بقائلها ، وهذه الشَّخْصِيَّةُ - وليس لنا مَثَلُ السَّوءِ - كشخصيةِ الخنزيرِ ، أو الذُّبابِ .

قال ابن القيم - رحمه الله - : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ طَبَعَهُ طَبَعُ خَنْزِيرٍ ، يَمْرُؤٌ بِالطَّيِّبَاتِ فَلَا يَلْوِي عَلَيْهَا ، فَإِذَا قَامَ الْإِنْسَانُ عَنْ رَجِيعِهِ قَمَّهُ ، وَهَكَذَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، يَسْمَعُ مِنْكَ وَيَرَى مِنَ الْمَحَاسِنِ أَضْعَافَ الْمَسَاوِي ، فَلَا يَحْفَظُهَا ، وَلَا يَنْقُلُهَا ، وَلَا تُنَاسِبُهُ ، فَإِذَا رَأَى سَقَطَةً ، أَوْ كَلِمَةً عَوْرَاءَ ، وَجَدَ بُغْيَتَهُ وَمَا يُنَاسِبُهَا ، فَجَعَلَهَا فَاكِهَتَهُ وَنُقْلَهُ » (١) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « إِنَّ الْجَاهِلَ بِمَنْزِلَةِ الذُّبَابِ ، لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى الْعَقِيرِ (أي الجريح) » (٢) .

قال عبد الكريم العماد :

لَا تَكُنْ كَالذُّبَابِ يَتْرُكُ مَا طَا بَ ، وَيَلْوِي عَلَى الْأَذَى وَالْقُرُوحِ
وَتَنْزَهُ كَنَحْلَةِ الرَّوْضِ فَوْقَ الزَّرِّ هِرِّ ، تَبْغِي الرَّحِيقَ بَيْنَ السُّفُوحِ

ولاشكَّ أَنَّ التَّحَاوَرَ مَعَ أَصْحَابِ هَذِهِ الشَّخْصِيَّاتِ يَحْتَاجُ إِلَى التَّذْكَيرِ الدَّائِمِ بِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ إِلَّا وَلَهُ نَادِرَةٌ يَنْبَغِي أَنْ تُغْمَرَ فِي جَنْبِ فَضْلِهِ وَتُجْتَنَّبَ (٣) ، وَلَا بُدَّ مِنَ التَّخَلُّقِ بِأَدَبِ الْإِعْتِرَافِ بِالخَطِإِ إِنْ وَقَعَ مَنَأٌ ، وَعَدَمِ الدَّفَاعِ عَنِ الْأَخْطَاءِ أَوْ تَبْرِيرِهَا ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ هُوَ السَّبِيلُ لِإِقَامَةِ جَسُورِ التَّوَاصُلِ مَعَ أَصْحَابِ الشَّخْصِيَّةِ الْمُتَّصِدَّةِ .

وهنا نقطة مهمة في هذا الباب :

هي أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ النَّقْدُ صَاحِبَ شَخْصِيَّةٍ مُتَّصِدَّةٍ ؛ فَالنَّقْدُ - فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ - يُعْتَبَرُ ضَرُورَةً مُلْحَةً لَا يُسْتَغْنَى عَنْهَا ، خَاصَّةً إِذَا كَانَ مَبْنِيًّا عَلَى تَمَامِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ وَالتَّجَرُّدِ ، وَهُوَ مِنْ بَابِ النَّصِيحَةِ وَالتَّوَاصِيِ بِالْحَقِّ

(١) « مدارج السالكين » (١/٤٣٥) .

(٢) « منهاج السنة النبوية » (٦/١٥٠) .

(٣) « الموافقات » (٤/١٨٩-١٩٠) .

المأمور بهما شرعاً .

وما اجتمعت ما قاله الإمام الزبائني ابن القيم - رحمه الله - :

« عادتنا في مسائل الدين كلها دققها وجلها أن نقول بموجبها ، ولا نضرب بعضها ببعض ، ولا نتعصب لطائفة على طائفة ، بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق ، نخالفها فيما معها من خلاف الحق ، ولا نستثني من ذلك طائفة ولا مقالة ، ونرجو من الله أن نحيا على ذلك ، ونموت عليه ، ونلقى الله به ، ولا قوة إلا بالله » (١) .

ومن اللطائف ما نقله المدايني قال : « لحن الحجاج يوماً ، فقال الناس : لحن الأمير ، فأخبره بعض من حضر ، فتمثل بشعر قعب بن أم الصاحب :

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به	وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا (٢)
فطانة فطنوها ، لو تكن لهم	مروءة أو تقى ، ما فطنوا (٣)
إن يسمعوا شيئاً طاروا به فرحاً	مني وإن سمعوا من صالح دفنوا (٤)

[٤] الشخصية الهروبية :

وهي التي تسيطر على أصحابها فكرة أنهم لا يملكون فعل شيء في مواجهة المتآمرين عليهم ، فيدفعهم ذلك إلى الهروب من مواجهة تجاربهم الفاشلة ، ومحاولة معرفة الأخطاء التي سببت لهم الفشل إلى تبرير هذه التجارب بما يبرئ ساحتهم ، ويضع المسؤولية على الآخرين الذين لا يكفون عن التآمر عليهم .

ولا شك أن التآمر مع أصحاب هذه الشخصية يحتاج إلى التذكير بأن

(١) طريق الهجرتين (ص ٣٩٣) .

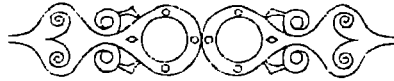
(٢) أذنوا : استمعوا وأصغوا بأذانهم إلى ما يقال .

(٣) الفطانة : الفهم ، والمعنى : أنهم يتقبلون الإساءة دون أن يردوها عنك .

(٤) عيون الاخبار (٩٦/٣) .

العوامل الداخليَّة - في أيِّ عَمَلٍ كان - هي التي تُعطي العوامل الخارجيَّة تأسيِّرة العمل والتَّأثير ، وأنَّ علينا أن نتقن العمل بدلاً من أن نُبرِّر الفشل ، ونمارس عبوديَّة الأخذ بالأسباب ضمن ممارسة عبوديَّة التَّوَكُّل ، وأن نعلم علم اليقين أنَّ أوَّل خُطوة في طريق ضربِ تآمر الآخرين هي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرَّعد : ١١] ، فهذه الآية هي نواة التَّغيير المنشود الذي يجب أن يسعى إليه الجميع في حدود الاستطاعة مع الحذر الواجب وعدم اليأس .

وهكذا تحتاج كلُّ شَخْصِيَّةٍ إلى طريقة في الحوار تختلف - قليلاً أو كثيراً - عن الأخرى ، ومن هنا يُصبح من الأهميَّة بمكان معرفة شخصيَّات الآخرين الذين نتحاور معهم لأيِّ سبب كان ، فإنَّ أسلوب « جسُّ النَّبْضِ » عبر أسئلة عن أمرٍ عامٍّ ليس لها علاقة مباشرة بموضوع الحوار ، قد تُكسب بعض الخبرة عن الآخرين ، وتُعطينا فرصة التَّعرُّف على أفكارهم وشخصيَّاتهم من خلال ميولهم ، وطريقتهم في الإجابة ، بل وحتى من خلال نبرات أصواتهم في الرَّدِّ ، وإشارات أيديهم المصاحبة لها (١) .



(١) من الكتب التي اطَّلعتُ عليها ، وأفدتُ منها في هذا الباب كتاب « لمحات في فنِّ الحوار » (ص: ١٦-١٧) بتصرفٍ .

تقويم اللسان

أي أخي، لا شكَّ أَنَّ النَّحْوَ من أشرف العلوم ، مَنْ نَالَه نَالَ فَضْلاً عَظِيماً ،
وخيراً جزيلاً ، وهل يُفْهَمُ الكتابُ والسُّنَّةُ إِلَّا بفْهَمِ النَّحْوِ ١٩ .

قال الشافعي - رحمه الله - : « اللِّسَانُ الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ لِسَانُ
العَرَبِ ، فَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ الْعَزِيزَ ، وَجَعَلَهُ لِسَانَ خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ وَلِهَذَا
نَقُولُ : يَنْبَغِي لِكُلِّ أَحَدٍ يَقْدِرُ عَلَى تَعَلُّمِ الْعَرَبِيَّةِ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا ؛ لِأَنَّهَا اللِّسَانُ
الْأُولَى » (١) .

وقال أيضاً : « يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ مَا يَبْلُغُهُ جِهْدَهُ
فِي آدَاءِ فَرَضِهِ » (٢) .

وقال الماوردي - رحمه الله - : « وَمَعْرِفَةُ لِسَانِ الْعَرَبِ فَرَضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ
وَمُسْلِمَةٍ مِنْ مُجْتَهِدٍ وَغَيْرِهِ » (٣) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « وَاعْلَمْ أَنَّ اعْتِيَادَ اللُّغَةِ يُؤَثِّرُ فِي
الْعَقْلِ وَالْخُلُقِ ، وَالدِّينِ تَأْتِيراً قَوِيّاً ، وَيُؤَثِّرُ - أَيْضاً - فِي مُشَابَهَةِ صَدْرِ هَذِهِ
الْأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، وَمُشَابَهَتُهُمْ تَزِيدُ فِي الْعَقْلِ ، وَالدِّينِ وَالْخُلُقِ ،
وَأَيْضاً فَإِنَّ نَفْسَ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ مِنَ الدِّينِ ، وَمَعْرِفَتُهَا فَرَضٌ وَاجِبٌ ؛ لِأَنَّ فَهْمَ
الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَرَضٌ ، وَلَا يُفْهَمُ إِلَّا بِفْهَمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا
بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ » (٤) .

١ « اقتضاء الصراط المستقيم » (٤٦٤/١) .

٢ « إرشاد الفحول » (٢٢٢) .

٣ المرجع السابق (٢٢٢) .

٤ « اقتضاء الصراط المستقيم » (٤٦٨/١) .

وقال - ايضاً - : « وكان السَّلَفُ يُؤَدِّبُونَ أولادهم على اللَّحْنِ (١) ، فنحنُ مأمورون - أمرَ إيجابٍ أو أمرَ استحبابٍ - أنْ نَحْفَظَ القانونَ العربيَّ ، ونُصَلِّحَ الألسنةَ المائلةَ عنه ، فيحفظ لنا طريقةَ فهمِ الكتابِ والسُّنةِ ، والافتداء بالعرب في خطابها ، فلو تُرِكَ النَّاسُ على لِحْنِهِمْ كان نقصاً وعيباً » (٢) .

قال ابن بسام :

فَلَا تَعْدُ إِصْلَاحَ اللُّسَانِ ؛ فَإِنَّهُ
وَيُعْجِبُنِي زِيُّ الْفَتَى وَجَمَالُهُ
عَلَى أَنْ لِلإِعْرَابِ حَدًّا ، وَرُبَّمَا
وَلَا خَيْرَ فِي اللَّفْظِ الْكَرِيهِ سَمَاعُهُ
يُخْبِرُ عَمَّا عِنْدَهُ وَيُبَيِّنُ
وَيَنْقُطُ مِنْ عَيْنِي سَاعَةَ يَلْحَنُ
سَمِعْتُ مِنَ الإِعْرَابِ مَا لَيْسَ يَخْسُنُ
وَلَا فِي قَبِيحِ الظَّنِّ بِالفِعْلِ أَحْصَنُ

وقال عبد الملك بن مروان : « اللَّحْنُ فِي الكَلَامِ أَقْبَحُ مِنَ الجُدْرِيِّ فِي الوَجْهِ » (٣) .

وَأَوْصَى بَعْضَ بَنِيهِ ، فَقَالَ : « يَا بَنِيَّ ، أَصْلِحُوا أَلْسِنَتَكُمْ ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ تَنْوِبُهُ النَّائِبَةُ ، فَيَتَجَمَّلُ فِيهَا ، فَيَسْتَعِيرُ مِنْ أَخِيهِ دَابَّتَهُ ، وَمِنْ صَدِيقِهِ ثَوْبَهُ ، وَلَا يَجِدُ مَنْ يَعْبِرُهُ لِسَانَهُ » (٤) .

قال الشاعر :

إِنِّي وَإِنْ كَانَتْ أَثْوَابِي مُلْفَقَةً
فَإِنَّ فِي المَجْدِ هِمَّاتِي وَفِي لُغَتِي
لَيْسَتْ بِخَزْ (٥) وَلَا مِنْ نَسْجِ كَتَّانٍ (٦)
فَصَاحَةٌ وَلِسَانِي غَيْرَ لِحَّانٍ (٧)

(١) اللَّحْنُ : الحِطْلُ .

(٢) « الفتاوى » (٢٥٢/٣٢) .

(٣) « القواعد الأساسية » (ص ٣) .

(٤) المرجع السابق (ص ٣) .

(٥) الحَزْ : الحرير .

(٦) الكَتَّانُ : القطن .

(٧) « المفرد العلم » (ص ٣٩) .

قال ابن فارس - رحمه الله - : « من العلوم الجليلة التي اختصت بها العرب الإعرابُ الذي هو الفارقُ بين المعاني المتكافئة في اللفظ ، وبه يُعرفُ الخبرُ الذي هو أصلُ الكلام ، ولولاه ما ميّزَ فاعلٌ من مفعولٍ ، ولا مُضافٌ من مَنعوتٍ ، ولا تَعَجُّبٌ من استفهامٍ ، ولا صَدْرٌ من مَصْدُورٍ ، ولا نَعْتٌ من تَأْكِيدٍ » (١) .

وقال - ايضاً - : « وقد كانَ النَّاسُ قَدِيمًا يَجْتَنِبُونَ اللَّحْنَ فِيمَا يَكْتُبُونَ أَوْ يَقْرَأُونَ اجْتِنَابَهُمْ بَعْضَ الذُّنُوبِ ، فَأَمَّا الْآنَ فَقَدْ تَجَاوَزُوا ، حَتَّى إِنَّ الْمُحَدِّثَ يُحَدِّثُ فِیْلَحْنٍ ، وَالْفَقِيهَ يُؤَلِّفُ فِیْلَحْنٍ ، فِإِذَا نُبِّهَا قَالَا : مَا نَدْرِي مَا الْإِعْرَابُ ، وَإِنَّا نَحْنُ مُحَدِّثُونَ وَفُقَهَاءُ ، فَهُمَا يُسْرَّانَ بِمَا يُسَاءُ بِهِ اللَّيْبُ ، وَلَقَدْ كَلَّمْتُ بَعْضَ مَنْ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ ، وَيَرَاهَا مِنْ فِقْهِ الشَّافِعِيِّ بِالرُّتْبَةِ الْعُلْيَا فِي الْقِيَاسِ ، فَقُلْتُ : مَا حَقِيقَةُ الْقِيَاسِ وَمَعْنَاهُ ؟ ، وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ هُوَ ؟ ، فَقَالَ : لَيْسَ عَلَيَّ هَذَا ، وَإِنَّمَا عَلَيَّ إِقَامَةُ الدَّلِيلِ عَلَى صِحَّتِهِ .

فَقُلْتُ لِي الْآنَ فِي رَجُلٍ يَرُومُ إِقَامَةَ الدَّلِيلِ عَلَى صِحَّةِ شَيْءٍ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ ، وَلَا يَدْرِي مَا هُوَ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ سَوْءِ الْإِخْتِيَارِ » (٢) .

قال الاخ عبد الكريم العماد :

النَّحْوُ مَفْتَا حُ الْعُلُومِ وَفَهْمُهُ يَكْفِي الْعُقُولَ مَشَقَّةً وَعَنَاءً
فَأَفْهَمُهُ وَأَحْرِصُ أَنْ تَنَالَ زِمَامَهُ يَجْعَلُ طَرِيقَكَ لِلْعُلُومِ ضِيَاءً

وقال ابو هلال العسكري : « عِلْمُ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى مَا تَسْمَعُ مِنْ خَاصٍّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ جَمَالَهُ فِي دُنْيَاهُ ، وَكَمَالَ آلَتِهِ فِي عُلُومِ دِينِهِ ، وَعَلَى حَسَبِ تَقَدُّمِ الْعَالَمِ فِيهِ وَتَأَخُّرِهِ يَكُونُ رُجْحَانُهُ وَنُقْصَانُهُ إِذَا نَاطَرَ أَوْ صَنَّفَ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْ

(١) « الصحابي » (ص ٧٦) .

(٢) المرجع السابق (ص ٧٧) .

يطلبُ التَّرْسُلَ ، وقرَضَ الشُّعْرَ ، وَعَمَلَ الخُطْبَ والمَقَامَاتِ ، كَانَ محتَاجًا - لا محَالَةً - إلى التَّوسُّعِ في عُلُومِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ « (١) .

قال الشاعر:

النَّحْوُ يُصْلِحُ مِنْ لِسَانِ الأَلَكْنِ (٢) وَالْمَرْءُ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ
وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ العُلُومِ أَجَلَهَا فَأَجَلُهَا نَفْعًا مُقِيمُ الأَلْسُنِ (٣)

قال حماد بن سلمة: « مَنْ طَلَبَ الحَدِيثَ ، وَلَمْ يَتَعَلَّمَ النَّحْوَ - أَوْ قَالَ العَرَبِيَّةَ - فَهُوَ كَمَثَلِ الحِمَارِ ، تُعَلِّقُ عَلَيْهِ مَخْلَاةٌ فِيهَا شَعِيرٌ » .

قال الشاعر:

إِنَّ الَّذِي مَلَأَ اللُّغَاتِ مَحَاسِنًا جَعَلَ الجَمَالَ وَسِيرَةً فِي الضَّادِ
وقد يقولُ قائلٌ : إِنَّ العَامِيَّةَ ضَرُورَةٌ لِأَرْمَةِ لِمُخَاطَبَةِ النَّاسِ عَلى قَدْرِ
عُقُولِهِمْ ، وَالجَوَابُ عَلَيْهِ :

قال الدكتور فتحي جمعة استاذ العلوم اللغوية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

- حفظه الله - :

« إِنَّ المُخَاطَبَةَ عَلى قَدْرِ العُقُولِ لا تَعْنِي تَبَدُّلَ اللُّغَةِ ، أَوْ هَبُوطَ الكَلَامِ ، وَإِنحرَافَهُ عَن سُنَنِ الفُصْحَى ، وَإِنَّمَا تَعْنِي الإبتعادَ عَن تَعقِيدِ الفِكرَةِ ، وَالتَّعَقُّرِ فِي اللُّغَةِ (أَيْ تَعَمُّدَ اخْتِيارِ الصَّعْبِ مِنَ التَّركِيبِ وَالعَرِيبِ الوَحْشِيِّ مِنَ الكَلَامِ) .
أَمَّا الجُنُوحُ إِلَى العَامِيَّةِ بِدَعْوَى إفهامِ العوامِّ ، فَإِنَّ لَمْ يَكُنْ مُدَاراةً لِلعَجْزِ عَن الفُصْحَى ، وَقِصْرَ الباعِ فِي اسْتِعمالِها ، فَهُوَ ادِّعاءٌ يَظْلِمُ الفُصْحَى وَالعوامِّ فِي وَقتٍ مَعًا ، يَظْلِمُ الفُصْحَى بِأَنَّها غَيْرُ مَفهُومَةٍ ، وَواللهِ إِنَّها لَمَفهُومَةٌ ، وَيَظْلِمُ

(١) القواعد الأساسية (ص ٤) .

(٢) الألكن : الذي لا يُقِيمُ العَرَبِيَّةَ لِعَجْمَةِ لِسَانِهِ .

(٣) القواعد الأساسية (ص ٤) .

العوامَّ بأنَّهم لا يفهمون ، وتاللهِ إنَّهم ليفهمون ، وإلَّا فكيف يخشعون للقرآنِ ،
ويتأثرون ببالغِ الموعظةِ ، وجميلِ البيانِ !؟ « ا. هـ .

قال الشاعرُ:

مَنْ فَاتَهُ النَّحْوُ فَذَاكَ الْأَخْرَسُ وَقَهْمُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مُفْلِسُ
وَقَدْرُهُ بَيْنَ الْوَرَى مَوْضُوعُ وَإِنْ يُنَاطِرُ فَهُوَ الْمَقْطُوعُ
لَا يَهْتَدِي لِحِكْمَةِ فِي الذِّكْرِ وَمَا لَهُ مِنْ غَامِضٍ مِنْ فِكْرٍ

ومن اللطائف: ما ذكره ابن الجوزي - رحمه الله - في كتابه « الحمقى والمعقلين »:
أن رجلاً قال لرجلٍ آخر: يا أخي، لقد فهمتُ النَّحْوَ كُلَّهُ ما عدا ثلاثَ مَسَائِلَ،
قال: ما هي؟ قال: قولُ الرَّجُلِ: أبو، وأبا، وأبي، فقال المسئولُ: أبو
تُستخدَمُ للرَّجُلِ السَّمِينِ، وأبا للرَّجُلِ المتوسِّطِ، وأبي للرَّجُلِ النَّحِيفِ!

قال الشاعرُ اللُّغَوِيُّ مُحَمَّدُ الْخَضِرُ حَسِينٍ - رحمه الله -:

لُعَّةٌ قَدْ عَقَدَ الدِّينُ لَهَا ذِمَّةً يَكْلُوهَا (١) كُلُّ الْبَشَرِ
أَوْ لَمْ تُنْسَجْ عَلَيَّ مِنْوَالِهَا كَلِمُ التَّنْزِيلِ فِي أَرْقَى سُورِ
يَا لَقَوْمِي لَوْ فَاءَ إِنَّ مَنْ نَكَّثَ الْعَهْدَ أَتَى إِحْدَى الْكِبَرِ
فَأَقِيمُوا الْوَجْهَ فِي إِحْيَائِهَا وَتَلَاقُوا عَقْدَ مَا كَانَ انْتِثَرِ

وأخيراً قال شاعرُ السَّيْلِ مُحَمَّدُ حَافِظُ إِبرَاهِيمِ مِتَّحَدَّثَاتَا بِلِسَانِ حَالِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ .

مَبِينًا مَا سَاتَهَا:

رَجَعْتُ لِنَفْسِي (٢) فَاتَهَمْتُ حَصَاتِي (٣)
وَنَادَيْتُ قَوْمِي فَاحْتَسَبْتُ حَيَاتِي (٤)

(١) يَكْلُوهَا: يَحْفَظُهَا وَيَرَعَاهَا .

(٢) رَجَعْتُ لِنَفْسِي: تَأَمَّلْتُ نَفْسِي .

(٣) حَصَاتِي: عَقْلِي .

(٤) احْتَسَبْتُ حَيَاتِي: عَدَدْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ .

عَقِمْتُ فَلَمْ أَجْزَعْ لِقَوْلِ عُدَاتِي (٢)
 رَجَالًا وَأَكْفَاءَ وَأَدْتُ بَنَاتِي (٣)
 وَمَا ضَمْتُ عَنْ آيِ بِهِ وَعِظَاتِ
 وَتَنَسَّقِ اسْمَاءَ لِمُخْتَرَعَاتِ ؟
 فَهَلْ سَأَلُوا الْغَوَاصَّ عَنْ صَدَقَاتِي (٥) ؟
 وَمِنْكُمْ وَإِنْ عَزَّ (٨) الدَّوَاءُ أُسَاتِي (٩)
 أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَحِينَنَّ وَقَاتِي
 يُنَادِي بُوَادِي فِي رِبِيعِ حَيَاتِي !
 يَعَزُّ عَلَيْهَا أَنْ تَلِينَنَّ قَنَاتِي (١١)
 لَهْنًا بِقَلْبِ دَائِمِ الْحَسْرَاتِ
 حَيَاءً بِتِلْكَ الْأَعْظُمِ النَّخْرَاتِ (١٤)

رَمَوْنِي بِعُقْمٍ فِي الشَّبَابِ (١) وَلَيَّتِي
 وَلَدْتُ وَلَمَّا لَمْ أَجِدْ لِعَرَائِسِي
 وَسَعْتُ كِتَابَ اللَّهِ لَفْظًا وَغَايَةً (٤)
 فَكَيْفَ أَضِيقُ الْيَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ
 أَنَا الْبَحْرُ فِي أَحْسَانِهِ الدَّرُّ كَامِنٌ
 فَيَا وَيْحَكُمْ (٦) أَبْلَى وَتَبَلَّى مَحَاسِنِي (٧)
 فَلَا تَكْلُونِي لِلزَّمَانِ فَلِإِنِّي
 أَيَطْرِبُكُمْ مِنْ جَانِبِ الْغَرْبِ نَاعِبٌ (١٠)
 سَقَى اللَّهُ فِي بَطْنِ الْجَزِيرَةِ أَعْظُمًا
 حَفَظَنَّ وَدَادِي (١٢) فِي الْبَلَى (١٣) وَحَفَظْتُهُ
 وَفَاخَرْتُ أَهْلَ الْغَرْبِ وَالشَّرْقِ مُطْرَقٌ

(١) رَمَوْنِي بِعُقْمٍ فِي الشَّبَابِ : اتَّهَمُونِي بِأَنِّي لَا أَلِدُ وَأَنَا شَابَةٌ وَكُلُودٌ .

(٢) عُدَاتِي : أَعْدَائِي .

(٣) وَأَدْتُ بَنَاتِي : دَفَنْتُهُنَّ أَحْيَاءً .

(٤) لَفْظًا وَغَايَةً : مَبْنًى وَمَعْنًى .

(٥) صَدَقَاتِ : جَمْعُ صَدَقَةٍ ، وَهِيَ غِشَاءُ الدَّرِّ .

(٦) وَيْحَكُمْ : رَحْمَةٌ لَكُمْ .

(٧) بَلَى الثَّوْبِ : قَدَمٌ وَخَلِقٌ ، وَصَارَ غَيْرَ صَالِحٍ لِلِاسْتِعْمَالِ ، وَبَلَى الْجِسْمِ : انْحَلَّ لِعَاهَةِ ، أَوْ لَطُولِ الزَّمَنِ عَلَيْهِ .

(٨) عَزَّ يَعَزُّ - يَفْتَحُ الْعَيْنَ فِي الْمَضَارِعِ أَوْ يَكْسِرُهَا - : أَيِ صَعْبٍ .

(٩) أُسَاةٌ : جَمْعُ أُسٍ ، وَهُوَ الطَّيِّبُ وَالْجِرَاحُ .

(١٠) نَاعِبٌ : الْغُرَابُ حِينَ يَصُوتُ ، وَالرَّجُلُ يَخِيرُ بِخَيْرِ السُّوءِ كَالْغُرَابِ .

(١١) قَنَاءٌ : الْمُرَادُ بِهَا هُنَا الْقَامَةُ ، وَبِلَيْسِنِهَا الضَّعْفُ وَالِانْحِلَالُ ، وَالْمَعْنَى : يَشُقُّ عَلَيْهَا أَنْ أَكُونَ ضَعِيفَةً مُنْحَلَّةً .

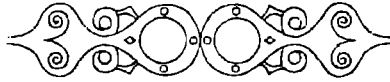
(١٢) وَدَادِي : مَحَبَّتِي وَصُحْبَتِي .

(١٣) الْبَلَى : الْمَوْتُ وَذَهَابُ الْأَثَرِ .

(١٤) النَّخْرَاتِ : الْبَالِيَةِ .

مِنَ الْقَبْرِ يُدْنِينِي بِغَيْرِ أُنَاةٍ (١)
 إِلَى لُغَةٍ لَمْ تَتَّصِلْ بِرُوَاةٍ (٢)
 لُعَابُ الْأَفَاعِي (٤) فِي مَسِيلِ فُرَاتٍ (٥)
 مُشَكَّلَةَ الْأَلْوَانِ مُخْتَلِفَاتٍ

أَرَى كُلَّ يَوْمٍ بِالْجَرَائِدِ مَزْلَقًا
 أَيَهْجُرُنِي قَوْمِي - عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ -
 سَرَتْ لَوْنَةُ الْإِعْجَامِ (٣) فِيهَا كَمَا سَرَى
 فَجَاءَتْ كَثُوبٌ ضَمَّ سَبْعِينَ رُقْعَةً



- (١) الأناة: التأنّي والنمهل .
 (٢) لم تتصل برواة: أي لم يأخذها الخلف عن السلف بطريقة الرواية التي تحفظها من التغيير .
 (٣) الإعجام: ضعف البيان ، وسوء التعبير .
 (٤) لعاب الأفاعي: ما يسيل من أفواه الحيات الخبيثات ، يُريدُ السُمَّ .
 (٥) مسيل فرات: مجرى ماء عذب .

البيان

أي أخي المحب ، مازلتُ موصولاً بما تُحبُّ ، اعلمُ - باركَ اللهُ فيكَ وفي علمك - أنَّ قوَّةَ التَّعبيرِ ، وفصاحةَ اللُّسانِ ، وحُسْنَ البيانِ من أركانِ المناقشةِ الجيِّدةِ ، والحوارِ النَّاجحِ .

فكم من حقٍّ ضاع لسوءِ التَّعبيرِ عنه ، وكم من باطلٍ ظَهَرَ ؛ لأنَّ الذي يدعو إليه فصيحٌ بليغٌ ! ، بل إنَّ الحقيقةَ الواحدةَ قد يَخْتَلِفُ فَهْمُنا لها بحسبِ الطَّريقةِ التي قُدِّمَتْ بها إلينا .

وقديماً قال الشاعرُ:

في زُخْرُفِ القَوْلِ تَزِينٌ لِباطِلِهِ والحقُّ قَدْ يَعتَرِيهِ سُوءُ تَعبيرِ
تَقولُ : هَذَا مُجَاجٌ (١) النَّحْلِ تَمَدِّحُهُ وَإِنَّ ذَمَّتَ فِقلُ : قَيءُ الزَّنابيرِ
مَدْحًا وَذَمًّا ، وما غَيَّرتَ مِنْ صِفَةٍ سِحْرُ البَيانِ يَري الظُّلَماءَ كالنُّورِ (٢)

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أَنَّهُ قَدِمَ رِجلانِ مِنَ المِشرقِ خُطبا ، فَعَجِبَ النَّاسُ لِبَيانِهِما ، فقال رسولُ اللهُ صلَّى اللهُ عَلَیْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحْرًا » أو : « إِنَّ بَعْضَ البَيانِ سِحْرٌ » (٣) .

قال ابن ذريريد فيما معناه :

« يُريدُ أَنَّ البليغَ يبلُغُ بَيانِهِ ما يبلُغُهُ السَّاحِرُ في لُطافةِ حِيلَتِهِ » (٤) .

(١) المُجَاجُ : ما سألَ مِنَ الفَمِّ .

(٢) « مفتاح دار السعادة » .

(٣) أخرجه البخاري (٥١٤٦) و (٥٧٦٧) .

(٤) « المجتبى » (ص ١١) .

وقال العلامة عبد الرّخمن بن حسن آل الشيخ - رحمه الله :-

« قوله : « إنَّ من البيان لَسِحْرًا » هذا من التَّشْبِيهِ البَلِيغِ لكون ذلك يعمل عَمَلَ السَّاحِرِ ، فيجعل الحقَّ في قالبِ الباطلِ ، ويجعل الباطلَ في قالبِ الحقِّ ، فيستميل به قلوبَ الجُهَّالِ ، حتَّى يقبلوا الباطلَ ، ويُنكروا الحقَّ ، ونسأل الله الثَّباتَ والاستقامةَ على الهدى ، وأمَّا البيانُ الذي يوضِّحُ الحقَّ ويُقرِّره ، ويُبطلُ الباطلَ ويُبَدِّلهُ ، فهذا هو الممدوحُ » (١) .

وقال الخطابي - رحمه الله :-

« البيانُ اثنان : أحدهما ما تَقَعُ به الإبانةُ عن المرادِ بأيِّ وجهٍ كان ، والآخرُ ما دَخَلَتْهُ الصَّنَعَةُ بحيثُ يروقُ للسامعينَ ، ويستميلُ قلوبهم ، وهو الَّذي يُشَبِّهُ بالسَّحْرِ إذا خلب القلبَ ، وغلبَ على النَّفسِ ، حتَّى يحولُ الشيءَ عن حقيقته ، ويصرفه عن جهته ، فيلوحُ للنَّاظرِ في معرضٍ غيره ، وهذا إذا صُرِفَ إلى الحقِّ يُمَدِّحُ ، وإذا صُرِفَ إلى الباطلِ يُمَدِّمُ » (٢) .

عن أمِّ سلمةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَحَنَ (٣) بِحِجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَأُقْضَى عَلَيَّ نَحْوُ مَا أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ ؛ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ » (٤) .

قال ابن حجر - رحمه الله - معلقًا على هذا الحديث :

« وفي هذا الحديث من الفوائد إثمُ مَنْ خَاصَمَ في باطلٍ ، حتَّى استحقَّ به

(١) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد (ص ٣٥٣) .

(٢) الفتح (١/٣٤٨) .

(٣) ألحن : أعلم .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، واللفظ له (٢٤٥٨) ، و (٢٦٨٠) ، و (٦٩٦٧) ، و (٧١٦٩) ، و (٧١٨١) ،

و (٧١٨٥) ، ومسلم (١٧١٣) .

في الظاهر شيئاً هو في الباطن حرامٌ عليه .

إلى أن قال : « وفيه أن التعمق في البلاغة بحيث يحصل اقتدارٌ على تزيين الباطل في صورة الحق وعكسه مذمومٌ ، فإن المراد بقوله : أبلغ ، أي أكثر بلاغةً ، ولو كان ذلك في التوصل إلى الحق لم يذم ، وإنما يذم من ذلك ما يتوصل به إلى الباطل في صورة الحق » (١) .

وليس من البيان استخدام الغريب من الألفاظ ، أو التّعرُّ في الكلام (وهو أن يتكلم المرء بأقصى قعر فمه إظهاراً لفصاحته وبراعته) ، فذلك ممقوتٌ مذمومٌ؛ لما فيه من قصد التكلّف البعيد عن الطبع .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وإن أبغضكم إليّ ، وأبعدكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقاً : الثرثارون (٢) ، المتفهبون (٣) ، المتشدقون (٤) » (٥) .

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يبغض البليغ من الرجال ، الذي يتخلل بلسانه كما تخلل البقرة بلسانها » (٦) . وهو الذي يظهر التفاصح تيهًا على الغير ، وتفاصحًا واستعلاءً ، ووسيلة إلى الاقتدار في تصغير عظيم ، أو تعظيم حقير ، أو بقصد تعجيزه ، أو تزيين

(١) الفتح (١٣/١٨٦) .

(٢) الثرثار : هو كثير الكلام تكلّفًا فيما لا فائدة فيه .

(٣) المتفهبّي : أصله من الفهق ، وهو الامتلاء ، وهو الذي يملأ فمه بالكلام ، ويتوسّع فيه ، ويغرب به تكبرًا وارتفاعًا ، وإظهارًا للفضيلة على غيره .

(٤) المتشدق : المتطاول على الناس بكلامه ، التكلّم بملء فيه تفاصحًا وتعظيمًا لكلامه .

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠١٨) ، وأحمد (٤/١٩٣) ، وابن جبان (٤٨٢) ، وابن أبي شيبة (٨/٥١٥) والبخاري (٢٠١٨) ، وقال الهيثمي في المجمع (٨/٢١) : رجاله رجال الصحيح ، وحسنه الألباني في الصحيحة (٧٩١) .

(٦) أخرجه أبو داود (٥٠٠٥) والترمذي (٢٨٥٣) ، وأحمد (٢/١٦٥) ، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع (١/١٨٧٥) ، و الصحيحه (٨٨٠) .

الباطل في صورة الحق وعكسه، أو يقصد إجلال الحكام له، ووجهته، وقبول شفاعته، وهو يتشدد بلسانه كما تتشدد البقرة بلسانها، ووجه الشبه إدارة لسانه حول أسنانه وفمه حال التكلّم كما تفعل البقرة بلسانها حال الأكل، وهذا كله ما كان على جهة الإعجاب والتعظيم (١).

قال التّوّي - رحمه الله - : « يُكْرَهُ التّفْعِيرُ فِي الْكَلَامِ بِالتّشْدِيقِ ، وَتَكْلُفِ السّجْعِ ، وَالفصاحة ، وَالتّصْنِيعِ بِالمَقْدِمَاتِ الَّتِي يَعْتَادُهَا الْمُفَاصِحُونَ ، وَزخارف القول ، فَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ التّكْلُفِ المَذْمُومِ ، وَكذلك تَكْلُفِ السّجْعِ ، وَكذلك التّحرّي فِي دَقَائِقِ الإعرابِ ، وَوحشيّ اللّغَةِ فِي حَالِ مُخاطَبَةِ العوامِّ ، بل يَنْبَغِي أَنْ يَقْصِدَ فِي مُخاطَبَتِهِ لفظاً يفهمه صاحبه فهماً جلياً ، وَلا يَسْتَقِلَّهُ » (٢).

وليس معنى ذلك ألاّ يحرص المرء على حسن منطقه، ورشاقته لفظه، وجودة عبارته، فيلجأ إلى الألفاظ السوقية المبتذلة فراراً من التكلّف والتّعرّ بزعمه، وإنما المقصود ألاّ يُفْرَقَ فِي التّكْلُفِ ، فَيَتَعَدَّى حُدُودَ الذّوقِ ، وَإلّا فَإِنَّ حُسْنَ المنطقِ ، وَروعةَ البيانِ مِنْ مظاهرِ المُرُوءَةِ الصّادِقَةِ ، وَمِنْ أعْظَمِ الأسبابِ الدّاعيةِ لِقَبُولِ الحقِّ ؛ وَلهَذَا قِيلَ : « كَلِّمًا كَانَ اللّسَانُ أَيْبَنَ كَانَ أَحْمَدَ » (٣).

بل لقد ذكر الله تبارك وتعالى جميل بلائه في تعليم البيان، وعظيم نعمته في تقويم اللسان، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ ﴿ الرحمن : ١ - ٤ ﴾ ، وَقَالَ سبحانه وتعالى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ ﴿ آل عمران : ١٣٨ ﴾ ، وَمَدَحَ الْقُرْآنَ بِالْبَيَانِ وَالْإفْصَاحِ ، وَبِحُسْنِ التّفْصِيلِ وَالْإيضاحِ ، وَبِجُودَةِ الْإفْهَامِ ، وَحِكْمَةِ الْإِبْلَاحِ ، وَسَمَاءُ فُرْقَانًا كَمَا سَمَاءُ قُرْآنًا .

(١) انظر « فيض القدير » (٢/٢٨٣).

(٢) « الأذكار » (ص ٣٣١).

(٣) « البيان والتبيين » (١/١١).

وبالجُملة فليحرص المرءُ على تَجَنُّبِ السُّوقِيِّ القريب ، والوحشيِّ الغريب ؛
حتى يكونَ كلامُهُ حالاً بينَ حالين ، كما قال الشاعرُ :

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ الْأُمُورِ ؛ فَإِنَّهَا نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبُ ذُلُولًا وَلَا صَعْبًا (١)

قال أبو هلال العسكري: «وأجودُ الكلام ما يكون جزلاً سهلاً، لا ينغلقُ معناه ولا يُستبهمُ مغزاهُ، ولا يكونُ مكدوداً مُستكرهاً، ومتوعراً متقعرأ ، ويكونُ بريئاً من الغثائَةِ ، عارياً من الرثائَةِ ، والكلام إذا كان لفظُهُ غثاً ، ومعرضُهُ رثاً ، كان مردوداً ، لو احتوى على أجلِّ معنى وأنبه وأرفعه وأفضله » (٢) .

ومن هنا يتبيّن لك - أخي المحاور - أن المذمومَ من البيان إنما هو ما كان مُتكلِّفاً ، ومُشتملاً على التّعبير ، أمّا حُسنُ المنطقِ ، وجمالُ العبارة ، وحُسنُ الإشارةِ ، وإيضاحُ الدلالة ، وتصحيحُ الأقسامِ ، واختيارُ الكلامِ ، ورشاقةُ الألفاظِ ، وروعةُ البيانِ فمحمودٌ مرغوبٌ فيه ، بل هذا هو السُّحرُ الحلالُ ، ولا سيّماً إذا كان في بيانِ حقٍّ ، قال عمَرُ بنُ عبد العزيز لرجلٍ سأله حاجةً ، فأحسنَ المسألةَ ، فأعجبهُ قوله : « هذا - والله - السُّحرُ الحلالُ » (٣) .

قال ابن الرومي - وأحسن - :

وَحَدِيثُهَا السُّحْرُ الْحَلَالُ لَوْ أَنَّهَا
إِنْ طَالَ لَمْ يُمْلَلِ ، وَإِنْ هِيَ أَوْجَزَتْ
شَرِكُ الْعُقُولِ وَنَزْهَةٌ مَا مِثْلُهَا
دُرٌّ تَعِيشُ الْأَذَانُ فِي نَغَمَاتِهَا

بِمَطَرِ عَذْبٍ وَغَيْرِ مَطَرِ (٤)

(١) « العمدة » (٢/٢٦٦) .

(٢) « كتاب الصنائع » (ص ٦٧) .

(٣) « بهجة المجالس » لابن عبد البر (١/٥٧) ، و« التمهيد » (١٧٤) ، و« أدب المجالس » .

(٤) « الأمالي » (١/١١٥) ، و« نهاية الأدب » (٢/٧١) ، و« أدب المجالس » (ص ١٢٦) ، وفي ديوانه :

« لو أنه لم يحب » ، و« التمهيد » (٥/١٧٥) .

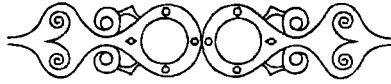
وقال يوسف بن هارون:

نطقت بسحرٍ بعدها غير أنه
كذلك ابن سيرين بنفسه يوسف
من السحر ما لم يختلف في حلاله
تكلم في الرؤيا بمثل مقالهِ (١)
وتنظر معاوية إلى ابن عباس رضي الله عنه فاتبعته بصره ، ثم قال متملاً :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل
يصرف بالقول اللسان إذا أنتحى
مُصِيبٌ ولم يثن اللسان على هُجْرٍ (٢)
وينظر في أعطافهِ (٣) نظر الصقر (٤)
ولحسان بن ثابت في ابن عباس رضي الله عنه قوله :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل
شقى وكفى ما في النفوس فلم يدع
بمنطلقات لا ترى بينها فصلاً
لذي إربة (٥) في القولِ جداً ولا هزلاً (٦)

قال ابن عبد البر - رحمه الله - : « ومن أحسن ما قيل في مدح البلاغة من
النظم قول حسان في ابن عباس رضي الله عنه :
صموت إذا ما الصمت زين أهله
وعى ما وعى القرآن من كل حكمة
وفتاق أبقار الكلام المخبث
ونيطت له الآداب باللحم والدم » (٧)



(١) التمهيد (١٧٥/٥) .

(٢) هجر - بضم الهاء - : التبيح من القول .

(٣) الأعطاف : جمع عطف ، وهو الجانب .

(٤) التمهيد (١٧٥/٥) .

(٥) إربة : حاجة .

(٦) بهجة المجالس ، لابن عبد البر (٥٨/١) ، و التمهيد (١٧٩/٥) .

(٧) التمهيد (١٧٨/٥) .

دَوْرُ الْأَمْثَلَةِ فِي الْحَوَارِ

أيُّ أَخِي ، إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ الْإِسْتِغْنَاءَ عَنِ الْأَمْثَلَةِ ، وَكَيْفَ تَسْتَغْنِي عَنْهَا وَهِيَ أَنْجَحُ مُطْلَبًا ، وَأَقْرَبُ مَذْهَبًا لِتَوْضِيحِ الْفِكْرَةِ ، وَتَقْرِيبُ الْمَعَانِي ، وَشَرْحِهَا بِالنَّظَائِرِ وَالْأَشْبَاهِ وَالْأَشْكَالِ ؟ ! ، وَكَيْفَ تَسْتَغْنِي عَنْهَا وَهِيَ تُسَاعِدُكَ عَلَى الْوَصُولِ إِلَى الْحَقِّ بِأَقْرَبِ الطَّرِيقِ مَعَ نَزْهَةِ الْبَالِ ، وَتَرْوِيحِ الْخَاطِرِ ، وَحُسْنِ مَوْقِعِهَا فِي الْقُلُوبِ وَالْأَسْمَاعِ ، بِمَا لَا يَكَادُ الْكَلَامُ الْمُرْسَلِ يَبْلُغُ مَبْلَغَهَا ، وَلَا يُؤَثِّرُ تَأْثِيرَهَا ؟ ! ، وَلِهَذَا قِيلَ : « الْمَثَلُ أَعْوَنُ شَيْءٍ عَلَى الْبَيَانِ » ، وَقِيلَ : « فَالضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَ الضِّدِّ » .

وقال المتنبي :

وَنَذِيهِمْ^(١) وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُ
وَبِضِدِّهَا تَبَيَّنَ الْأَشْيَاءُ^(٢)

وَنظَرًا لِأَهْمِيَّةِ الْمَثَلِ وَخَطُورَتِهِ ، فَقَدْ ضَرَبَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلنَّاسِ فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ نَضَرْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الرُّومُ : ٥٨] ، وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضَرْنَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ (٤٣) [العنكبوت : ٤٣] .

وَتَجَدُّ الرَّسُولَ ﷺ يَضْرِبُ أَرْوَاعَ الْأَمْثَلَةِ فِي حَدِيثِهِ ، وَلَوْ تَبَعْنَا ذَلِكَ لَخَرَجْنَا بِكَرَارِسٍ ، وَلَكِنْ أَكْتَفِي بِمَثَالَيْنِ ، كَمَا قِيلَ : « يَكْفِيكَ مِنَ الزَّادِ مَا يَبْلُغُكَ الْمَحَلَّ » .

فَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ ،

(١) نَذِيهِمْ : نَذِيهِمْ .

(٢) ديوان المتنبي (١/٢٢) .

وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ « (١) .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثل الأنبياء كما قال نبي داراً ، فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ^(٢) ، فجعل الناس يدخلونها ، وينمجبون ، ويقولون : لولا موضع اللبنة ^(٣) . »

ففي هذين الحديثين الشريفين ضرب النبي صلى الله عليه وسلم المثالين لتقريب المعاني إلى الأفهام ، قال الحافظ ابن حجر معلقاً على الحديث الثاني : « وفي الحديث ضرب الأمثال للتقريب للأفهام ^(٤) . »

ومن خلال هذه النماذج وأمثالها يتأكد لنا أن القرآن الكريم ، والسنة النبوية يعتمدان اعتماداً كبيراً على الأمثلة في توضيح المواقف ، وجلاء الحقائق ، وهداية العقل ، وما من باب من فنون العلم إلا وله منها نصيب بقدر أهميته ، فما أحوجتنا إلى العودة إلى تلك الثمار اليانعة ، والدلائل الباهرة ، نجنيها ونحذو حذوها ، ونسير في ظلال هديها ، وأريج نسيمها ، إنها دلائل خير من لدن رب حكيم خبير .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمْ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٥١) ﴿ الْقَصَصُ : ٥١ ﴾ ، وهنا فائدة في آداب الأمثلة ، لعل الله ينفعك بها ، لكن لا تظن أنني سوف أفرغ لك ما في جعبتي ، فما كل ما يلمع ذهباً ، ورحم الله القائل :

وما كُنْ نارِ نارِ مُوسَى مُهْتَدٍ ولا كُلُّ بَرِّقٍ فِي الثِّقَالِ الْهَوَاضِبِ

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٧) .

(٢) اللبنة : هي التي يبنى بها الجدار .

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٣٤) ، ومسلم (٢٢٨٧) .

(٤) الفتح (٥٥٩/٦) .

وها هي الفائدة دُونَكَ ، وَعَلَيْكَ مَهْرُهَا :

قال الإمام الماوردي - رحمه الله - في بيان آداب الكلام: « وَمِنْ آدَابِهِ أَنْ يَجْتَنِبَ
أَمْثَالَ الْعَامَّةِ الْغَوْغَاءِ ^(١) ، وَيَتَخَصَّصَ بِأَمْثَالِ الْعُلَمَاءِ الْأَدْبَاءِ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ صَنْفٍ
مِنَ النَّاسِ أَمْثَالًا تُشَارِكُهُمْ ، فَلَا تَجِدُ لِسَاقِطٍ إِلَّا مَثَلًا سَاقِطًا ، وَتَشْبِيهَا مُسْتَقْبَحًا .
وَلِلْسُقَاطِ أَمْثَالٌ ، فَمِنْهَا تَمَثَّلُهُمُ لِلشَّيْءِ الْمُرِيبِ ، كَمَا قَالَ الصَّنُوبِرِيُّ :
إِذَا مَا كُنْتَ ذَا بَوْلٍ صَحِيحٍ أَلَا فَاضْرِبْ بِهِ وَجَهَ الطَّبِيبِ
وَلِذَلِكَ عَاتَانُ :

إحداهما : أَنَّ الْأَمْثَالَ مِنْ هَوَاجِسِ الْهَمِّ وَخَطَرَاتِ النَّفُوسِ ، وَلَمْ يَكُنْ
لِذِي الْهَمَّةِ السَّاقِطَةَ إِلَّا مَثَلٌ مَرْدُولٌ ، وَتَشْبِيهُ مَعْلُولٌ .
وَالثَّانِيَةَ : أَنَّ الْأَمْثَالَ مُسْتَخْرَجَةٌ مِنْ أَحْوَالِ الْمُتَمَثِّلِينَ بِهَا ، فَبِحَسَبِ مَا هُمْ
عَلَيْهِ تَكُونُ أَمْثَالُهُمْ .

فَلِهَاتَيْنِ الْعِلَّتَيْنِ وَقَعَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَمْثَالِ الْخَاصَّةِ وَأَمْثَالِ الْعَامَّةِ ، وَرَبِّمَا أَلْفَ
الْمُتَخَصَّصُ مَثَلًا عَامِيًا ، أَوْ تَشْبِيهَا رَكِيكًا لِكثْرَةِ مَا يَطْرُقُ سَمْعُهُ مِنْ مُخَالَطَةِ
الْأَرَاذِلِ ، فَيَسْتَرْسِلُ فِي ضَرْبِهِ مَثَلًا ، فَيَصِيرُ بِهِ مَثَلًا ، كَالَّذِي حَكِيَ عَنِ
الْأَصْمَعِيِّ أَنَّ الرَّشِيدَ سَأَلَهُ يَوْمًا عَنْ أَنْسَابِ بَعْضِ الْعَرَبِ ، فَقَالَ : عَلَى الْخَيْرِ
سَقَطَتْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ : اسْقَطَ اللَّهُ جَنَبِيكَ ،
أَتُخَاطَبُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَثَلِ هَذَا الْخَطَابِ ؟ ! .

وَكَانَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ - مَعَ قَلَّةِ عِلْمِهِ - أَعْلَمُ بِمَا يُسْتَعْمَلُ مِنَ الْكَلَامِ فِي
مُحَاوَرَةِ الْخُلَفَاءِ مِنَ الْأَصْمَعِيِّ الَّذِي هُوَ وَاحِدٌ عَصْرِهِ ، وَقَرِيبٌ دَهْرِهِ .
وَلِلْأَمْثَالِ مِنَ الْكَلَامِ مَوْقِعٌ فِي الْأَسْمَاعِ ، وَتَأْتِيهِ فِي الْقُلُوبِ ، لَا يَكَادُ

(١) الْغَوْغَاءُ : سَقَطَ النَّاسُ وَمَهْلَهُمْ .

الكلام المرسل يبلِّغُ مَبْلَغَهَا ، ولا يُؤثِّرُ تَأثيرَهَا ؛ لأنَّ المعانيَ بها لائِحَةٌ والشواهِدَ بها واضِحَةٌ ، والنَّفوسَ بها وامِقةٌ ^(١) ، والقُلُوبَ بها واثِقَةٌ ، والعُقُولَ لها موافِقَةٌ ؛ فلذلك ضَرَبَ اللهُ الأمثالَ في كتابه العزيز ، وجَعَلَهَا من دلائلِ رُسُلِهِ ، وأوضَحَ بها الحُجَّةَ على خَلْقِهِ ؛ لأنَّها في العُقُولِ مَعقُولَةٌ ، وفي القُلُوبِ مقبُولَةٌ .
ولها أربعةُ شُرُوطٍ :

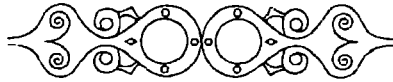
أحدها : صِحَّةُ التَّشْبِيهِ .

والثَّاني : أنْ يَكُونَ العِلْمُ بها سابِقًا ، والكُلُّ عليها موافِقًا .

والثَّالثُ : أنْ يُسْرِعَ وصولها للفَهْمِ ، ويعجِّلَ تصوُّرها في الوهْمِ من غير ارتيائٍ في استخراجها ، ولا كَدًّا في استنباطها .

والرَّابِعُ : أنْ تُناسِبَ حالَ السَّامِعِ ؛ لتكونَ أبلَغَ تأثيرًا ، وأحسَنَ موقِعًا .

فإذا اجتمعتْ في الأمثالِ المضروبةِ هذه الشُّرُوطُ الأربعةُ ، كانتْ زينةً للكلامِ ، وجلاءً للمعاني ، وتدبيرًا للأفهامِ ^(٢) .



(١) وامِقةٌ : مُجِبَّةٌ ، يُقالُ : وَمَقَهُ بِمَقَّةٍ مَقَّةً ، إذا أَحَبَّهُ فهو وامِقٌ .

(٢) « أدبُ الدُّنيا والدِّينِ » (ص ٢٨٥-٢٨٦) ، وقد أثرتْ نُقلُ كلامِهِ هذا على طُولِهِ لِنَفسِهِ .

لكل مقام مقال

لكل مقام مقال ، ولكل مناسبة حال ، وليس كل ما يُسمع يُقال ، وخير الكلام ما وافق الحال .

قال الشاعر:

تَرَفَّقْ عَلَيَّ - هَذَاكَ الْمَلِيكَ -
فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا
قال الإمام الشاطبي - رحمه الله - : « ليس كل ما يُعلم مما هو حق يُطلب نشره ، وإن كان من علم الشريعة ، ومما يُفيد علماً بالأحكام ، بل ذلك ينقسم : منه ما هو مطلوب النشر - وهو غالب علم الشريعة - ، ومنه ما لا يطلب نشره بالنسبة إلى حال ، أو وقت ، أو شخص » (١) .

فعليك - أخي الحبيب - أن تنظر للظروف الثلاثة التي ذكرها الشاطبي قبل أي حوار .

والظروف الثلاثة هي :

١ | المكان : وقد عبّر عنه بالحال .

٢ | الزمان : وقد عبّر عنه بالوقت .

٣ | الإنسان : وقد عبّر عنه بالشخص .

أولاً : المكان :

قد يكون نادياً عاماً ، أو بيت صديق ، أو مكتب عمل ، وقد يكون طيارةً ، أو سيارةً ، أو نزهةً ، فلا بُدَّ أن تُراعى المكان المناسب ، فلو جاءك إنسان - مثلاً - وقال لك : عندي مشكلة ، وكنتما على ممر ضيق يمر به الناس ، أو

(١) « الموافقات » (٤/١٨٩ - ١٩٠) .

شارعٍ تقفُ معه فيه ، فهل هذا المكان مُناسبٌ للحوارِ ، أم أنه لأبدٌ أن تختارَ مكانًا مُناسبًا يشعرُ فيه مُحاورك بالتقديرِ ؟ .

ومن ذلكَ أن يكونَ الحوارُ في مسجدٍ ، فهذا يتطلبُ قدرًا كبيرًا من الحكمةِ والهدوءِ ، وقدرًا كبيرًا من العلمِ ، ولأسيما إذا كان الحوارُ عامًا ، طالما أن في بعضِ المساجد طوائف ذات أهواء ومشارب ، فإذا كُنت تُحاور شخصًا معينًا ، فما تكادُ تظهرُ عليه إلا وتجدُ شخصًا آخر قد أخذَ دَفَّةَ الحوارِ ذات اليمينِ وذات الشمالِ ، وهكذا دواليك ، والأمرُ كما قيل :

ولو كانَ سَهْمًا واحدًا لَاتَّقَيْتُهُ
ولكنَّهُ سَهْمٌ ، وثانٍ ، وثالثٌ
وإن كانَ الحوارُ في مكانٍ مليءٍ بالناسِ ، فذلكَ مدعاةٌ للرياءِ والعنادِ ، والحرصُ على الغلبةِ والإطاحةِ بالخصمِ ، فمن الأفضلِ أن يكونَ الحوارُ في مكانٍ مُحدّدٍ ؛ فذلكَ أجمعٌ للفكرةِ ، وأدعى لقبولِ الحقِّ ، وأسلمٌ لحسنِ القصدِ .
ثانيًا : الزَّمان :

من حيثُ اتَّساعِهِ للموضوعِ ، وذلكَ بالأبداً يكونَ الحوارُ في وقتٍ لا يتسعُ للأخذِ والردِّ ، كأن يكونَ قبيلَ وقتِ الصلاةِ ، أو يكونَ أحدهما على جناحِ سفرٍ ، أو يكونَ مستعداً للنومِ ، أو قد يكونَ قادمًا من سفرٍ في حالة إرهاقٍ نفسيٍّ فيحتاجُ للراحةِ ، أو نحو ذلكِ .

فالأبداً من تهيئةِ الجوِّ المناسبِ ، وذلكَ بأن تُحدّدَ الوقتَ والمكانَ والموعِدَ ؛ حتّى يشعرُ مُحاورك أنكَ أعطيتَه اعتبارَه وأهميَّته ، فتكسبُ ثقته ، وتستعبدُ قلبه ويكونُ تأثيرك فيه عظيمًا .

وقد يكونَ الزَّمانُ زمانَ بدعٍ ، أو جورٍ سلطانٍ ، أو غلبةِ باطلٍ ، فهذا يتطلبُ قدرًا من الحكمةِ والتفطنِ ؛ حتّى لا تُشوشَ على العامةِ ، فتحدثُ نكبةً تكونُ أنتَ سببها .

قال الشاعر:

وإنَّ كَلامَ المرءِ في غيرِ كُنهِهِ كالنَّبلِ (١) تهوي ليسَ فيها نِصَالُها (٢)
ثالثًا: الإنسان :

لأبدٍ من مراعاة حالة الحضور ، هل هم على مستوى الحوار ، أم أعلى ،
أم أدنى ؟ ، فالناس ليسوا طرزًا واحدًا ، والعقولُ متفاوتة ، والأفهامُ تتباينُ ،
ولأبدٍ من مراعاة هذا التباينِ ، وذلك التفاوت .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « ليسَ كُلُّ ما عرفه الإنسانُ أمكنهُ تعريف غيره
به ؛ فلهذا كان النَّظَرُ أوسعَ من المناظرة ، فكلُّ ما يُمكنُ المناظرة به يُمكنُ النَّظَرُ
فيه ، وليسَ كُلُّ ما يُمكنُ النَّظَرُ فيه يُمكنُ مناظرة كُلِّ أحدٍ به » (٣) .

فلا بُدَّ للمحاور من الاقتصار على قدرِ فهمِ السامعِ ، فقد قيل : « كلُّ لُكُلٍ
عبدٌ بمعيارِ عقلِهِ ، ووزنُ له بميزانِ فهمِهِ ؛ حتى تَسَلَّمَ منه ، ويتنفعَ بك ، وإلَّا
وقعَ الإنكارُ لتفاوتِ المعيارِ » (٤) .

وعرَّفَ العلماءُ البلاغةَ بأنَّها: مُطابِقةُ الكلامِ لمُقْتضى حالِ السامعينِ (٥) .

واللهُ تبارك وتعالى ، أمرَ نبيِّهِ ﷺ بمراعاةِ الأحوالِ والأشخاصِ ، ثمَّ
اختيارِ الوسيلةِ والأسلوبِ المناسبِ لهم .

قال اللهُ تبارك وتعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ .
وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

(١) النَّبَلُ : واحد النَّبَال ، وهي السَّهْمُ العربيَّة .

(٢) النَّصَالُ : واحدها نِصْلٌ ، وهو الحديدية التي في رأسِ السَّهْمِ ، ويجمع - أيضًا - على أَنْصَلٍ .

(٣) « الفتاوى » (٣/٣١٢٥) .

(٤) « الإحياء » (١/٧١) .

(٥) « بغية الإيضاح » (١/٢٦) .

قال ابن القيم في تفسير هذه الآية : « جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، مراتبَ الدَّعْوَةِ بِحَسَبِ مَرَاتِبِ الخَلْقِ ، فالمستجيب الذَّكِيُّ الذي لا يُعَانِدُ الحقَّ ولا يَأْبَاهُ يُدْعَى بِطَرِيقَةِ الحِكْمَةِ ، والقابل الذي عنده نوعُ غَفْلَةٍ وتأخُّرٍ يُدْعَى بالموعظة الحسنة (وهي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب) ، والمُعَانِدُ الجاحِدُ يُجَادَلُ بِالتِّي هي أَحْسَنُ » (١) .

ولقد حذَّرَ سَلَفُنَا الصَّالِحُ من تَحْدِيثِ النَّاسِ أو مُنَاطَرَتِهِم فيمَا لا تُدْرِكُهُ عقولهم .

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : « ما أنت بمُحَدِّثٍ قَوْمًا حديثًا لا تَبْلُغُهُ عقولهم إلاَّ كان لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ » (٢) .

وقال عزوة بن الزبير رضي الله عنه : « ما حَدَّثْتَ أَحَدًا بشيءٍ من العِلْمِ قَطُّ لا يَبْلُغُهُ عَقْلُهُ إلاَّ كان ضَلَالَةً عَلَيْهِ » (٣) .

وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه : « حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، وَدَعُوا مَا يُنْكِرُونَ ؛ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ » (٤) .

ومعنى يَعْرِفُونَ : يَفْهَمُونَ ، والمُرَادُ بقوله : يُنْكِرُونَ : ما يَشْتَبِهُ عَلَيْهِم فَهْمُهُ (٥) .

قال صاحبُ عَمْدَةِ القَارِئِ - رحمه الله - : « أمر علي رضي الله عنه في قوله هذا بمراعاة مُسْتَوَى فَهْمِ النَّاسِ عِنْدَ التَّحَدُّثِ إِلَيْهِمْ ، وَبَيْنَ ما يَتَرْتَّبُ عَلَيَّ عَدَمِ مُرَاعَاتِهِ مِنْ

(١) « التفسير القيم » (ص ٣٤٤) .

(٢) مُقَدِّمَةٌ صحيح مسلم (١١/١) .

(٣) « سير أعلام النبلاء » (٤/٤٣٧) .

(٤) أخرجه البخاري مُعَلَّقًا حيث قال : « باب مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةَ الأَبْهَمِيَّةِ » الفتح

(١/٢٢٥) .

(٥) الفتح (١/٢٢٥) .

تكذيبِ الله تعالى ورسوله ﷺ ؛ لأنَّ الشَّخْصَ إِذَا سَمِعَ مَا لَا يَفْهَمُهُ ، وَمَا لَا يَتَصَوَّرُ إِمكانَهُ ، يَعْتَقِدُ اسْتِحْالَتَهُ جَهْلًا ، فَلَا يُصَدِّقُ وَجُودَهُ ، فِإِذَا أُسْنِدَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ يَلْزَمُ تَكْذِيبَهُمَا « (١) .

وقال الحافظُ ابنُ حجرٍ - رحمه الله - مُعَلِّقًا عَلَى قولِ عليٍّ رضي الله عنه : « وفيه دليلٌ على أنَّ المُتَشَابِهَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُذَكَّرَ عِنْدَ الْعَامَّةِ » (٢) .

ومن اللطائفِ: أنَّ أحدهم سألَ الخليلَ بنَ أحمدَ الفراهيديَّ - رحمه الله - عن مسألة ، فأطرقَ مليًّا (٣) فتعجَّبَ السائلُ ، وقال له : « إنَّ هذه المسألةَ لا تحتاجُ لكلِّ هذا » ، فقال له الخليلُ : « قد علمتُ مسألتك ، وعلمتُ جوابها ، ولكنني أفكرُ في جوابٍ أسرعَ لفهمك ، فأعنياني (٤) ذلك » .

وعليه إذا استطاعَ المحاور أن يلاحظَ الظرفَ المناسبَ في هذه الجهاتِ الثلاثِ ، أخلصَ النيةَ ، ودخلَ في الحوارِ ، وإلَّا سكتَ أو تريتَّ .

قال ابنُ القيمِ - رحمه الله - : « وضابطُهُ أَنَّكَ تَعْرِضُ مَسْأَلَتَكَ عَلَى الشَّرِيعَةِ ، فَإِنْ صَحَّتْ فِي مِيزَانِهَا ، فَانظُرْ إِلَى مَا لَهَا إِلَى حَالِ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ ، فَإِنْ لَمْ يُؤدِّ ذِكْرُهَا إِلَى مَفْسَدَةٍ ، فَأَعْرِضْهَا فِي ذَهْنِكَ عَلَى الْعَقُولِ ، فَإِنْ قَابَلَتْهَا فَلَكَ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِيهَا ، إِمَّا عَلَى الْعَمُومِ إِنْ كَانَتْ مِمَّا تَقْبَلُهُ الْعَقُولُ ، وَإِمَّا عَلَى الْخُصُوصِ إِنْ كَانَتْ غَيْرَ لائِقَةٍ بِالْعَمُومِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِمَسْأَلَتِكَ هَذَا الْمَسَاغُ ، فَالسُّكُوتُ عَنْهَا هُوَ الْجَارِي وَفَقِ الْمَصْلَحَةَ الشَّرْعِيَّةَ وَالْعَقْلِيَّةَ » (٥) .

(١) « عمدة القارئ » (٢٠٥/٢) .

(٢) الفتح (٢٢٥/١) .

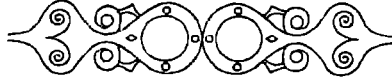
(٣) مليًّا : وقتًا طويلاً .

(٤) أعنياني : أعجزني .

(٥) « أعلام الموقعين » (١٦٣/٤) .

قال عبد الكريم العماد :

إِذَا شِئْتَ يَوْمًا مَنطِقًا فَاحْتَرِزْ لَهُ
فَكَمْ مِنْ فَتَى فِي قَلْبِهِ الْعِلْمُ زَاخِرٌ
وَرُبَّ فَتَى قَدْ حَارَ عِلْمًا وَمَنطِقًا
مَتَى ثُمَّ مَاذَا ثُمَّ كَيْفَ سَتَنْطِقُ
وَلَكِنَّهُ فِي سَاحَةِ الْقَوْلِ يُخْفِقُ
فَهَذَا لَهُ فَخْرٌ ، وَذَلِكَ رَوْنُقُ



الكلمة الطيبة

يا لله كم للكلمة الطيبة من أثرٍ في النفوس ! ، وكم لها من وقعٍ في القلوب ، فكم من مودةٍ استجلبت بها ! ، وكم من عداوةٍ وئدت بسببها !! .
قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ (٥٣) { الإسراء : ٥٣ } .

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية : « يأمر - تبارك وتعالى - عبدهُ ورسوله ﷺ أن يأمرَ عبادَ الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومُحاورتهم الكلامَ الحسنَ ، والكلمة الطيبة ؛ فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنَهُمْ ، وأخرج الكلامَ إلى الفُعالِ ، ووقع الشرُّ والمُخاصمةُ والمقاتلةُ ؛ فإنه عدوٌّ لآدمَ وذُرِّيَّتِهِ من حين امتنعَ عن السُّجودِ لآدمَ ، وعداوتُهُ بيْنَهُ » (١) .
وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ { البقرة : ٨٣ } .

قال العلامة السعدي في تفسير هذه الآية : « ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر ، وتعليمهم العلم ، وبذلِّ السَّلامِ والبشاشةِ ، وغير ذلك من كُلِّ كلامٍ طيبٍ ، ولَمَّا كانَ الإنسانُ لا يَسَعُ النَّاسَ بِمالِهِ أَمْرًا بِأمرٍ يقدر به على الإحسان إلى كُلِّ مخلوقٍ ، وهو الإحسان بالقول ، فيكون ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح حتى للكفار » (٢) .

وقال الله سبحانه وتعالى لموسى ﷺ عندما بعثه إلى فرعون : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (٤٤) .

{ طه ٤٣ - ٤٤ }

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٣/٤٥) .

(٢) « تيسير الكريم الرحمن » (ص ٥٧) .

وفي الآية الأخرى قال : ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴿ النَّازِعَات : ١٧ - ١٩ ﴾ .

قال ابن القيم - رحمه الله - : « وتأمل امتثال موسى لما أمر به ، كيف قال لفرعون : ﴿ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ ، فأخرج الكلام معه مخرج السؤال والعرض ، لا مخرج الأمر ، وقال : ﴿ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ﴾ ، ولم يقل : إلى أن أزكّيك ، فنسب الفعل إليه هو ، وذكر لفظ التزكّي دون غيره ؛ لما فيه من البركة والخير والنماء ، ثم قال : ﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ، أكون كالدليل بين يديك الذي يسير أمامك ، وقال : ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ ؛ استدعاءً لإيمانه بربه الذي خلقه ورزقه ورباه بنعمه صغيراً وكبيراً » (١) .

فانظر - أخي الحبيب - في تلك الكلمات النيرات المباركات الطيبات التي تأخذ باللب ، وتنفذ إلى شغاف القلب (٢) ، لولا أنها وجدت قلباً قاسياً عاتياً مارداً ، تشرب الكفر والطغيان ، لاأثرت به ، وقادته إلى الهدى والرشاد .

ولقد اجاد من قال - واحسن - :

بِاللّهِ لَفُظُكَ هَذَا سَالَ مِنْ عَسَلٍ أَمْ قَدْ صَيَّبَتْ عَلَيَّ أَفْوَاهُنَا الْعَسَلَا؟!
أَمْ الْمَعَانِي اللَّوَاتِي قَدْ أَتَيْتَ بِهَا بِهَا الدَّرَارِي وَالْيَاقُوتُ مُتَّصِلَا؟!

وكذلك قول إبراهيم الخليل لأبيه : ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ .

﴿ مريم : ٤٢ - ٤٥ ﴾ .

(١) « البدائع » (٣/١٣٢) .

(٢) شِغَافُ الْقَلْبِ : غِشَاؤُهُ وَغِلَافُهُ .

قال ابن القيم - رحمه الله - معلقاً على هذه الآيات :

« فابتدأ خطابه بذكر أبوته الدالة على توقيره ، ولم يُسمِّه باسمه ، ثم أخرج الكلام معه مخرج السؤال ، فقال : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ ، ولم يقل : لا تعبد .

ثم قال : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ ، فلم يقل : إِنَّكَ جاهلٌ لا علمَ عندك ، بل عدلَ عن هذه العبارة إلى اللفظِ عبارة تدلُّ على هذا المعنى ، فقال : ﴿ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ (٤٥) ، فنسب الخوف إلى نفسه دون أبيه ، كما يفعل الشفيق الخائف على من يُشفقُ عليه ، وقال : ﴿ يَمَسُّكَ ﴾ فذكرَ لفظَ المسِّ الذي هو اللطفُ من غيره ، ثم نكَّرَ العذاب ، ثم ذكرَ الرَّحْمَنَ ، ولم يذكر الجبار ولا القهار ، فأيُّ خطابِ اللطفِ واللينِ من هذا ١٩ « (١) .

وإذا كان القول الحسن يجمُلُ مع كلِّ أحدٍ ، فمن باب أولى أن يجمُلَ مع من له حقٌّ ، أو جاهٌ ، أو رياسةٌ ، فهكذا كان رسول الله ﷺ يُخاطبُ رؤساء العشائر والقبائل .

قال ابن عقيل الحنبلي في الواضح : « وإن كان أعلى فليتحرَّ ويتجنب القول له : هذا خطأ أو غلطٌ ، أو ليس كما تقول ، بل يكون قوله : أرايتَ إن قال قائلٌ : يلزمُ على ما ذكرتَ كذا ، وإن اعترض على ما ذكرتَ معترضٌ بكذا ؟ ؛ فإن نفوس الكرام الرؤساء المقدمين تأبى خُسونة الكلام ؛ إذ لا عادة لهم بذلك ، وإذا نُفرت عميت القلوبُ ، وجمدت الخواطرُ ، وانسدَّت أبواب الفوائد بسفهِه السفِيهِه ، وتقصير الجاهل في حقوقِ الصدورِ » (٢) .

(١) « البدائع » (١٣٣/٣) .

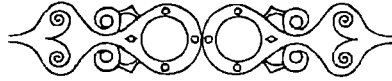
(٢) « شرح الكواكب المنيرة » (ص ٣٧٩) .

وقال بدر الدين بن جماعة - رحمه الله - في بيان آداب الطلِّب مع شيخه : « ولا يقولُ لما رآه الشيخ - وكان خطأ - : هذا خطأ ، ولا هذا ليس برأي ، بل يُحسِّنُ خطابهُ في الردِّ إلى الصَّوابِ ، كقوله : يظهر أنَّ المصلحة في كذا ، ولا يقولُ : الرَّأيُ عندي كذا ، وشبه ذلك » (١) .

وما اجملَ ما قاله يحيى بن معاذٍ - رحمه الله - : « أحسنُ شيءٍ كلامٌ رقيقٌ ، يُستخرجُ من بحرٍ عميقٍ على لسانِ رجلٍ رقيقٍ » (٢) .

ومن اللطائفِ ما ذكره الإمام السخاويُّ نقلًا عن المزنيِّ قوله : « سمعني الشافعيُّ يوماً وأنا أقولُ : فلانُ كذابٌ ، فقال لي : يا إبراهيمُ ، اكسُ ألفاظك أحسنها ، لا تقلُ : كذابٌ ، ولكن قلُ : حديثه ليس بشيءٍ » (٣) .

فاحذرْ أخي المحاور من سقطاتِ فمك ، وعثراتِ لسانك ، فقد تُؤدِّي بحوارك إلى الضَّاعِ والفشلِ الذريعِ ! .



(١) « تذكرة السَّامعِ والمتكلِّمِ » (ص ١١٢) .

(٢) « بهجة المجالس للأثري » .

(٣) « الإعلان بالتَّوْبِيخِ لِمَنْ ذَمَّ التَّارِيخِ » (ص ٦٨-٦٩) .

حَاوِرُهُ بِاسْمِهِ (أَيَّاكَ أَنْ تَنْسِيَ اسْمَ مُحَاوِرِكَ)

إذا تعارفتَ على شَخْصٍ بَيْنَ أَنْاسٍ ، ثُمَّ انْفَضَّ النَّاسُ مِنْ حَوْلِكَ ، لتجلس بجوارِ الشَّخْصِ نَفْسَهُ ، فُتْنَادِيهِ : يَا أَبَا فُلَانٍ ، أَوْ يَا فُلَانُ ، لِأَقْبَلَ عَلَيْكَ مُسْتَبْشِرًا مَتَهَلِّلًا ، وَلِسَانُ حَالِهِ : لَيْتَكَ وَسَعْدَيْكَ .

وإذا التقيتَ بِالشَّخْصِ الَّذِي تَعَارَفْتَ عَلَيْهِ سَابِقًا ، وَقَالَ لَكَ : يَا فُلَانُ ، هَلْ تَذَكُرُ اسْمِي ؟ ، أَوْ احْتَجَجْتَ أَنْ تُتَادِيَهُ ، أَوْ قَالَ لَكَ رَمِيْلَكَ : مَنْ يَكُونُ هَذَا الْآخِ ؟ ، لِأَصَبْتَ بِالْإِحْرَاجِ ، فَهَلْ ثَمَّةُ سِرٌّ ؟ .

نعم ، السِّرُّ أَنَّ حَفْظَكَ لِاسْمِ مُحَاوِرِكَ دَلِيلٌ عَلَى تَقْدِيرِكَ وَاحْتِرَامِكَ لِشَخْصِهِ ، فَلَيْسَ ثَمَّةُ شَيْءٍ أَجْمَلُ وَأَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ اسْمِهِ .

فَحَفْظُ الْأَسْمَاءِ لِأَبَدٍ مِنْهُ لِمَنْ يُحِبُّ التَّآلِفَ مَعَ النَّاسِ ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى اللَّهِ وَمُشَارَكَتِهِمْ وَمُخَالَطَتِهِمْ ، وَكَسْبُ وَدُهُمْ ، وَإِعْطَاءَهُمْ وَدَهُ .

لَكِنْ كَيْفَ يُمَكِّنُ حَفْظُ أَسْمَاءِ النَّاسِ ؟ .
هناك أربعُ خُطُواتٍ تُمَكِّنُكَ مِنْ حَفْظِ اسْمِ مَنْ التَّقَيْتَ بِهِ وَتَعَارَفْتَ عَلَيْهِ (١) :

[١] مَعْنَى الْاسْمِ :

بِمَجْرَدِ أَنْ يُذَكَّرَ لَكَ الْاسْمُ حَاوِلَ أَنْ تَجِدَ لَهُ مَعْنَى .

[٢] الْوَجْهَ :

أَيِ وَجْهِ الشَّخْصِ الَّذِي تَعَارَفْتَ عَلَيْهِ ، انظُرْ إِلَيْهِ جَيِّدًا ، وَاخْتَرْ جَانِبًا بَارِزًا مِنْهُ (الْأَنْفُ ، الْجَبْهَةُ ، الْعَيْنَيْنِ ، الذَّقْنُ . . . أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ) .

(١) انظر مجلة الغذاء العدد ٢٧ سبتمبر ٢٠٠٠ م ، مقال بعنوان « حلول علمية » .

[٣] ربط معنى الاسم بالوجه :

حاول أن تربط بين المعنى وعلامة الوجه المختارة ، إن لم تجد استخدم الخيال (أي خيالٍ حتّى ولو كان غريباً) .

[٤] التكرار :

كرّر في نفسك الاسم بالوجه بالمعنى لعددٍ من المرّات في المجلس نفسه ، ولنضرب لك مثلاً :

تعارفتَ على أخٍ ، وذكر لك اسمه سُكْرِي ، ابدأ بممارسة الأربع خطوات مباشرة :

- معنى الاسم : شكري من الشُّكْرِ ، الشُّكْرُ لله ، شكر النَّاسِ .

- الوَجْه : عيناه واسعتان وبرأقتان (هذه أبرد علامة) .

- ربط معنى الاسم بالوجه : معنى الاسم من الشُّكْرِ ، وعيناه واسعتان برأقتان ، يُمكن أن تربطَ بينهما بقولك : عَلَيْهِ أَنْ يَشْكُرَ اللهُ عَلَى هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ .

- التَّكْرَار : اسمه شكري ، عيناه واسعتان ، إذاً من شكري ، الشكر لله على العَيْنَيْنِ الواسعتين .

خلال المجلس - أو الحديث معه - حاول أن تُناديه باسمه : يا أخ شكري ، والله يا شكري ، وتذكّرْ أَنْ عَلَيْهِ أَنْ يَشْكُرَ اللهُ عَلَى الْعَيْنَيْنِ .

أكثر من حلّ :

قد يتعذّرُ عليك أن تجد للاسم معنىً ، أو تجد علامةً في الوجه ، لا عَلَيْكَ إِنَّ هُنَاكَ أَكْثَرَ مِنْ حَلٍّ ، ولكن ومع جميع الحلول إلا أن الفكرة واحدة ، وهي المعنى والرّبط ، أو الرّبط والتّشابه ، فمثلاً : تعارفتَ على شخصٍ اسمه أحمد ، لم تجد في وجهه ما يُميّزه ، أو ما يُمكن أن تمسك به ، لا عَلَيْكَ تذكّرْ أَشْهَرَ

إنسان تعرفه اسمه أحمد ، ليكن أحمد أخاك الصَّغِير ، ستجد عدداً من المفارقات، فمثلاً : وجدتَ أَنَّ أنفه كبير ، وأنف أخيك صغير ، إذا كرَّر : رغمَ أَنَّ اسمه أحمد إلاَّ أَنَّ أنفه كبير بعكس أحمد أخي ... كرَّر .

وماذا لو لم تَجِدْ أَيَّ سَبْطٍ بينهما ؟ .

الأمرُ بسيطٌ ، ابحثَ عن أحمدٍ آخر ، وثالث ، ورابع حتَّى تربط ، ولكن أسرع في البحثِ .

الطَّرَائِقُ أَكْثَرُ :

الطَّرَائِقُ بفلسفة المعنى ، والرَّبْطُ ، والتَّكْرَارُ أَكْثَرَ من أَنَّ تُحْصَى هنا ، فِيمَكُن استخدام طريقة تفكيك الاسم إلى مقاطع ، وربط أحد المقاطع - أو أولها - بمعنى كلمة ، أو شيءٍ معروفٍ ، فمثلاً :

شاهراً اسمٌ مكوَّنٌ من « شاهي » و « ر » ، والشَّاي يُشْرَبُ ، ابحثَ في هذا الرَّجُلُ ما يُمكن أن شربه .

وَيُمْكِنُ تفكيك اسم سارة إلى « سار » و « ه » ، ومعنى سار من السَّيرِ ... إلخ .

وَيُمْكِنُ ربط الاسم بالمكان الذي تعارفت فيه عليه ، أو بكلمةٍ إنجليزيةٍ ، أو اسم سيارَةٍ ، أو أحد المشاهير .

خِيَالٌ مَفْرَقٌ :

إذا كُنْتَ من أهلِ التَّخْيِيلِ الشَّدِيدِ ، فإنَّ أمرَ الرِّبْطِ والمعنى سَيُسَهِّلُ عليك كثيراً ، فمثلاً :

رجلٌ اسمه كمال ، وشفته ربيعتان ، قد يقودك خيالكَ لربطِ وفكِّ وجمعٍ للمعاني ، فتصل إلى حلٍّ عجيبٍ ، كأن تصل إلى أنَّ هناك رجلين يجلسان على

كرسيين فوق الشفتين يتناقشان ، فلو مرّت عشر سنوات ، وشاهدت الرجل ،
ووقعت عينك على شفتيه الرفيعتين ، تشعر وكأنك تُشاهد الرجلين على
الكرسيين يتناقشان ، فتقول : أهلاً أخ كمال .

ولو سألت أكثر الناس : لماذا لا يتذكرون الأسماء ؟ لانتحلوا لأنفسهم
العذر بكثرة المشاغل ، ولكنهم ليسوا أكثر انشغالاً من نبينا محمد ﷺ ، فقد
كان يحفظ أسماء أصحابه ، وكُنَاهم ، وأسماء صغارهم ، وكلّ من تعارف عليه
في الجاهلية ، وربما عرف صفة الرجل ، وسمع به ، فإذا التقى به قال : أنت
فلان ؟ ، فيكون الأمر كما ذكرنا .

ومن اللطائف أن نابليون الثالث - إمبراطور فرنسا ، وابن عم نابليون
الشهير يُباهي بأنه - على الرغم من واجبات الملك الملقاة على عاتقه - يستطيع
أن يذكر اسم كل شخص التقى به .
فماذا كانت خطته ؟

غاية في البساطة ، كان إذا لم يسمع اسم محدثه واضحاً ، قال له : آسف
لم أستطع أن ألتقط الاسم تماماً ، فإذا كان في الاسم شيء من الغرابة ، سأل :
كيف يتهجى ؟ ، ثم يأخذ على عاتقه - خلال المناقشة - أن يكرّر الاسم جملة
مرات ، ويُحاول أن يربطه في ذهنه بصورة صاحبه ، وملامحه ، وتعبيراته ،
ومظهره العام ، وإذا كان الرجل على قدر من الأهمية ، قام نابليون - فضلاً عن
هذا - بعمل شاق آخر ، فمتى خلا لنفسه كان يدون الاسم على قرطاس ، ثم
يتأمله ملياً ويحضر ذهنه فيه ، وبهذا يكون فكرة (عينية) عن الاسم ، كما
كون فكرة (سمعية) ، فلا يكون هناك ثمة سبيل لسيانته ! (١) .

(١) « كيف تكسب الأصدقاء ؟ » (ص ٥٦) .

لا تستخدم لفظة «أنا»

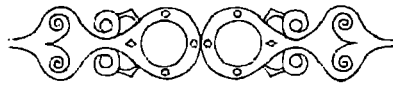
وما في معناها

أخي المحاور ، إِنَّهُ يَجْمَلُ بِكَ عَدَمُ اسْتِخْدَامِ لَفْظِ «أنا» ؛ فهو - كما يُقال - لَفْظٌ نَصَفُ بِلَاءِ الْعَالَمِ مِنْهُ ؛ لما يدلُّ عليه من كثيرٍ من المخلوقين من دَعْوَى عَرِيضَةٍ ، وَكَذِبِ أَعْرَاضٍ ، وَنَحْوِهِ مِثْلُ : لي ، وَعِنْدِي ، وَغَيْرَهُمَا (١) .

وفي هذا يقول ابن القيم - رحمه الله - : « وَكَيْحَذَرَ كُلَّ الْحَذَرِ مِنْ طُغْيَانِ أَنَا ، وَلِي ، وَوَعِنْدِي ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْأَلْفَاظَ الثَّلَاثَةَ ابْتَلَى بِهَا إِبْلِيسُ ، وَفِرْعَوْنُ ، وَقَارُونُ : ف ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ﴾ { الأعراف : ١٢ } لإبليس ، و ﴿ لِي مُلْكٌ مِصْرَ ﴾ { الزُّخْرُفُ : ٥١ } لفرعون ، و ﴿ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَيَّ عِنْدِي ﴾ { القصص : ٧٨ } لقارون .

وَأَحْسَنُ مَا وُضِعَتْ «أنا» فِي قَوْلِ الْعَبْدِ : أَنَا الْعَبْدُ الْمَذْنِبُ الْمَخْطِئُ الْمُسْتَغْفِرُ الْمُعْتَرِفُ ، وَنَحْوِهِ ، وَ «لي» فِي قَوْلِهِ : لِي الذَّنْبُ ، وَلِي الْجُرْمُ ، وَلِي الْمَسْكَنَةُ ، وَلِي الْفَقْرُ ، وَالذُّلُّ ، وَ «عندي» فِي قَوْلِهِ : اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي ، وَخَطِيئِي وَعَمْدِي ، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي » (٢) .

وقال ابن العربي الحاتمي الحلولي : « الصُّوفِيُّ مَنْ أَسْقَطَ الْيَأَاءَ الثَّلَاثَ ، فَلَا يَقُولُ : لي ، وَلَا عِنْدِي ، وَلَا مَتَاعِي : أَي لَا يُضَيِّفُ لِنَفْسِهِ شَيْئًا » (٣) .



(١) « مُعْجَمُ الْمَنَاهِي اللَّفْظِيَّةِ » (ص ١٥٠) .

(٢) « زَادُ الْمَعَادِ » (٢/٤٧٥) .

(٣) « شَذَرَاتُ الذَّهَبِ » (٥/١٩٩) .

حُسْنُ الْاسْتِمَاعِ

أخي الحبيب ، اعلم - عَلَّمَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكَ ، وَجَعَلَ الْجَنَّةَ مُتَّهَى مَسْعَايَ وَمَسْعَاكَ - أَنَّ مِنْ أَدَبِ الْمَرْوَةِ حُسْنَ إِصْغَاءِ الرَّجُلِ لِمَنْ يُحَدِّثُهُ مِنَ الْإِخْوَانِ ، فَإِنَّ إِقْبَالَهِ عَلَى مُحَدِّثِهِ بِالْإِصْغَاءِ إِلَيْهِ بِالْأُذُنِ ، وَطَرْفِ الْعَيْنِ ، وَحُضُورِ الْقَلْبِ ، وَإِشْرَاقَةِ الْوَجْهِ يَدُلُّ عَلَى ارْتِيَاكِه لِمَجَالِسَتِهِ ، وَأَنَّهُ بِحَدِيثِهِ .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « جَلِيسِي عَلَيَّ ثَلَاثٌ : أَنْ أَرْمِيَهُ بِطَرْفِي إِذَا أَقْبَلَ ، وَأَنْ أُوسِّعَ لَهُ فِي الْمَجْلِسِ إِذَا جَلَسَ ، وَأَنْ أُصْغِيَ إِلَيْهِ إِذَا تَحَدَّثَ » (١) .

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه : « ثَلَاثَةٌ لَا أَمَلُهُمْ : جَلِيسِي مَا فَهَمَ عَنِّي ، وَثُوبِي مَا سَتَرَنِي ، وَدَابَّتِي مَا حَمَلَتْ رَحْلِي » (٢) (٣) .

وقال الحسن البصري : « إِذَا جَالَسْتَ فَكُنْ عَلَى أَنْ تَسْمَعَ أَحْرَصَ مِنْكَ عَلَى أَنْ تَقُولَ ، وَتَعَلَّمَ حُسْنَ الْاسْتِمَاعِ ، كَمَا تَعَلَّمَ حُسْنَ الْقَوْلِ ، وَلَا تَقْطَعْ عَلَى أَحَدٍ حَدِيثَهُ » (٤) .

وقال معاذ بن سعد الأنموري : « كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ ، فَحَدَّثَ رَجُلٌ بِحَدِيثٍ ، فَعَرَّضَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ فِي حَدِيثِهِ ، قَالَ : فَعُضِبَ ، وَقَالَ : مَا هَذِهِ الطَّبَاعُ ؟ ، إِنِّي لَأَسْمَعُ الْحَدِيثَ مِنَ الرَّجُلِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِهِ ، فَأَرِيهِ كَأَنِّي لَا أَحْسِنُ شَيْئًا » (٥) .

(١) « عيون الأخبار » (٣٠٧/١) .
 (٢) الرَّحْلُ : مَا يُوضَعُ مِنْ غَطَاءٍ عَلَى ظَهْرِ الْجَسْمِ لِلرُّكُوبِ ، مِثْلُ السَّرَجِ لِلْفَرَسِ ، وَالْإِكْفَافِ وَالْبِرْدَعَةِ لِلْحِمَارِ ، وَجَمْعُ رَحْلٍ رِحَالٌ .
 (٣) « عيون الأخبار » (٣٠٦/١) .
 (٤) « المتقى » (ص ٧٢) .
 (٥) « روضة العقلاء » (ص ٧٢) .



وقال المدائني: «أوصى خالد بن يحيى ابنه ، فقال : « يا بُنَيَّ ، إِذَا حَدَّثَكَ جَلِيسُكَ حَدِيثًا فَأَقْبِلْ عَلَيْهِ ، وَأَصْغِ إِلَيْهِ ، وَلَا تَقُلْ : قَدْ سَمِعْتُهُ ، وَإِنْ كُنْتَ أَحْفَظَ مِنْهُ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُكْسِبُكَ الْمَحَبَّةَ وَالْمِيلَ إِلَيْكَ » (١) .

وقال أبو بصير بن الجهم: قال حكيم لابنه : « يا بُنَيَّ ، تَعَلَّمْ حُسْنَ الْإِسْتِمَاعِ كَمَا تَتَعَلَّمُ حُسْنَ الْكَلَامِ ، فَإِنَّ حُسْنَ الْإِسْتِمَاعِ إِمَهَالُكَ الْمُتَكَلِّمَ حَتَّى يُفْضِيَ إِلَيْكَ بِحَدِيثِهِ ، وَالْإِقْبَالَ بِالْوَجْهِ وَالنَّظَرَ ، وَتَرْكُ الْمَشَارَكَةَ بِحَدِيثِ أَنْتَ تَعْرِفُهُ » (٢) .

وقال ابن المنعم: « إِذَا رَأَيْتَ رَجُلًا يُحَدِّثُ حَدِيثًا قَدْ عَلِمْتَهُ ، أَوْ يُخْبِرُ خَبْرًا قَدْ سَمِعْتَهُ ، فَلَا تُشَارِكْ فِيهِ ، وَلَا تَتَعَبَّهُ عَلَيْهِ حِرْصًا عَلَى أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّكَ قَدْ عَلِمْتَهُ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ خِفَّةٌ ، وَسُوءُ آدَبٍ وَسَخْفٌ » (٣) .

وقال أيضاً: « من الأخلاق التي أنت جديرٌ بتركها إذا حدثَ الرجلُ حديثاً تعرفه الأُتسابقه ، وتفتحه عليه وتشاركه ، حتى كأنك تُظهرُ للناسِ أنك تريدُ أن يعلموا أنك تعلمُ مثلَ الذي يعلمُ ، وما عليك إلا أن تُهتتهُ بذلك ، وتُفردَهُ به ، وهذا الباب من أبواب البُخلِ ، وأبوابه الغامضةُ كثيرةٌ » (٤) .

والشَّد الخُصيبُ البغداديُّ في هذا المقام :

وَلَا تُشَارِكْ فِي الْحَدِيثِ أَهْلَهُ وَإِنْ عَرَفْتَ أَصْلَهُ وَقَرَعَهُ
فَعَلَيْكَ - أَخِي الْحَبِيبِ - أَنْ تُحَسِّنَ الْإِسْتِمَاعَ لِمُحَاوَرِكَ ؛ حَتَّى يَسْتَكْمَلَ
حُجَجَهُ وَبِرَّأَمِينَهُ ، وَإِنْ كَانَ مَا تَسْمَعُهُ مِنْهُ شَبَهَ الْوَسْوَاسِ ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ حَقٌّ
اسْتَخْلَصْتَهُ ، ثُمَّ اسْتَفْذُ مِنْهُ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ خَطَأٌ ، اسْتَخْرَجْ جُدُورَهُ وَدَافِعَهُ ،
وَالشُّبُهَاتِ الَّتِي أَدَّتْ إِلَيْهِ .

(١) « بهجة المجالس » لابن عبد البر

(٢) « الفقيه والمتفقه » (٢٠٠ - ٢٠١) .

(٣) « الادب الصغير والكبير » .

(٤) المرجع السابق (ص ١٠٠) .

قال الخطيب البغدادي في ذكر أدب الجدل والمناظرة: « وإذا وَقَعَ له شيءٌ في أولِّ كلامِ الخصمِ ، فلا يَعَجَلْ بالحُكْمِ عليه ؛ فربَّما كان في آخر كلامه ما يبيِّنُ أنَّ الغرضَ بخلافِ الواقعِ له ، فينبغي أنْ يثبَّتَ إلى أنْ يَنْقُضِيَ الكلامُ ، وبهذا أدبُ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (١١٤) ﴿ طه : ١١٤ ﴾ ، ويكون نُطقُهُ بعِلْمِ ، وإنصاتهُ بحلْمِ ، ولا يعجل إلى جوابٍ ، ولا يهجم على سؤالٍ ، يحفظ لسانَهُ من إطلاقه بما لا يعلمُ ، ومن مناظرته فيما لا يفهمُ ؛ فإنه ربَّما أخرجَه ذلك إلى الحَجَلِ والانقطاعِ . »

ثمَّ قال : « وينبغي أن يكونَ كُلُّ واحدٍ من الخصمَينِ مُقبلاً على صاحبه بوجهه في حالِ مناظرته ، مُستمعاً كلامه إلى أنْ يُنهيَهُ ؛ فإنَّ ذلك طريقُ معرفته ، والوقوفُ على حقيقته ، وربَّما كان في كلامه ما يدلُّ على فساده ، وينبهُ عواره ، فيكون ذلك معونةً له على جوابه . »

إلى أن قال : « وليتَّقِ المناظرُ مُداخلةَ خصمِهِ في كلامه ، وتقطيعَهُ عليه ، وإظهارَ التَّعَجُّبِ منه ، وليُمكنهُ من إيرادِ حُجَّتِهِ ؛ فإنَّما يفعلُ ذلك المبتلون ، والضعفاءُ الَّذِينَ لا يحصلون » (١) .

وقال إمام الحرمين الجويني في آداب المجادل : « وعليهما جميعاً أن يصبرَ كُلُّ واحدٍ منهما لصاحبه في نوبته ، وإن كان ما يسمعه منه شبه الوسواس ؛ لأنَّهما متساويان في حقِّ المناوبة ، ومن لم يصبرْ منهما لصاحبه ، فقد قطعَ عليه حقَّهُ ، ومتى لم يصبرْ عليه خصمُهُ ، بل داخلهُ بالاعتراضِ ، أو الجوابِ في نوبته احتمله ووعظه ، فإن أصرَّ عليه قطعَ مكالمته . »

ثُمَّ قَالَ : « وَعَلَى كُلِّ مِنْهُمَا أَنْ يَقْبَلَ عَلَى خَصْمِهِ الَّذِي يُكَلِّمُهُ بِوَجْهِهِ فِي خِطَابِهِ ، الْمُتَكَلِّمُ فِي كَلَامِهِ ، وَالْمُسْتَمِعُ فِي اسْتِمَاعِهِ ، فَإِنَّ التَّفَتَّ أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُ فِي الْاسْتِمَاعِ أَوْ الْخِطَابِ وَعَظَّهُ ، فَإِنَّ لَمْ يَقْبَلَ قَطَعَ مُنَازَرَتَهُ ؛ لِأَنَّ تَرْكَ الْإِقْبَالِ ، وَحُسْنَ الْاسْتِمَاعِ يَشْغَلُ قَلْبَ الْمُتَكَلِّمِ وَالْمُسْتَمِعِ ، فَتَنْقَطِعُ عَلَيْهِ مَادَّةُ الْفَهْمِ وَالْخَاطِرِ » (١) .

وقد نجد محاورك يتحدثُ وفي كلامه ما ينبغي أن يُستدركَ عليه ، ويراجعَ فيه تعليقاَ وتصحيحًا ، فمن الأفضل أن يكونَ لديك قلمٌ وورقةٌ ، تُسجَلُ عليه ما تودُّ تسجيله ، حتَّى إذا جاء دوركَ أفضيتَ بما لديك حسبَ موقعِ ورودها .

ومن اللطائف :

أنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانِ استأذنَ على أميرِ المؤمنينِ معاويةَ في الدُّخُولِ ، فأذنَ له ، ثُمَّ سَلَّمَ عليه وجَلَسَ ، وبعدَ أن فرغَ من حديثه قام وانصرفَ ، فقال معاويةَ : « مَا أَكْمَلَ أَدَبَ هَذَا الْفَتَى ! » ، فقال بعضُ الحاضرينَ : « نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، لَقَدْ أَخَذَ بِأَخْلَاقِ أَرْبَعَةٍ ، وَتَرَكَ أَخْلَاقًا أَرْبَعَةً : أَخَذَ بِأَحْسَنِ الْبِشْرِ (٢) إِذَا لَقِيَ ، وَبِأَحْسَنِ الْحَدِيثِ إِذَا حَدَّثَ ، وَبِأَحْسَنِ الْاسْتِمَاعِ إِذَا حَدَّثَ ، وَبِأَحْسَنِ الْوَفَاءِ إِذَا وَعَدَ ، وَتَرَكَ مَزَاحَ مَنْ لَا يَثِقُ بِعَقْلِهِ ، وَتَرَكَ مُجَالَسَةَ مَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَى الْحَقِّ ، وَتَرَكَ مُخَالَطَةَ مَنْ لَا أَدَبَ عِنْدَهُ ، وَتَرَكَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ كُلِّ مَا يَعْتَدِرُ مِنْهُ » (٣) .

قال الشاعر :

فاجلس إليهم بالكمال مؤدبا
واجعل حديثك - إن نطقت - مهذبا (٤)

إن أنت جالست الرجال ذوي النهى
واسمع حديثهم إذا هم حدثوا

(١) الكافية في الجدل « (ص ٥٣٣ - ٥٣٤) .

(٢) البشْر: الفرح والبشاشة .

(٣) « عيون الأخبار » (١/٣٠٧) .

(٤) المرجع السابق (١/٣٠٧) .

الحوار الصامت (١)

قد يكون الحوار الصامت أدق وأصدق في التعبير من الكلام ، وقد يما قال العربُ : « رُبَّ إشارةٍ أبلغُ من عبارةٍ » .

والحوارُ الصامتُ قد يكونُ بالعيونِ ، وقد يكونُ باليدينِ ، وقد يكونُ بقسماتِ الوجهِ ، وقد يكونُ بحركاتِ الكتفينِ ، أو الرُّجُلينِ ، أو الرأسِ ، وإليك شيئاً من التفصيلِ :

[١] لغة العيون :

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فإِذَا جَاءَ الْخُبْرَآءَ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدْوِيرًا أَعْيُنَهُمْ كَالَّذِي يُغَسِّقُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ [الأحزاب : ١٩] .

وزيحم الله ابن القيم الفاضل : « إِنَّ الْعْيُونَ مَغَارِيفُ الْقُلُوبِ ، بِهَا يُعْرَفُ مَا فِي الْقُلُوبِ ، وَإِنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ صَاحِبُهَا » .

والعيون ليست وسيلةً فقط لرؤية الخارجِ ، بل هي وسيلةٌ بليغةٌ في التعبيرِ عمَّا في الدَّاخلِ (أي ما في النفوسِ والقلوبِ ونقله للخارجِ) فهناك النظراتُ القَلْبَةُ المضطربةُ ، وغيرها المستغيثةُ المهزومةُ المستسلمةُ ، وأخرى حاقدةٌ نائرةٌ ، وأخرى ساخرةٌ ، وأخرى مُصَمَّمةٌ ، وأخرى سارحةٌ لا مُباليةٌ ، وأخرى مُستفهِمةٌ ، وأخرى محبةٌ . . . وهكذا تتعدَّدُ النظراتُ المعبرةُ ، وقد سمَّى الله سبحانه وتعالى بعضَ النظراتِ بـ « خَائِنَةِ الْأَعْيُنِ » .

والمُحاورُ في حوارِهِ مع لُغَةِ الْعْيُونَ يتعامل معها كوسيلةٍ تعبيرِ عمَّا في نفسه للآخرين .

قال الشاعر:

إِنَّ الْعُيُونَ لَتُبْدِي فِي نَوَاطِرِهَا مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْبَغْضَاءِ وَالإِحْنِ (١)

وقال آخر:

وما أحب إذا أحببت مُكْتَمًا
تَظَلُّ فِي قَلْبِهِ الْبَغْضَاءُ كَامِنًا
والنَّفْسُ فِي عَيْنِي مُحَدِّثُهَا
عَيْنَاكَ قَدْ دَلَّتَا عَيْنِي مِنْكَ عَلَيَّ

وقال آخر:

تُرِيكَ أَغْيَيْنُهُمْ مَا فِي صُدُورِهِمْ
إِنَّ الْعُيُونَ يُؤَدِّي سِرَّهَا النَّظْرُ (٢)

وإذا أردت إيصال مرادك بعينيك ، فاحرص علي الأمور الآتية :

١ | أن تكون عينك مرتاحتين أثناء الكلام ، مما يشعر الآخر بالاطمئنان إليك ، والثقة في سلامة موقفك ، وصحة أفكارك .

٢ | تحدث إليه ورأسك مُرتفع إلى الأعلى ؛ لأنَّ طَأْطَأَةَ الرَّأْسِ أثناء الحوار يشعرُ بالهزيمة والضعفِ والخورِ .

٣ | لا تنظر بعيداً عن محاورك ، أو تثبت نظرك في السماء أو الأرض أثناء الحوار ؛ لأنَّ ذلك يشعرُ باللامبالاة بمن تتحاور معه ، أو بعدم الاهتمام بالموضوع الذي تتحاور فيه .

٤ | لا تطل التحديق بشكلٍ مُخرجٍ فيمن تتحاور معه .

(١) الإحن : الأحقاد ، مفردا إحنة .

(٢) روضة العقلاء ، (ص ١٠٧) .

(٣) أدب الدنيا والدين ، (ص ٢٦٤) .

٥ | احذر من كثرة الرمش بعينيك أثناء الحوار مع غيرك ؛ لأن هذا يُشعر بالقلق والاضطراب .

٦ | ابتعد عن لبس النظارات القاتمة أثناء الحوار مع غيرك ؛ لأن ذلك يُعيق بناء الثقة بينك وبينه .

٧ | احذر من النظرات السّاخرة الباهتة إلى من يُحاورك أو تُحاوره ؛ لأن ذلك ينسف جُور التفاهم والثقة بينك وبينه ، ولا يشجعه على الاستمرار في التّواصل معك ، وربّ نظرة أورثت حسرة ! .

كيف تفهم ما في نفوس الآخرين من خلال نظرات عيونهم ؟!

لقد قام علماء النفس بالكثير من التجارب للوصول إلى معرفة دلالات حركات العيون عمّا في النفوس ، وكان ممّا وصلوا إليه - كما ذكر الدكتور محمد التكريتي في كتابه « آفاق بلا حدود » - أنّ النّظر أثناء الكلام إلى جهة الأعلى اليسار يعني أنّ الإنسان يُعبّر عن صورٍ داخلية في الذاكرة ، وإن كان يتكلّم وعيناهُ تزيغان لجهة اليمين إلى الأعلى ، هو يُنشئُ صوراً داخليةً ويركّبها ، ولم يسبق له أن رآها ، أمّا إن كانت عيناهُ تتجهان لجهة اليسار مباشرةً ، فهو يستذكر كلاماً سبق وأن سمعه ، فإن كان نظره لجهة اليمين مباشرةً فهو يُنشئُ كلاماً لم يسبق أن سمعه ، وإن نظره لجهة اليمين للأسفل ، فهو يتحدث عن إحساسٍ داخليٍّ ، ومشاعرٍ داخليةٍ ، وإن نظره لجهة اليسار من الأسفل ، فهو يستمع إلى نفسه ، ويحدّثها في داخله ، كمن يقرأ مع نفسه مثلاً ، هذا في حالة الإنسان العاديِّ ، أمّا الإنسان الأعسر فهو عكس ما ذكرنا تماماً .

وبناءً على هذه المعلومات يُمكنك - أخي المحاور - أن تُحدّد من أيّ الأنماط يتحدثُ محاورك وهو يتحدثُ معك ، بل ويُمكنك من قراءة قصيدة ، أو قطعةٍ نثريةٍ أن تُحدّد النمطَ الَّذِي كان يعيشه صاحبُها عند إعداده لها ، هل هو النمطُ

السَّمْعِيُّ ، أو الصُّورِيُّ من الذَّاكِرَةِ ، أو مِمَّا يُنْشِئُهُ ، أو من الأحاسيس الدَّاخِلِيَّةِ ؟
وذلك من خلال تأمل كلامه ، وتصنيفه في أحد الأصناف السَّابِقَةِ .

ولله درُّ ابن الأعرابي حين قال :

العَيْنُ تُبْدِي الَّذِي فِي نَفْسِ صَاحِبِهَا مِنَ الشَّنَاءَةِ ^(١) أَوْ وَدِّ إِذَا كَانَا
إِنَّ البَغِيضَ لَهُ عَيْنٌ يَصْدُ بِهَا لَا يَسْتَطِيعُ لِمَا فِي الصَّدْرِ كَتْمَانَا
العَيْنُ تَنْطِقُ وَالْأَفْوَاهُ سَاكِتَةٌ حَتَّى تَرَى مِنْ ضَمِيرِ القَلْبِ تَبْيَانَا ^(٢)

[٢] الحوار بالوجه :

كما يستطيع الإنسان أن يُعَبِّرَ بعينه عما يُريدُ ، ويستطيع أن يستكشف ما في
نفوس الآخرين من خلال التأمُّلِ في نظراتِ عيونهم ، فإنه يستطيعُ - أيضاً - أن
يفعلَ ذلك من خلال تأمُّلِ قَسَمَاتِ الوجهِ ، سواءً أكان ذلك من بَشَرَةِ الوجهِ ،
أو شكْلِ الشَّقَّتَيْنِ ، أو حالِ الحَدَّيْنِ ، أو الجَبِينِ ، وتأمُّلِ معي قليلاً هذه الآيات
الكريمة :

قال الله سبحانه : ﴿ وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ
كَطِيمٌ ^(٥٨) ﴾ { النحل : ٥٨ } .

وقال : ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ﴾ { الحج : ٧٢ } .

وقال : ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ﴾ { يونس : ٢٧ } .

وعَلَيْهِ فاعْلَمْ - عَلَّمَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ - أَنَّ التَّجَهُمَ والعُبُوسَ يُقِيمَانِ الحَوَاجِزَ
بينك وبين الآخرين ؛ ولذلك عليك أن تتعلَّم كيف تُسَيِّطِرُ على أفكارك
ومشاعرك ؛ ليكون عبوسك حينئذٍ مقصوداً ومُتَحَكِّمًا فيه ، ويؤدِّي رسالةً مُحدَّدةً

(١) الشَّنَاءَةُ : البُغْضُ والكَرَاهِيَّةُ .

(٢) « روضة العقلاء » (ص ١٠٤) .

في وقتها المناسب .

وأكثرُ مظاهرِ التَّجَهُمِ هو تقطيبُ الجَبِينِ ، وِفلطَحَةُ الحَدِيدِ ، وتكشِيرُ الأسنانِ ، بالإضافة إلى لزمِ الشَّفَتَيْنِ ، وتقوُّسِ السُّفْلَى مِنْهُمَا مع جفافِهما ، واسودادِ البَشْرَةِ .

وأخيراً لكي تكونِ حاوراً ناجحاً اتبعِ الطَّرِيقَةَ الآتِيَةَ :

١ | اجعلِ الابتسامَةَ رسولك إلى قلوبِ الآخرينَ ، فهي مفتاحُ لأبوابِ النفوسِ ، كما أنها تجلبُ الرَّاحَةَ والهُدُوءَ للمُبْتَسِمِ .

٢ | عندما تشعرُ أنَّ الأذانَ قد أغلقتُ أَمَامَكَ ، وتعطلَّ استقبالُ حوارك ، فَعَطِّرِ الجَوَّ بِنُكْتَةٍ (*) ، يتلوها ابتسامَةً .

٣ | حذِّرِ من الابتسامَةِ السَّاخِرَةِ أو الباردةِ ؛ فهي تحوُّلُ بينِ الآخرينِ وبينِ الثِّقَةِ فيكَ .

٤ | حاولِ التَّعرُّفَ على ما في نفسِ الآخرِ من خلالِ رَصْدِ ابتسامته ، ومُلاحَظَةِ جِيبَتِهِ ، وحركاتِ عَيْنِيهِ .

٥ | حاولُ أنْ تُعوِّدَ نفسَكَ على أنْ تكونَ ابتسامتكِ وسيلةً لإبلاغِ حوارك كما تُريدُ ، وإنْ كانتِ مشاعركِ خلافَ ذلكِ .

٦ | عوِّدْ نفسَكَ على الاستمتاعِ بالطَّرَائِفِ المُضحِكةِ ؛ لتتعوِّدَ على الضَّحْكِ أحياناً .

[٣] الحوارُ بِأَعْضَاءِ الجِسدِ الأخرى :

كما أنَّ الوَجْهَ يُعبِّرُ عمَّا في النَّفسِ ، فإنَّ حركاتِ اليدينِ ، والقدمينِ ، وحركاتِ الكتفينِ ، وكَيْفِيَّةَ الجُلُوسِ أو المشي تُعبِّرُ عمَّا في نفسِ الإنسانِ ،

* واحذرْ ألا تنطقَ إلا صدقاً ، فإن في هذا مزلقٌ خطيرٌ .

وتُعطي تقريراً دقيقاً عن حالته النَّفسية .

ومن صور التعبير باليدين الآتية

١١ | عندما تلاحظ إنساناً وضع يديه وراء ظَهْرِهِ مُتَشَابِكِينَ ، فهذا يعني شعوره بالعجز ، أو عَدَمَ الثِّقَّةِ بِالْآخَرِينَ .

١٢ | أما عندما يضع الإنسانُ يديه مُتَشَابِكَتَيْنِ أمامَهُ أثناءَ الجلوسِ ، فهذا يعني شعوره بالثِّقَّةِ المفرطةِ في النَّفسِ ، واللامبالاةَ بِالْآخَرِينَ .

١٣ | إشارة اليدين والأصابع المتوافقة مع الكلام تزيد الكلام وضوحاً ، وكما قالت العربُ : « رُبَّ إِشَارَةٍ أَبْلَغُ مِنْ عِبَارَةٍ » .

١٤ | لاحظ حركات أقدام الآخرين أثناء الحوار معهم ؛ فهي تُعَبِّرُ عَمَّا فِي نَفْسِهِمْ ، وَتَحْكُمُ أَنْتَ فِي حَرَكَاتِ قَدَمَيْكَ أَتِنَاءَ حِوَارِكَ ، مَا لَمْ تُقَرَّرْ إِرسَالَ رِسَالَةٍ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الْحَرَكَةِ .

١٥ | هَزُّ الْكَتِفَيْنِ لِلأَعْلَى بِصُورَةٍ سَرِيعَةٍ يَعْنِي التَّجَاهُلَ وَاللَّامْبَالَاةَ ، أَوِ الْجَهْلَ بِالشَّيْءِ وَالْحَيْرَةَ حِيَالَهُ .



محاورة الصغار

الأطفال نعمة امتنَّ اللهُ بها علينا ، فهم زينة الحياة الدنيا ، ولابدَّ لنا أن نهتمَّ بهم ، ونشاركهم أفكارهم ومشاعرهم ، ونصوّب لهم الأفكار الحسنة .

قال سابق البربري:

قَدْ يَنْفَعُ الْأَدَبُ الْأَحْدَاثَ فِي مَهَلٍ وليسَ يَنْفَعُ عِنْدَ الْكِبَرَةِ الْأَدَبُ
إِنَّ الْغُصُونَ إِذَا قَوْمَتَهَا اعتَدَلَتْ ولكنْ تَلِينَ - إِذَا قَوْمَتَهَا - الْحَشْبُ (١)

اعلم - أخي بارك الله فيك - أنَّ لمحاورة المرثيِّ صغارهُ فائدةً عظيمةً ، وللحوارِ الهادئِ معهم أهميةً كبرى ، ولتعليمهم آدابِ الحوارِ وطرائقه وأساليبه ثمراتٌ جلّى ، فبذلك ينمو عقلُ الصَّغيرِ ، وتتسعُ مداركُهُ ، ويزداد رغبةً في الكشفِ عن حقائقِ الأمور ، ومُجرياتِ الأحداثِ ، كما أنَّ ذلك يُكسبه الثِّقَّةَ بنفسه ، ويورثه الجرأةَ والشجاعةَ الأدبيَّةَ ، ويُشعره بالسَّعادةَ والطَّمأنينةَ ، والقوَّةَ والاعتبارَ ، ممَّا يُعده للبناءِ والعطاءِ ، ويؤهِّلهُ لأن يعيشَ كريماً شجاعاً ، صريحاً في حديثه ، جريئاً في طرحِ آرائه .

أثبتت دراسةً بريطانيةً حديثةً أنَّ الآباءَ الذين يُخصِّصون خمسَ دقائق - على الأقلِّ - يومياً للحوارِ مع أبنائهم - يتمتعُّ أبنائهم في المستقبلِ بدرجةٍ كبيرةٍ من الثِّقَّةِ بالنفسِ ، والقُدرةِ على الابتكارِ والإبداعِ ، وبذلك فهم يكونون من أفضلِّ الرِّجالِ في المجتمعِ .

أُجريتِ الدِّراسةُ في جامعةِ أوكسفورد على (١٥٠) شخصٍ ، تتراوح أعمارهم بين (١٣ - ١٩) عاماً ، وقد أثبتتِ الدِّراسةُ أنَّ الأبناءَ الذين لا

يتحاورون مع آبائهم هم الأقل ثقةً بالنفس (١) .

ومما يتشدد لخلف الأخرم :

أَدَبٌ صَالِحٌ وَحُسْنُ ثَنَاءٍ	خَيْرٌ مَّا وَرَثَ الرَّجَالُ بَيْنَهُمْ
راق (٢) في يومِ شِدَّةٍ وَرَخَاءٍ	هُوَ خَيْرٌ مِنَ الدَّنَانِيرِ وَالْأَوْ
لِحٌ لَا يَفْنِيَانِ حَتَّى اللَّقَاءِ (٣)	تِلْكَ تَفْنَى وَالدِّينُ وَالْأَدَبُ الصَّا
كُنْتَ يَوْمًا تُعَدُّ فِي الْكُبْرَاءِ	إِنْ تَأَدَّبْتَ - يَا بَنِيَّ - صَغِيرًا
تَ كَبِيرًا فِي زَمْرَةِ الْغَوْغَاءِ	وَإِذَا مَا أَضَعْتَ نَفْسَكَ أَلْفِي
وَإِذَا كَانَ يَابِسًا بِسَوَاءِ (٤)	لَيْسَ عَطْفِي لِلْعُودِ إِنْ كَانَ رَطْبًا

ومع أهمية هذا الأمر وعظيم فائدته إلا أن هناك تقصيراً كبيراً فيه ، فكثير من الناس لا يأبه لمحاورة الصغار ، ولا يلقي بالاً لتعليمهم آداب الحوار وأساليبه ، تراه لا يصغي إليهم إذا تحدّثوا ، ولا يجيب على أسئلتهم إذا سألوا ، بل ربّما كذبهم إذا أخبروا ، ونهرهم وأسكتهم إذا تكلموا ، وهذا من الخلل الفادح ، والتقصير الكبير .

فهذا الصنيع ممّا يؤكّد الخوف في نفس الصّغير ، كما يورثه التردد ، والحجل الشديد ، وفقدان الثقة بالنفس ، بل قد يجرّ عليه أضراراً تؤثّر على مستقبله ومسيرة حياته ، فقد يعجز عن الكلام ، وقد يُصاب بعُيوب النطق : من فأفأة ، وتمتمة ، ونحوها ، وقد يُصاب بمرضٍ آخر ، وقد يُعاني من مشكلة فيزداد مرضه ، وتتضاعف مشكلاته بسبب عجزه عن الإخبار عمّا أصابه وألم

(١) مجلة الأسرة العدد (٧٠) ، ٢٠ محرم ١٤٢٠ هـ (ص ٧٤) .

(٢) الأوراق : جمع ورق - مثلة - وهي الدراهم المضروبة من الفضة .

(٣) يوم اللقاء : أي يوم لقاء الله ، وهو يوم القيامة .

(٤) جواهر الأدب (ص ٧٠٦ - ٧٠٧) .

به ، وقد يُظلم وتوجه له تَهْمَةٌ ، فيؤخذ بها مع أنه بريٌ منها لعجزه عن الدفاع عن نفسه ، وعن نفى ما علّق وألصق به ، وقد تضطره الحال لأن يتكلّم أمام زملائه ، فيرى أن الالفاظ لا تُسعفه ، فيشعر بالنقص خصوصًا إذا وجد من يسخر منه (١) .

المراد من قوله

أراني أنسى ما تعلّمت في الكبر
وما العلم إلا بالتعلّم في الصبا
وكلّ قلب المُعلّم في الصبا
وما العلم بعد الشيب إلا تعسف
وما المرء إلا اثنان: عقلٌ ومنطقٌ
ولست بناسٍ ما تعلّمت في الصغر
وما الحلم إلا بالتحلّم في الكبر
لأنفي فيه العلم كالنقش في الحجر
إذا كل (٢) قلب المرء والسمع والبصر
فمن فاته هذا وهذا فقد دمر (٣) (٤)

فيجمل بك - أخي الحبيب - سؤال صغارك واستشارتهم ؛ كي يتكلّموا ، فتسألهم بعض الأسئلة اليسيرة ، فتقول - على سبيل المثال - لصغيرك : مَنْ ربُّكَ ؟ ، وما دينك ؟ ، ومن نبيك ؟ ، أو أن تسأله عن بعض الأمور التي يراها ، أو يعلمها من خلال حياته اليومية أو الدراسية .

قال أبيه بن أبي نضيم

لا يذهبن بك التفريط منتظراً
فقد يزيد السؤال المرء تجربة
طول الأناة ولا يطمع بك العجل
ويستريح إلى الأخبار من يسَل (٥)

انظر « أخطأ في أدب المحادثة »

كلّ : تعب .

دمر : هلك .

« جامع بيان العلم »

المرجع السابق

كذلك يجمل بك في هذا الشأن استشارة الصَّغير في بعض الأمور اليسيرة من بابِ شحذ قريحته ، واستخراج ما لديه من أفكار ، وإعانتته على التَّعبير عنها: كأن تسأله عن رأيه في أثاث المنزل ، أو لون السيَّارة ، أو عن موعد الرِّحْلة ، أو مكانها ، أو نحو ذلك ، ثمَّ تُوازن بين رأي صغيرك وآراء إخوانه وزملائه ، ثمَّ تطلبُ من كُلِّ واحدٍ أن يبيِّنَ مصوغاته ، وأسباب اختياره لهذا الرأْي أو ذاك ، فكم في مثل هذه الأمور اليسيرة من الأثر العَظيم ، والثَّمرات الجلييلة في تدريب الصَّغير ، وتعويد أدب الحوار .

قال الشاعر :

إِنَّ الْحَدَاثَةَ لَا تَقْصُصُ رُ بِالْفَتَى الْمَرْزُوقِ ذَهْنًا
لَكِنْ تُذَكِّي عَقْلَهُ فَيَفُوقُ أَكْبَرَ مِنْهُ سِنًا (١)

ثمَّ إنَّ الحوارَ مع الصَّغار يقفز بالمربِّين إلى قمة التَّربية والبناء ، فبسبب ذلك ينطلقُ الطِّفل ، ويستطيع التَّعبير عن آرائه ، والمُطالبة بحقوقه ، فينشأ حرًّا كريماً أياً ، فيكون في المستقبل ذا حضورٍ مميِّزٍ ، ويكون لآرائه صدَى في النُّفوس ؛ لأنَّه تربَّى منذ الصَّغر على آداب الحوار وطرائقه ، كما أنَّ فيه تدريباً للصَّغار على حُسن الاستماع ، والقُدرة على ترتيب الأفكار ، ممَّا يزيدهم قرباً ومحبةً لوالديهم ومربِّيهم .

هذا وقد وُجد أنَّ الأطفال الأذكياء يتكلمون أسرعَ من الأطفال الأقلِّ ذكاءً ، ووُجد أنَّ الأطفال المحرومين عاطفياً ، والذين لا يُكلِّمهم آباؤهم وأمَّهاتهم إلاَّ نادراً أنَّهم يكونون أقلَّ قُدرةً على الكلام من الذين يُلطفهم آباؤهم ، وليس المقصودُ فيما مضى أن يُسرفَ في إعطاءِ الحرِّية المطلقة للصَّغير ، فيُلقي له الحبلَ

على الغارب ، ويفتح له الباب على مِصْرَاعَيْهِ ، فيسمح له بالصَّفَاقَةِ والوَاقِحَةَ ، ويرضى عن تطاوله وإسائه راعماً أن ذلك من باب إعطائه الفرصة ، وتدريبه على الكلام ، لا ليس الأمر كذلك ، فالرُّضَى عن سفاهته وتطاوله يُغريه بقلَّة الأدب ، وإنما المقصود أن يُؤخذ بيده إلى الآداب المرعية ، وأن يُدرَّب على الكلام في حدود الأدب واللباقة بعيداً عن الإسفاف والصَّفَاقَةِ (١) .

قال الأبي : الخزييم القمّاد :

أَحْسِنُ مُحَاوَرَةَ الصَّغِيرِ فَإِنَّهُ لِيَرَاكَ فُتَدَوَّتَهُ بِكُلِّ طَرِيقٍ
فَإِذَا نَطَقْتَ فَكُنْ مُتَوَدِّدًا وَإِذَا صَحَبْتَ فَكُنْ أَحَنَّ صَدِيقٍ
واعلم - أخي الحبيب - أن الطَّيْنَ يُطْبَعُ وهو رطبٌ ، والغلام يُطْبَعُ مؤدِّبُهُ ،
لكن قَلَّ مَنْ يَفْطَنُ لذلك .

قال الشاعر :

إِنَّ الْغُلَامَ مُطْبِعٌ مَنْ يُؤدِّبُهُ وَلَا يُطْبِعُكَ ذُو شَيْبٍ بِتَأْدِيبِ (٢)

وقال آخر :

يُقَوِّمُ بِالشَّافِ الْعُودُ لَدُنَّا (٣) وَلَا يَتَقَوِّمُ الْعُودُ الصَّلِيبُ (٤)

قال أحد المربيين : « قليلٌ من المربيين هم الذين يُحاورون أفرادهم في جوانب الارتقاء بهم ، وكيفية معالجة القُصُور لديهم ، ولهذا يجب على المربي أن يُشرك الفرد في علاج مشاكله ، وجوانب الضَّعْفِ فيه ، والأمور التي يجب أن يفرسها

(١) انظر « أخطاء في أدب المحاضرة » (ص ٤١-٤٤) ، و« تربية الأطفال في الإسلام » (ص ٢٢٣) ، و« مشكلات تربوية » (ص ٣٧-٤١) ، فقد استفدتُ منهما في هذا الباب .

(٢) « جامع بيان العلم » (١/٨٣) .

(٣) لَدُنَّا : لَيْتَا .

(٤) « جامع بيان العلم » (١/٨٣) .

في نفسه ، ويجعله شريكاً في الحوار ؛ إذ عليه مرتكز الارتقاء ، وبدونه تُصْبِحُ التَّربِيَةُ حِجْرًا عَلَى وَرَقٍ ، لَا تُقَدِّمُ ، وَقَدْ تَوَخَّرُ ، ويتساءل كثيرٌ من المربيين عن سبب تأخير بعض الأفراد في التَّربِيَةِ ، والإصرار على جوانب النقص .

قد يكون أحد الأسباب هو انقطاع حَبْلِ المَحَاوِرَةِ ، والنَّقَاشِ العَقْلِيَّ الهَادِيَّ بأسباب الضَّعْفِ ، وجوانب النقص ، فالحوار يضع الفرد أمام الأمر الواقع بصورة جليَّة واضحة ، وقد تفتَّح الآفاق ، فيستفيد منها كلا الطَّرفَيْنِ : المُربِّيِّ ، والفرد .

ولهذا كان حرياً بالمربيين من والدِّينِ ومُعَلِّمِيْنَ وغيرهم أن يُعْتَنُوا بهذا الجانب وأن يَرَعُوهُ حقَّ رعايته ، فيحسُنُ بهم إذا خاطبهم الصِّغَارُ أن يُقْبَلُوا عليهم ، وأن يُصْغُوا إلى حديثهم ، وأن يَنَأُوا عن كُلِّ ما يُشْعِرُ باحتقار الصِّغَارِ وازدرائهم ، كما يحسُنُ أن يُشْعِرَ الصِّغِيرَ بأهميَّة حديثه ، وأن يُظْهَرَ الإعجابَ والاهتمامَ وحُسْنَ المتابعة ، وذلك بإصدار بعض الأصوات أو الحركات التي تَنَمُّ عن ذلك : كأن يقول الكبير وهو يستمع لصغيره : حَسَنٌ ، جميلٌ ، رائعٌ ، نَعَمْ ، وما إلى ذلك ، أو أن يقوم بالهَمَمَةِ ، أو تحريك الرَّأْسِ تصعيداً أو تصويباً (١) .

ومن اللَّطَائِفِ :

أنَّ ابْنَ المَاجِشُونَ - رحمه الله - لَمَّا قَدِمَ عَلَى المُنْذِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ وَهُوَ حَدِيثُ السِّنِّ ، فَلَمَّا حَاوَرَهُ اهْتَزَّ إِلَيْهِ المُنْذِرُ دُونَ غَيْرِهِ ؛ لَمَّا رَأَى مِنْ فَصَاحَتِهِ ، وَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ المَاجِشُونَ : عَبْدُ المَلِكِ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ بنِ أَبِي سَلَمَةَ ، فَقَالَ : اطْلُبِ العِلْمَ ؛ فَإِنَّ مَعَكَ حِذَاءَكَ وَسِقَاءَكَ (٢) .

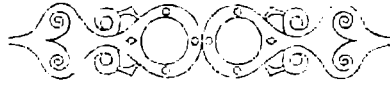
(١) انظر « أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة » (٤٢) .

(٢) « جامع بيان العلم » (٨٦/١) .

فكانت تلك المقدمة الرائعة سبباً - بعد توفيق الله - في جعل ابن الماجشون أحد أعلام الدنيا .

قال، صانع بن عبد القدوس :

وَأَنَّ مَنْ أَدَبَتْهُ فِي الصَّبَا
حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا نَاضِرًا
وَالشَّيْخُ لَا يَتْرُكُ أَخْلَاقَهُ
وَإِذَا ارْعَوَى^(٤) عَادَ إِلَى جَهْلِهِ
كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ فِي غَرْسِهِ
بَعْدَ الَّذِي أَبْصَرْتَ مِنْ يُسَيْبِهِ
حَتَّى يُوَارَى^(١) فِي ثَرَى^(٢) رَمْسِهِ^(٣)
كَذِي الضَّنَى^(٥) عَادَ إِلَى نَكْسِهِ^(٦)



(١) يُوَارَى : يُغَيَّبُ شَخْصَةً .

(٢) الثَّرَى : التُّرَابُ .

(٣) الرَّمْسُ : القَبْرُ ، جَمْعُهُ أَرْمَاسٌ .

(٤) ارْعَوَى : رَجَعَ رَجوعًا حَسَنًا إِلَيَّ مَا يَنْبَغِي لَهُ .

(٥) الضَّنَى : المَرَضُ المَخَامِرُ الَّذِي كَلَّمَا ظَنَّ الْإِنْسَانُ بَرَاهُ نَكْسٌ .

(٦) « جامع بيان العلم » (١/٨٦) .

لَا تَحَاوِرْهُمْ لَاءِ

ثُمَّ أَصْنَافٍ مِنَ النَّاسِ لَا تَحْسُنُ مُنَازَرَتَهُمْ ، وَلَا تُجَدِّي مَجَادَلَتَهُمْ ، أذْكَرُ مِنْهَا :

[١] | الجاهل :

لَا شَكَّ أَنَّكَ مَتَى حَاوَرْتَ جَاهِلًا ، ظَنَّ - لَجْهَلِهِ - أَنَّ الْحَقَّ مَعَهُ ، وَحَصَلَ لَهُ ضَرَرٌ تَكُونُ أَنْتَ سَبِيهَ .

رَوَى الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ عَنْ أَبِي فُلَايَةَ قَالَ : « لَا تُحَدِّثِ الْحَدِيثَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ ؛ فَإِنَّ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ » (١) .

وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقَدُوسِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

وَأَنَّ عِنَاءً أَنْ تُفْنِمَ جَاهِلًا فَيَحْسَبُ - جَاهِلًا - أَنَّهُ مِنْكَ أَفْهَمُ
مَتَى يَبْلُغُ الْبُنْيَانُ يَوْمًا تَمَامَهُ إِذَا كُنْتَ تَبْنِيهِ وَعَبِيرُكَ يَهْدِمُ !؟
مَتَى يَنْتَهِي عَنْ سَمِيٍّ مَنْ آتَى بِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُ عَلَيْهِ تَدْمٌ !؟ (٢)

وَقَالَ أَبُو الظُّفَيْرِ :

وَمِنَ الْبَلِيَّةِ عَذْلٌ (٣) مَنْ لَا يَرَعُوِي عَنْ غَيْهِ (٤) وَخِطَابٌ مَنْ لَا يَفْهَمُ
فَحَرِيٌّ بِكَ - أَخِي الْمَحَاوِرِ - الْإِمْسَاكُ عَنْ مُنَازَرَةِ الْجَاهِلِ ؛ فَإِنَّ مُنَازَرَتَهُ
وَيَالُ بِكُلِّ حَالٍ .

قَالَ أَبُو عَلِيٍّ السَّكُونِيُّ : « وَلَا يُنَازِرُ إِلَّا أَهْلَ التَّقَدُّمِ فِي الْعُلُومِ ؛ إِذْ مَنْ نَازَرَ

(١) « الجامع لأخلاق الراوي » (٧٣ / ١ - ٣٦٨) .

(٢) « جامع بيان العلم » (١١ / ١٠٠) .

(٣) العذْلُ : الملامة .

(٤) الغي : الجهل والضلال .

مَنْ لَيْسَ بِشَيْءٍ ، وَكَانَ خَاسِرًا فِي كِلَا الطَّرْفَيْنِ ؛ لِأَنَّهُ إِنْ ظَهَرَ لَمْ يَظْهَرْ عَلَى شَيْءٍ ، وَإِنْ ظَهَرَ عَلَيْهِ لَا بِشَيْءٍ « (١) .

قال ابو العباس الفاشي :

وَإِذَا بُلِّيتُ بِجَاهِلٍ مُتَحَامِلٍ يَجِدُ الْمَحَالَ مِنْ الْأُمُورِ صَوَابًا
أَوْلَيْتُهُ مِنِّي السُّكُوتَ ، وَرَبِّمَا كَانَ السُّكُوتُ عَلَى الْجَوَابِ جَوَابًا (٢)

والجاهل إذا تعالم ، وناظر غيره - لاسيما أهل البدع أو الكفار - فإن عواقبه وخيمة ، وشروره كبيرة ، فقد يضل نفسه ؛ لما يرى من قهر أولئك له ، ويكون ذلك سبباً في فتنة أولئك عن الدين القويم ؛ لظنهم أن ما قام به ذلك المتعالم هو غاية دين المسلمين (٣) .

وكان الولاة إذا رأوا جاهلاً يستشرف المناظرة العلماء عزروه بما يمنعه من ذلك ؛ لأن تجاسر الجاهل على المناظرة الحامل له تهجين العالم وتنقصه ، لا تبين الحق ؛ فالجاهل لا علم عنده يحق به حقاً ، أو يبطل به باطلاً (٤) .

قال زياد بن ابيه : « لا يأتيني عالم بجاهل لاحاه في علمه ليهجنه إلا عاقبته ؛ فإنما الناس بأعلامهم ، وذوي أسنانهم » (٥) .

واخيراً قال القحطاني :

احذَرُ مُجَادَلَةَ الْجَاهِلِ ؛ فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الشَّحْنَاءِ وَالشَّنَانِ (٦) (٧)

(١) « عيون المناظرات » (ص ٢٧٩) .

(٢) « بهجة المجالس » لابن عبد البر (٢/٤٣١) .

(٣) « أصول الجدل والمناظرة » (ص ٢٣٢) .

(٤) المرجع السابق (ص ٢٣٣) .

(٥) « الفاضل في صفة الأدب الكامل » (ص ٤٩) .

(٦) الشَّنَانُ : البتض والكُره .

(٧) « النونية » (ص ٣٩) .

[٢] الْمَعْرُضُ عَنِ الْاسْتِمَاعِ إِلَيْكَ :

لتكن عناية المحاور بمراعاة أحوال المحاورين ، وكذلك ضرورة توافر رغبة الناس في الحوار عند التحدث إليهم ، فعلى المحاور التوقف عن الحوار عند انصراف قلوب المخاطبين .

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : « حَدَّثَ النَّاسَ مَا حَدَّجُوكَ بِأَبْصَارِهِمْ (١) ، وَأَقْبَلَتْ عَلَيْكَ قُلُوبُهُمْ ، فَإِذَا انْصَرَفَتْ عَنْكَ قُلُوبُهُمْ فَلَا تُحَدِّثُهُمْ » قيل : « وما علامة ذلك ؟ » ، قال : « إذا التفت بعضهم إلى بعضٍ ، ورأيتهم يتشاءبون ، فلا تُحَدِّثُهُمْ » (٢) .

وعنه أيضاً قال : « إنَّ للقلوب نشاطاً وإقبالاً ، وإنَّ لها توليةً وإدباراً ؛ فحدِّثُوا النَّاسَ مَا أَقْبَلُوا عَلَيْكُمْ » (٣) .

وأوصى عبد الله بن عباس رضي الله عنه مولاه عكرمة بمراعاة نشاط الناس وإقبالهم عند التحدث إليهم .

فعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه قال : « حَدَّثَ النَّاسَ كُلَّ جُمُعَةٍ مَرَّةً ، فَإِنْ آيَتْ فَمَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ أَكْثَرَتْ فَثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، وَلَا تُمَلِّ النَّاسَ هَذَا الْقُرْآنَ ، فَلَا أَلْفِينِكَ تَأْتِي الْقَوْمَ وَهُمْ فِي حَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِهِمْ ، فَتَقْصُ عَلَيْهِمْ ، فَتَقْطَعُ عَلَيْهِمْ حَدِيثَهُمْ فَتَمْلُئُهُمْ ، وَلَكِنْ أَنْصَتْ ، فَإِذَا أَمْرُوكَ فَحَدِّثُهُمْ وَهُمْ يَشْتَهَوْنَهُ ، وَانظُرْ السَّجْعَ مِنَ الدُّعَاءِ فَاجْتَنِبْهُ ؛ فَإِنِّي عَهَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا ذَلِكَ الْاجْتِنَابَ » (٤) .

(١) أي رموك بها ، يريدُ حدِّثهم ماداموا يشتهون حديثك ، فإذا أعرضوا عنك فاسكت .

(٢) أخرجه البخاري في شرح السنة (٣١٤/١) .

(٣) أخرجه الدارمي في سننه (٦٨/١) .

(٤) أخرجه البخاري (٦٣٣٧) .

قال أبو حنيفة: «من سئل عن شيء من أخبار النبي ﷺ فحدث به، وإنه لا يبغي نشر العلم عند من لا يحرص عليه، ويحدث من يشتهي بسماعه؛ لأنه أجدر أن يتنفع به» (١).

وإنني لهذا أبتغي بقول الشيخ عبد الكريم العبداء - رحمه الله - :

إِذَا مَا رَأَيْتَ الْمَرْءَ أَعْطَاكَ سَمْعَهُ وَعَيْنَيْهِ مُهْتَمًّا وَثَلَّثَ بِالْقَلْبِ
فَحَدَّثَهُ يَفْهَمُ ، وَاسْتَمَعَ لِحَدِيثِهِ وَإِلَّا فَدَعَّهُ فَهُوَ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ

ومن أبي حمزة الثماللي قال: «سمعت الحسن يقول: «كان يقال: حدث

القوم ما حملوا»، قيل: «ما حملوا؟» قال: «ما نشطوا» (٢).

وروى الشيخ أبو حنيفة عن أبي حمزة قال: سمعت أبا العالية يقول: «حدث

القوم ما حملوا»، قيل: «ما حملوا؟» قال: «ما نشطوا» (٣).

وبين الخطيب البغدادي - رحمه الله - ضرورة توافر رغبة الناس عند

التحدث إليهم بقوله: «حق الفائدة ألا تساق إلا إلى مبتغيها، ولا تعرض إلا

على الراغب فيها، فإن رأى المحدث الفتور من المستمع فليسكت؛ فإن بعض

الأدباء قال: نشاط القائل على قدر فهم المستمع» (٤).

وقال أبو حنيفة: «ينبغي للمحدث إذا أنكر من السامع أن يستفهمه عن معنى

حديثه، فإن وجدته قد أخلص له الاستماع، أتم له الحديث، وإن كان لاهياً

عنه حرمة حسن الاستقبال عليه، ونفع الموانسة، وعرفه بسوء الاستماع والتقصير

فتح الباري، ج ١، ص ١٣٩.

أخرجه الدارمي في سننه، ج ١، ص ١٠٠.

«الجامع لأخلاق الراوي»، ج ١، ص ١٠٢.

المرجع السابق، ص ١٠٢.

في حقِّ المحدثِ « (١) » .

قال الشاعر :

مَنْ لِي بِإِنْسَانٍ إِذَا خَاصَمْتُهُ وَجَهِلْتُ كَانَ الْحَلْمُ رَدَّ جَوَابِهِ
وَإِذَا انصرفتُ إِلَى المدامِ شربتُ مِنْ أَخلاقِهِ وَسَكَرْتُ مِنْ آدَابِهِ
وَتَرَاهُ يُصْغِي لِلْحَدِيثِ بِسَمْعِهِ وَبِقَلْبِهِ ، وَلَعَلَّهُ أَدْرَى بِهِ !؟

وقال البيهقي - رحمه الله - : « إِذَا رَأَيْتَ مِنْ جَلِيسِكَ الإِعْرَاضَ عَنْكَ ، أَوْ

الانشغالَ بِأَمْرٍ آخَرَ ، فَلَا تُكَلِّفْهُ الاسْتِمَاعَ إِلَيْكَ » (٢) .

وقال أحدُهم :

يَسْتَوْجِبُ الصَّفْعَ فِي الدُّنْيَا ثَمَانِيَةً لَا لَوْمَ فِي وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِذَا صُفِعَا
ثُمَّ ذَكَرَ مِنْهُمْ

وَمُتَّحِفٌ بِحَدِيثٍ غَيْرِ سَامِعِهِ وَدَاخِلٌ فِي حَدِيثِ اثْنَيْنِ مُنْذِفِعَا (٣)

[٣] المبتدع :

وهذا الصَّنَفُ لَا يُوقَفُ إِلَيْهِ إِلَّا مَنْ آتَاهُ اللهُ الحِكمَةَ والبصيرةَ بِحالِ البدعِ وأهلها ؛ فَلأبَدٌ مِنَ التَّفَقُّهِ فِي هَذَا المَقَامِ ، فَكَمْ مِنْ طَالِبِ عِلْمٍ اسْتَعْمَلَ الحِوَارَ مع مَنْ هَذَا حاله فلم يحصدْ غيرَ الأحقادِ والشَّنَانِ .

وقد كان السَّلَفُ يَنْهَوْنَ عَنِ مُنَاطَرَةِ صاحِبِ البدعةِ المقيمِ على بدعته ، وَيُمْسِكُونَ عَنِ مُنَاطَرَتِهِ ، وَتَوَالَّتْ كَلِمَاتُ السَّلَفِ تَحذِيرًا وَتَنْبِيهًا مِنْ مُحَاوَرَتِهِمْ ، وَسَمَاعِ كَلَامِهِمْ .

(١) « رهرة الأدب » ، (١/١٩٥) .

(٢) « إصلاح المجتمع » ، (ص ٢٦) .

(٣) المرجع السابق (ص ٢٦) .

قال أبو سليمان الصابوني عن أئمة الستة :

« وَيُبْغِضُونَ أَهْلَ الْبِدْعِ الَّذِينَ أَحْدَثُوا فِي الدِّينِ مَا لَيْسَ مِنْهُ ، وَلَا يُحِبُّونَهُمْ ، وَلَا يَصْحَبُونَهُمْ ، وَلَا يَسْمَعُونَ كَلَامَهُمْ ، وَلَا يُجَالِسُونَهُمْ ، وَلَا يُجَادِلُونَهُمْ فِي الدِّينِ وَلَا يُنَاطِرُونَهُمْ ، وَيَرَوْنَ صَوْنَ آذَانِهِمْ عَنْ سَمَاعِ أَبَاطِيلِهِمْ ، الَّتِي إِذَا مَرَّتْ بِالْآذَانِ ، وَمَرَّتْ فِي الْقُلُوبِ ضَرَّتْ ، وَجَرَّتْ إِلَيْهَا مِنَ الْوَسَاوِسِ وَالْخَطَرَاتِ الْفَاسِدَةِ مَا جَرَّتْ ، وَفِيهِ أَنْزَلَ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا قَوْلُهُ : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ﴾ .

{ الأنعام : ٦٨ } « (١) .

وعن سعيد بن عامر قال : « سَمِعْتُ جَدَّتِي أَسْمَاءَ تُحَدِّثُ قَالَتْ : دَخَلَ رَجُلَانِ عَلَى مُحَمَّدَ بْنِ سِيرِينَ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ ، فَقَالَا : يَا أَبَا بَكْرٍ ، نُحَدِّثُكَ بِحَدِيثٍ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَا : فَتَقْرَأُ عَلَيْكَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَا ، لَتَقُومَنَّ عَنِّي ، أَوْ لِأَقُومَنَّ » (٢) .

أسباب زجر السلف عن مناظرة المبتدعة :

أصول تلك الأسباب ثلاثة :

أولاً : أنه لا تُرْجَى أُوْبَتُهُمْ عَنْ مَذْهَبِهِمْ إِلَى حُضِيرَةِ الْحَقِّ إِذَا ظَهَرَ لَهُمُ الْحَقُّ فِي غَيْرِهِ :

عَلَّلَ السَّلَفُ الصَّالِحُ نَهْيَهُمْ عَنْ مُنَاطَرَةِ الْمُبْتَدِعَةِ بِأَنَّهُ لَا يُطْمَعُ فِي رَجوعِهِمْ عَنْ بَدْعَتِهِمْ بِالْمُنَاطَرَةِ ، فَمُنَاطَرَتُهُمْ شُغْلٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ ، وَمَالَهَا إِلَى الْمَرَاءِ .

قال أبو القاسم الاصبهاني : « قَالَ عُلَمَاءُ السَّلَفِ : مَا وَجَدْنَا أَحَدًا مِنْ

(١) « عقيدة السلف أصحاب الحديث » (رقم ١٦١ / ص ١٠٠ - ١٠١) .

(٢) أخرجه الدارمي (١/١٠٩) ، واللالكائي (٢٤٢) .

المتكلمين في ماضي الأزمان إلى يومنا هذا رَجَعَ إلى قول خَصْمِهِ ، ولا انتقلَ عن مذهبه إلى مذهب مُناظره ، فدلَّ أَنَّهُم اشتغلوا بما تركه خَيْرٌ من الاشتغال به» (١) .

وقال الإمام العزَّاز بن عبد السلام واصفاً الخوَارِزْمِيَّ مع اهلِ البدعِ : « إِنَّ البَحْثَ معهم ضائعٌ ، مُفضٍ إلى التَّقَاطُعِ والتَّدَابُرِ من غَيْرِ فائِدةٍ يَجْنِيها ، وما رأيتُ أحداً رَجَعَ عن مذهبه إذا ظَهَرَ له الحقُّ في غيره ، بل يُصِرُّ عَلَيْهِ مع عِلْمِهِ بضعفه ويُعَدُّهُ » (٢) .

فإن قلتُ : إنَّ ابنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنه ناظر الخوارج فرَجَعَ منهم أُلْفَانِ . فالجوابُ : أنَّ هناك فرقٌ بين حديثِ عَهْدِ ببدعةٍ ، وبين المقيمِ على البدعةِ ، فالمقيمِ على البدعةِ قد اعتقدَ البدعةَ التي انتحلها اعتقاداً رَسَخَ فيه ، فمثل هذا لا يُطْمَعُ في رجوعه إلاَّ أن يشاءَ اللهُ ، وأما مَنْ كان حديثِ عَهْدِ ببدعةٍ ، فمثل هذا يُرجى رجوعه ، إن كان الرَّجُلُ فيه إنصافٌ وذكاءٌ .

وهذا الإمام أحمد يُقرِّرُ أنَّ مَنْ انتحلَ ضلالةً ، وشابَّ عليها أَنَّهُ لا يكادُ ينزعُ عنها ، فقال - رحمه اللهُ - : « الشَّيْخُ لا يكادُ يُسَلِّمُ ، والشَّابُّ أَقْرَبُ إلى الإسلامِ » (٣) .

ويُقرِّرُ الإمامُ الشَّافعيُّ - رحمه اللهُ - هذا ، ويقول : « ما ناظرتُ أحداً علمتُ أَنَّهُ مقيمٌ على بدعةٍ » (٤) .

قال البيهقيُّ مُعلِّقاً على كلامِ الإمامِ الشَّافعيِّ - رحمه اللهُ - : « وهذا لأنَّ المقيمِ

(١) « الحجَّةُ في بيانِ المحجة » (١) / ١٠ - ١٠١ .

(٢) « قواعد الأحكام » (٢) / ١٣٥ بتصرفٍ .

(٣) « المغني » لابن قدامة (٨) / ٢٧٧ .

(٤) « مناقب الشَّافعيِّ » للبيهقي (١) / ١٧٥ .

على البدعة قلماً يرجع بالمناظرة عن بدعته ، وإنما كان يُناظرُ مَنْ يَرْجُو رجوعَهُ إلى الحقِّ إذا بيَّنه له « (١) (٢) .

وهذا الكلام من السلف في عدم رجوع المقيم عن بدعته هو الغالب ، ولكن قد حصلَ شذوذٌ في ذلك ، فربَّما رَجَعَ المقيم على البدعة عن بدعته ، والشاذُّ يُحَفِّظُ ولا يُقَاسُ عليه (٣) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « هذا أبو الحسن الأشعريُّ نشأ في الاعتزال أربعين عاماً يُناظرُ عليه ، ثم رَجَعَ عن ذلك ، وصرَّح بتضليل المعتزلة ، وبالعَ في الردِّ عليهم » (٤) .

ثانياً : إمامة ذكرهم حتَّى لا يُعرَفوا بين الناس فتشتهر بدعهم وشبههم : إذا كان المبتدعة مقيمون في بلد السنة ، والحقُّ ظاهرٌ قد عرفه المسلمون ، وجب الإمساكُ عن مناظرتهم منعاً لظهورهم واشتهار شبههم ؛ فإنَّهم إنْ ظهروا واشتهروا تضرَّرَ بذلك المسلمون - ولاسيما العامة الجهلة - أشدَّ الضرر .

قال الإمام مسلمٌ - رحمه الله - : « الإعراضُ عن القولِ المُطَّرَحِ (٥) أخرى لإمامته ، وإخماد ذكر قائله ، وأجدرُ ألا يكونَ ذلك تنبيهاً للجَهَّالِ عليه » (٦) .

وقال الإمام اللالكاشي : « فما جني على المسلمين جناية أعظم من مُناظرة المبتدعة ، ولم يكن قهراً ولا دُلُّ أعظم ممَّا تركهم السلف على تلك الجملة ، يموتون من الغيظ كَمَدًّا ودرداً ، ولا يجدون إلى إظهارِ بدعتهم سبيلاً ، حتَّى

(١) المرجع السابق (١٧٥/١) .

(٢) انظر « أصول الجدل والمناظرة » (ص ٢٣٨-٢٣٩) .

(٣) المرجع السابق (ص ٢٤١) .

(٤) « نقض المنطق » (ص ٦) .

(٥) القول المُطَّرَحُ : المُبَعَّدُ والرَّمْيُ من اضطرح الشيء : أبعده ورماه .

(٦) مقدِّمة الصحيح (ص ٢٨) .

جاء المغرورون ففتحوا لهم إليها طريقاً ، وصاروا إلى هلاك الإسلام دليلاً ، حتى كثرت بينهم المشاجرات ، وظهرت دعوتهم بالمناظرة ، وطرقت أسماع مَنْ لم يكن عرفها من الخاصة ، والعامّة ، حتى تقابلت الشبه في الحجج ، وبلغوا من التدقيق في اللّجج ، فصاروا أقراناً ^(١) وأخذاناً ^(٢) ، وعلى المداهمة خلاناً ^(٣) وإخواناً ، بعد أن كانوا في دين الله أعداءً وأصداداً ، وفي الهجرة في الله أعواناً ، يكفرونهم في وجوههم عياناً ، ويلعنونهم جهاراً ، وشتان ما بين المنزلتين ، وهيهات ما بين المقامين « ^(٤) .

وقال العلامة بكر أبو زيد : « نصيحتي لكل مسلمٍ سلّم من فتنة الشبهات في الاعتقاد : أن البدعة إذا كانت مقموعة خافتة ، والمبتدع إذا كان منقمعاً مكسوراً النفس بكبت بدعته ، فلا يُحرّك النفوس بتحريك المبتدع وبدعته ؛ فإنها إذا حرّكت نمت وظهرت ، وهذا أمرٌ جبّلت عليه النفوس ومنه في الخير أن النفوس تتحرّك إلى الحجّ إذا ذكرت المشاعر ، وفي الشرّ إذا ذكرت النساء والتغزل والتشبيب بهنّ ، تحرّكت النفوس إلى الفواحش .

وهذا الكتمان والإعراض في باب المجاهدة والجهاد ، فكما يكون الحق في الكلام ، فإنه يكون في السكوت والإعراض ، فتزل كل حالة منزلتها ، والله أعلم « ^(٥) .

واعلم - أخي المحاور - أنك لن تردّ عليهم بشيءٍ أشدّ من السكوت والإمساك عن مناظرتهم .

أقراناً : جمع قرن ، وهو النظير والمثيل .

أخذاناً : جمع خدن ، وهو الصديق .

خلاناً : جمع خليل ، وهو الصديق .

« شرح أصول الاعتقاد »

« هجر المبتدع »

قال الآجري : « سكوتك عنهم ، وهجرتك لما تكلموا به أشدُّ عليهم من مناظرتك لهم ، كذا قال مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ علماءِ المسلمين » (١) .
وأما إذا كان الباطلُ ظاهراً على الحقِّ ، والبدعُ منتشرةً رائجةً ، فلا بُدَّ من الرَّدِّ والمناظرةِ .

قال ابن قتيبة - رحمه الله - في السكوت :

« وإنَّما يجوز أن يُؤمرَ بهذا قَبْلَ تَفَاقُمِ الأمرِ ، ووقوعِ الشَّحناءِ ، وليس في غرائزِ النَّاسِ احتمالُ الإمساكِ عن أمرٍ في الدِّينِ قد انتشرَ هذا الانتشارُ ، وظهرَ هذا الظُّهورُ ، ولو أمسكَ عقلاؤهم ما أمسكَ جهلاؤهم ، ولو أمسكتِ الألسنةُ ما أمسكتِ القلوبُ ، وقد كان لهؤلاءِ أسوةٌ فيمن تقدَّم من العلماءِ حينَ تكلمَ جهنمُ وأبو حنيفةُ في القرآنِ ، ولم يكن دار بين النَّاسِ قبل ذلك ولا عُرِفَ ، ولا كان ممَّا تكلمَ النَّاسُ فيه ، فلما فرغ النَّاسُ إلى علمائهم لم يقولوا : هذه بدعةٌ لم يتكلمَ النَّاسُ فيها ، ولم يتكلَّفوها ، ولكنَّهم أزالوا الشكَّ باليقينِ ، وجلوا الحيرةَ ، وكشفوا الغمَّةَ ، وأجمع رأيهم على أنه غير مخلوقٍ ، فأفتوهم بذلك ، وأدلوا بالحججِ والبراهينِ ، وناظروا وقاسوا ، واستنبطوا الشَّواهدَ من كتابِ الله عزَّ وجلَّ » (٢) .

ثالثاً : الاحتراز من فتنتهم :

ومن الأسبابِ أيضاً في زجرِ السَّلَفِ عن مُناظرةِ المبتدعةِ خوْفُهم على أنفسهم وعلى غيرهم من أن تُفسدَ قلوبُهُمُ البدعُ والشُّبهاتُ ، ولاسيما العامَّةُ الجُهلةُ .

(١) « الشريعة » (١/١٩٦) .

(٢) « الاختلاف في اللَّفظِ والرَّدِّ على الجهمية » (ص ٦٠ - ٦١) .

قال الراغب الاصفهاني: « كُرِهَ لِلْعَامَّةِ أَنْ يُجَالِسُوا أَهْلَ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ ؛ لِثَلَاثٍ يَغْوُوهُمْ ، فَالْعَامِيُّ إِذَا خَلَا بِذَوِي الْبِدَعِ كَالشَّاةِ إِذَا خَلَا بِهَا السَّبُعُ » (١) .

وقال الاوزاعي - رحمه الله - : « لَا تُمَكِّنُوا صَاحِبَ بَدْعَةٍ مِنْ جَدَالٍ ، فَيُورِثُ قُلُوبَكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ ارْتِيَابًا » (٢) .

وقال الحسن البصري: « لَا تُمَكِّنْ أذُنَيْكَ مِنْ صَاحِبِ هَوًى ، فَيَمْرُضُ قَلْبَكَ » (٣) .

وقال مفضل بن مهمل: « لَوْ كَانَ صَاحِبُ الْبَدْعَةِ إِذَا جَلَسْتَ إِلَيْهِ يُحَدِّثُكَ بِبِدْعَتِهِ ، حَذَرْتَهُ وَقَرَّرْتَ مِنْهُ ، وَلَكِنَّهُ يُحَدِّثُكَ بِأَحَادِيثِ السُّنَّةِ فِي بَدْءِ مَجْلِسِهِ ، ثُمَّ يَدْخُلُ عَلَيْكَ بِدْعَتَهُ ، فَلَعَلَّهَا تَلْزِمُ قَلْبَكَ ، فَمَتَى تَخْرُجُ مِنْ قَلْبِكَ ؟! » (٤) .

وقال بعض أئمة السلف: « مَنْ أَصْغَى سَمْعَهُ إِلَى صَاحِبِ بَدْعَةٍ - وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ صَاحِبُ بَدْعَةٍ - نَزَعَتْ مِنْهُ الْعِصْمَةَ ، وَوَكِلَ إِلَى نَفْسِهِ » (٥) .

وقال سفيان الثوري: « مَنْ سَمِعَ بِبَدْعَةٍ فَلَا يَحْكُمُاجِلْسَائِهِ ؛ لَا يُلْقِيهَا فِي قُلُوبِهِمْ » (٦) .

أورده الذهبي في السير ، وعقب عليه بقوله : « أَكْثَرُ أئِمَّةِ السَّلَفِ عَلَى هَذَا التَّحْذِيرِ ، يَرَوْنَ أَنَّ الْقُلُوبَ ضَعِيفَةٌ ، وَالشُّبُهَةَ خَطَافَةٌ » (٧) .

وقال ابن بطه: « فَاللَّهُ اللَّهُ مَعَشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، لَا يَحْمَلَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ حُسْنَ ظَنِّهِ

(١) « الذريعة إلى مكارم الشريعة » (ص ٢٤٢) .
 (٢) « البدع والنهي عنها » (رقم ١٥١ / ص ١١٦) .
 (٣) أخرجه ابن وضاح في البدع (ص ٥٠) .
 (٤) « الإبانة في أصول الديانة » (ص ٣٩٤) .
 (٥) « البدع والنهي عنها » (ص ٤٨) .
 (٦) « شرح السنة » (١/ ٢٢٧) ، و« الامر بالاتباع » (ص ٧٤) .
 (٧) « سير أعلام النبلاء » (٧/ ٢٦١) .

بنفسه ، وما عهدَهُ من معرفته بصحّة مذهبه علي المُخاطرةِ بدينه في مجالسةِ أهل الأهواء ، فيقول : أداخله لأناظرُهُ ، أو لأستخرجَ منه مذهبه ؛ وإنهم أشدُّ فتنةً من الدجاجِ ، وكلامهم ألصقُ من الجربِ ، وأحرقُ للقلوبِ من اللهبِ ، ولقد رأيتُ جماعةً من النَّاسِ كانوا يلعنونهم ويسبُّونهم ، فجالسوهم على سبيلِ الإنكارِ والرّدِّ عليهم ، فمازالتُ بهم المباسطة ، وخفي المكر ، ودقيق الكفر حتّى صبُّوا إليهم « (١) .

فهذه طريقة الرَّاسخِ المُدرِكِ لصحّة ما يعلمه ويعتقده ، أمّا الَّذي يتلمّسُ الحقَّ في مُناظرةِ المبتدعةِ والضلالِ ، فهذا قد جوزَ وجودَ الحقِّ في قولهم ، فلن يكنُ عنده علمٌ جازمٌ ، بل ولا ظنُّ راجحٌ ، بل شكٌّ وجهالةٌ ، أمّا مُناظراتِ السلفِ لأهلِ الباطلِ فهي على سبيلِ قطعِ شرِّهم ، لا على سبيلِ تلمُّسِ الحقِّ في أقوالهم .

وإياك - أيها السنيُّ - أن يُلبسَ عليك إبليسُ ، فيتدرجَ معك إلى سماعِ شبهِ الأهواءِ مع عدمِ قبولها ، ثم تأسرَ قلبك شبهةً قد لا تنفكُ عنها (٢) .

قال البيهقي: « وإذا أردتَ الاستقامة على الحقِّ وطريقِ أهلِ السنةِ ، فاحذرِ الكلامَ ، وأصحابِ الكلامِ ، والجدالِ والمراءِ ، والقياسِ ، والمناظرةِ في الدينِ ؛ فإنَّ استماعك منهم - وإن لم تقبلْ منهم - يقدحُ الشكَّ في القلبِ ، وكفى به قبولاً فتهلك ، وما كانت زندقةً قطُّ ، ولا بدعةً ولا هوىً ، ولا ضلالةً إلا من الكلامِ ، والجدالِ ، والمراءِ ، والقياسِ ، وهي أبوابُ البدعةِ ، والشكوكِ ، والزندقَةِ « (٣) .

وقال ابن الوزير : « وردت نُصوصٌ تقتضي العِلْمَ - أو الظَّنَّ - أن الخَوْصَ في علم الكلام على وجه التَّقْصِي للشُّبْهَةِ ، والإِصْغَاءِ إليها ، والتَّفْتِيشِ عن مباحث الفلاسفة والابتدعة المُشْكَلَةِ في كثيرٍ من الجليّاتِ ، مَضْرَّةٌ عَظِيمَةٌ ، مُمْرِضَةٌ لكثيرٍ من القلوب الصَّحِيحَةِ ، ودَفْعُ المَضْرَةِ المَظنونَةِ واجبٌ عقلاً ، وقد شَهِدَتْ بِذلك التَّجَارِبُ مع النُّصوصِ ، وُضِلَّ بسببِهِ اثنتانِ وسَبْعُونَ فِرْقَةً » (١) .

واعلمُ أخي المحاورُ أن أشدَّ أهل البدع زيفاً همُ الرَّافِضَةُ غُلاةُ الشَّيْعَةِ ، ففِرٌّ من هذا الصَّنْفِ فرارَكُ من الأسدِ .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في شأنهم :

« والرَّافِضَةُ لا تعتنِي بحفظ القرآن ، ومعرفة معانيه وتفسيره ، وطلب الأدلَّةِ الدَّالَّةِ على معانيه ، ولا تعتنِي - أيضاً - بحديث رسول الله ﷺ ومعرفة صحَّيْهِ من سَقِيمِهِ ، والبَحْثُ عن معانيه ، ولا تعتنِي بآثار الصَّحابة والتَّابعين ، حتَّى تعرف ما أخذهم ومسالكهم ، ويُرد ما تنازعوا فيه إلى الله والرَّسولِ ، بل عُمِدَتِهِمْ آثارٌ تُنْقَلُ عن بعضِ أهلِ البيتِ ، فيها صِدْقٌ وكَذِبٌ » (٢) .

وقال أيضاً : « وليس في شيوخ الرَّافِضَةِ إمامٌ في شيءٍ من علومِ الإسلامِ : لا علم الحديث ، ولا الفقه والتفسير ، ولا القرآن ، بل شيوخ الرَّافِضَةِ إمَّا جاهلٌ ، وإمَّا زنديقٌ كشيوخِ أهلِ الكتابِ » (٣) .

وقال : « ولا ريبَ أن الرَّافِضَةَ أَجْهَلُ وأَقْلُ من أن يُناظروا علماء السُّنَّةِ ، لكن يُناظر بعضهم بعضاً ، كما يتناظرون - دائماً - في المَعدومِ ، هل هو شيءٌ ، أو ليس بشيءٍ ؟ ! » (٤) .

(١) « ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان » (ص ٤٥ - ٤٦) .

(٢) « منهاج السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ » (٢/٢٣٤) .

(٣) المرجع السابق (٥/١٦٣-١٦٤) .

(٤) المرجع السابق (٢/٨٠-٨١) .

ومن المعلوم أن من شروط المناظرة الرجوع والرد إلى أصول وكليات مُتَّفَقٍ عليها ، وهذا مفقودٌ مع الرأفة ، فلا يمكن أن تنتظم معهم مناظرة .

قال شيخ الإسلام عنهم : « ثُمَّ إِنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ إِذَا قَالَ قَوْلًا لَا يَطْلُبُ دَلِيلَهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَلَا مَا يُعَارِضُهُ ، وَلَا يَرُدُّونَ مَا تَنَازَعَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، كَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ ، بَلْ قَدْ أَصَلُوا لَهُمْ ثَلَاثَةَ أَصُولٍ :

أحدها : أن هَؤُلَاءِ مَعْصُومُونَ .

والثاني : أن كُلَّ مَا يَقُولُونَهُ مَنقُولٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ .

والثالث : أن إجماع العترة حُجَّةٌ ، وهؤلاء هم العترة .

فصاروا لذلك لا ينظرون في دليل ولا تعليل ، بل خرجوا عن الفقه في الدين كخروج الشعرة من العجين » (١) .

وقال العلامة بكر أبو زيد : « واعلم أن كلَّ الفرقِ تمكنُ مناظرتها إلا الرأفة ؛ لأنه لا بُدَّ للمتناظرين من أصل يرجعان إليه (الكتاب والسنة) وهم لا يؤمنون بالسنة إلا ما كان من طريق آل البيت ، وإن القرآن فيه تحريفٌ ونقصٌ . . ولهذا لا تُباحثهم في الأصول أو الفروع ، ما لم تُقرّرهم على المرجع في المناظرة ، ولن يُقرّوك ، فتقطع المناظرة من أصلها ، فاحتفظ بهذه الفائدة ، واحذر منهم التقية ، والله أعلم » (٢) .

فهؤلاء إن استدلوا بالقرآن والسنة ، فإنما يفعلون ذلك تقيّةً ، مع ما في نقولهم من الكذب ، والزيادة ، والتحريف ما هو معلومٌ لمن له خبرةٌ بهم .

قال الحافظ الذهبي في شأنهم : « تراهم - دائماً - يحتجّون بالموضوعات ، ويكذبون بالصّحاح ، وإذا استشعروا أدنى خوفٍ لزموا التقية ، وعظّموا

(١) المرجع السابق (٧/٢٨-٢٨٧) .

(٢) « التعالم » (ص ١١٢) تَمَّةٌ حاشية رقم (١) من (ص ١١١) .

الصَّحِيحِينَ ، وَعَظَّمُوا السُّنَّةَ ، وَلَعَنُوا الرَّفْضَ وَأَنكَرُوا ، فَيُعَلِّمُونَ بِلَعْنِ أَنفُسِهِمْ شَيْئًا مَا يَفْعَلُهُ الْيَهُودُ وَلَا الْمَجُوسُ بِأَنفُسِهِمْ « (١) .

واعلمُ أنَّ الرَّافِضَةَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْفَلَّاسِفَةِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ إِنَّا احْتَجَّاجُهُمْ بِالْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ دَفْعًا لِلخَصْمِ ، لَا اهْتِدَاءً بِهِ وَاعْتِمَادًا عَلَيْهِ (٢) .

[٤] الْمَتَعَنَّتْ :

وَالْمَتَعَنَّتْ قَدْ يَكُونُ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إِمَّا جَاهِلٌ جَهْلٌ مُرَكَّبٌ ، أَوْ أَحْمَقٌ لَثِيمٌ لَا دَوَاءَ لَهُ إِلَّا بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ ؛ فَإِنَّهُ إِنْ وَافَقْتَهُ خَالَفَكَ ، وَإِنْ خَالَفْتَهُ عَارِضَكَ ، وَإِنْ أَكْرَمْتَهُ أَهَانَكَ ، وَإِنْ أَهْتَهُ أَكْرَمَكَ ، وَإِنْ تَبَسَّمتَ لَهُ كَشَّرَكَ لَكَ ، وَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ اغْتَمَّ ، وَإِنْ أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ اغْتَرَّ ، وَإِنْ حَلَمْتَ عَنْهُ جَهَلَ عَلَيْكَ ، وَإِنْ جَهَلْتَ عَلَيْهِ حَلَمَ عَنْكَ .

قال ابن حبان - رحمه الله : « من علامات الحمق التي يجبُ على العاقلِ تَفَقُّدُهَا مِنْ خَفِيِّ عَلَيْهِ أَمْرُهُ : سُرْعَةُ الْجَوَابِ ، وَتَرْكُ التَّشَبُّهِ ، وَالْإِفْرَاطُ فِي الضَّحْكِ ، وَكَثْرَةُ الِاتِّفَاتِ ، وَالْوَقِيعَةُ فِي الْأَخْيَارِ ، وَالِاخْتِلَاطُ بِالْأَشْرَارِ ، وَالْأَحْمَقُ إِذَا أَعْرَضْتَ عَنْهُ اغْتَمَّ ، وَإِنْ أَقْبَلْتَ عَلَيْهِ اغْتَرَّ ، وَإِنْ حَلَمْتَ عَنْهُ جَهَلَ عَلَيْكَ ، وَإِنْ جَهَلْتَ عَلَيْهِ حَلَمَ عَنْكَ ، وَإِنْ أَسَأْتَ إِلَيْهِ أَحْسَنَ إِلَيْكَ ، وَإِنْ أَحْسَنْتَ إِلَيْهِ أَسَاءَ إِلَيْكَ ، وَإِنْ ظَلَمْتَهُ انْتَصَفْتَ مِنْهُ ، وَيَظْلِمُكَ إِذَا أَنْصَفْتَهُ ، وَمَا أَشْبَهَ عَشْرَةَ الْحَمَقِيِّ إِلَّا بِمَا أَنشَدَنِي مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ الْوَاسِطِيُّ :

لِي صَدِيقٌ يَرَى حُقُوقِي عَلَيْهِ نَافِلَاتٍ ، وَحَقُّهُ كَانَ فَرَضًا
لَوْ قَطَعْتُ الْجِبَالَ طُولًا إِلَيْهِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِ طُولِهَا سِرْتُ عَرَضًا

(١) « ترتيب الموضوعات » (ص ١٢٤) .

(٢) « الفتاوى » (١٠/٣٥٥) .

لَرَأَى مَا صَنَعْتُ غَيْرَ كَبِيرٍ وَاشْتَهَى أَنْ أُرِيدَ فِي الْأَرْضِ أَرْضًا» (١)

وقال إمام الحرمين الجويني - رحمه الله - : « وعليك الألف تفتح بالمناظرة مَنْ تعلمه متعتنا ؛ لأنَّ كلام المتعنت وَمَنْ لا يقصد مرضاة الله في تعرف الحق والحقيقة بما تقوله ، يورثُ المباهاة ، والضَّجَر ، وحُزْنَ القلبِ ، وتعدي حدود الله سبحانه في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وإن لم تعلمه كذلك حتى فاتحته بالكلام ، ثم علمته عليه ، وجبَ عليك الإمساكُ عن مناظرته ، فإن رأيت نُصْرَةَ دين الله سبحانه في الإمساك عنه ، زدت في الحدِّ ، وبألغت في التحرُّر عنه » (٢) .

قال الأخ عبد الكريم العماد :

واتركُ مُحَاوَرَةَ اللَّئِيمِ فَإِنَّهَا كَالْمَاءِ يُلْقَى فِي فَمِ الصَّحْرَاءِ
أَتَعَبْتَ نَفْسَكَ فِي احْتِرَامِكِ قَدْرَهُ وَأَهَانَ قَدْرِكَ دُونَ أَيِّ عَنَاءِ

وقال الأديب ابن هزيم - رحمه الله - : « واحذر من مكالمة مَنْ ليس مذهبه إلاَّ المضادة والمخالفة » (٣) .

قال عبد الكريم العماد :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَسْمَعْ حَدِيثِي مُقْبِلًا وَعَارَضْتَنِي فِي كُلِّ قَوْلٍ أَقُولُهُ
لَمَلَّتْكَ نَفْسِي ثُمَّ عَافَكَ^(٤) نَاطِرِي وَفَاتَكَ قَلْبِي ، ثُمَّ رَادَ أَقْوَلُهُ^(٥)

ولا يدخل في ذلك إعراض الفُسَّاق والمجرمين عن حديث المحاور الأمر

(١) « روضة العقلاء » (ص ١١٩) .

(٢) « الكافية في الجدَل » (ص ٥٣٢) .

(٣) « التَّحْرِيْبُ لِحَدِّ الْمُنْطِقِ » (ص ١٩٦) .

(٤) عَافَ الشَّيْءُ : كَرِهَهُ .

(٥) أَقْوَلُهُ : غَيَّبَهُ .

بالمعروف ، والنَّاهي عن المنكر ، ولا سِيَّما إذا كَانَ لَطِيفًا رَفِيقًا ، فالعيب ليس فيه وإنما فيهم .

قال الشاعر:

وَمَا عَلَى الْعَنْبِرِ (١) الْفَوَاحِ مِنْ حَرَجٍ
إِنْ مَاتَ مِنْ شَمِّهِ الزَّبَالُ وَالْجَفَلُ؟!

وقال آخر:

عَجِبْتُ لَهُمْ قَالُوا: تَمَادَيْتَ فِي الْمُنَى (٢)
فَأَقْصِرْ وَلَا تُجْهِدْ يِرَاعَكَ (٣) إِنَّمَا
فَقُلْتُ لَهُمْ: مَهْلًا فَمَا الْيَاسُ شِيْمَتِي (٤)
إِذَا أَنَا أَبْلَغْتُ الرِّسَالَةَ جَاهِدًا
وفي المثل العُلْيَا وفي المُرْتَقَى الصَّعْبِ
سَتَبْدُرُ حَبًّا فِي ثَرَى لَيْسَ بِالْخَصْبِ
سَأَبْدُرُ حَبِّي وَالثُّمَارُ مِنَ الرَّبِّ
وَلَمْ أَجِدْ السَّمْعَ الْمُجِيبَ فَمَا ذَنْبِي؟!

[٥] الغضب

ويجملُ بك - أخي المحاور - أن تسكتَ إذا غَضِبَ مَنْ تُحَاوِرُ ، حتَّى تهدأَ
الثَّائِرَةُ ، وتبرد المشاعرُ ، وتسكن اضطراباتُ النَّفْسِ ، ويتأكد ذلك منك إذا اشتدَّ
به الغضبُ ، فأخذَ منه كُلَّ ماخِذٍ ، فمتى واجهته - وهو بهذه الحال - كنتَ
كعاقلٍ واجهَ مجنونًا ! .

قال الإمام ابن الجوزي: « متى رأيتَ صاحبَكَ قد غَضِبَ ، وأخذَ يتكلَّمُ بما لا
يصلحُ ، فلا ينبغي أن تعقدَ على ما يقوله خنصرًا (٥) (أي لا تعتدَّ به ، ولا
تلتفتَ إليه) ولا أن تؤاخذه به ؛ فإنَّ حالَهُ حالُ السُّكرانِ لا يدري ما يجري ،

(١) العنبر: مادة صلبة ، تنبعث منها رائحة زكية إذا أُحرقت .

(٢) المنى: الأحلام ، واحدها منية .

(٣) اليراع: جمع يراعة ، وهي القلم .

(٤) الشيمة: الخلق والطبيعة ، جمعها شيم .

(٥) الخنصر: أصغر أصابع اليد .

بل اصبر ولو فترة ، ولا تعول عليها ؛ فإن الشيطان قد غلبه ، والطبع قد هاج ،
والعقل قد استتر ، ومتى أخذت في نفسك عليه ، أو أجبتة بمقتضى فعله ،
كنت كعاقلٍ واجه مجنوناً ، أو مُفِيقٍ عاتبٍ مُغْمَى عليه ، فالذنب لك ، بل انظر
إليه بعين الرحمة ، وتلمح تصريف القدر له ، وتفرج في لعب الطبع به ،
واعلم أنه إذا انتبه ندم على ما جرى ، وعرف لك فضل الصبر ، وأقل الأقسام
أن تسلمه فيما يفعل في غضبه إلى ما يستريح به .

وهذه الحالة ينبغي أن يتلمحها الوالد عند غضب الوالد ، والزوجة عند
غضب الزوج ، فتتركه يشفى بما يقول ، ولا تعول على ذلك ، فسيعود نادماً
معتذراً ، ومتى قوبل على حالته ومقاتته ، صارت العداوة متمكنة ، وجازى في
الإفاقة على ما فعل في حق وقت السكر .

وأكثر الناس على غير هذا الطريق ، متى رأوا غضباً قابلوه بما يقول
ويعمل ، وهذا على غير مقتضى الحكمة ، بل الحكمة ما ذكرت ، وما يعقلها إلا
العالمون « (١) .

قال الاخ عبد الكريم العماد :

دَعُ الغَضْبَانَ يُخْرِجْ مَا لَدَيْهِ وَأَحْسَنْتَ الصَّنِيعَ إِذَا سَكْتَنَا
وإن جَادَلْتَهُ والنَّارُ فِيهِ فَأَنْتَ تَصُبُّ فِي النيرانِ زَيْتَنَا

[٦] النَّقِيل :

إذا رأيت - أخي الحبيب - محاورك لا يُحسِنُ الحوارَ فيفيدك ، ولا الاستماعَ
فيستفيد منك ، لا يأنفُ عن مواجهتك بما تكره ، هائماً على وجهه ، لا ينتهي
له صياحٌ ، ولا تنحبس له شرّة (٢) ، فإياك وإياه .

(١) « صيد الخاطر » (ص ٢٢٥ - ٢٢٦) .

(٢) الشرّة : الشر والحدة عند الغضب .

قال ابن القيم الجوزي: « ومنهم من مخالطته حمى الروح ، وهو الثَّقِيلُ البغيضُ العقل الذي لا يُحسِنُ أن يتكلَّمَ فيفيدك ، ولا يُحسِنُ أن يُنصتَ فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها ، بل إن تكلمَ فكلامه كالعصا تنزلُ على قلوب السَّامعين ، مع إعجابه بكلامه وفرحه به ، فهو يُحدِّثُ من فيه كَلِّمَا تحدَّثَ ، ويظنُّ أنه مسكٌ يطيب به المجلس ، وإن سكَّتْ فاثقلُ من نصفِ الرِّحَى (١) العظيمة التي لا يُطاقُ حملُها ، ولا جرُّها على الأرضِ » (٢) .

قال الشاعر :

لَمَّا تَبَدَّلَتْ الْمَجَالِسُ أَوْجَهَا غَيْرَ الَّذِينَ عَهَدْتُ مِنْ عُلَمَائِهَا
وَرَأَيْتَهَا مَحْفُوفَةً بِسِوَى الْأَلَى كَانُوا وُلَاةَ صُدُورِهَا وَفَنَائِهَا
أَنْشَدْتُ بَيْنًا سَائِرًا مُتَقَدِّمًا وَالْعَيْنُ قَدْ شَرَقَتْ بِجَارِي مَائِهَا
أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ وَأَرَى نِسَاءَ الْحَيِّ (٣) غَيْرَ نِسَائِهَا (٤)

[٧] السَّفِيهِ :

ليس من الحكمة أن تُحاوِرَ السُّفَهَاءَ ؛ لِأَنَّ السَّفِيهَ لَا رُشْدَ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ ، فَكَيْفَ يُرْجَى تَلَمُّسُ الْحَقِّ فِي مُحَاوَرَتِهِ وَمُنَاطَرَتِهِ ؟ ! .

ولقد أمر الله سبحانه وتعالى بالإعراضِ عن السُّفَهَاءِ فقال : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) ﴾ { الأعراف : ١٩٩ } .

قال معاوية رضي الله عنه : « فَأَمَّا السَّفِيهُ فَلَا يُؤْمِنُ عَلَى الشَّرِّ وَلَا يُرْجَى لِلنَّصِيحَةِ » (٥) .

(١) الرِّحَى : حَجَرُ الطَّاحُونِ ، جَمَعُهَا أَرْحَاءُ .

(٢) « بدائع الفوائد » لابن القيم (٢/٢٧٤-٢٧٥) .

(٣) الحَيِّ : الْقَبِيلَةُ .

(٤) « صفحة من صبر العلماء على الشدائد والتحصي » (ص ٢٦٥-٢٦٦) .

(٥) « الفنون » (١/٧٦) .

وقال الباجي : « ولا يُناظر من عادته التَّسْفُهُ في الكلام ، ولا مَنْ عادتهُ التَّفْطِيعُ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَسْتَفِيدُ بِكَلَامِهِ فَائِدَةً » (١) .

قال صالح بن عبد القدوس :

وَإِذَا حَمَلْتَ إِلَى سَفِيهِ حِكْمَةً فَلَقَدْ حَمَلْتَ بِضَاعَةً لَا تَنْفَعُ (٢)

وقال عبد الكريم العماد :

يُؤْذِنِي السَّفِيهِ ، مَتَى أَرَاهُ لَزِمْتُ الصَّمْتَ ، لَا أَبْدِي كَلَامًا
فَلَيْسَ سِوَى الْإِجَابَةِ عَنْ سُؤَالٍ وَغَيْرِ الرَّدِّ أَنْ أَلْقِيَ السَّلَامَا

وقال آخر :

لَا تُرْجِعَنَّ إِلَى السَّفِيهِ خَطَابَهُ إِلَّا جَوَابَ تَحِيَّةٍ حَيَّاكَهَا
فَمَتَى تُحَرِّكُ جِيفَةً تَزْدَادُ نَتْنَا ، إِنْ أَرَدْتُ حِرَاكَهَا (٣)

وقال ابن المتفحج : « واعلم أنك ستبتلى من أقوام بسفه سيطلع منك حقدًا ؛ فإن عارضته ، أو كافأته بالسفه ، فكأنك رَضِيتَ ما أتى به ، فأحببت أن تحتدي على مثاله ، فإن كان ذلك عندك مذمومًا ، فحققْ ذمَّكَ إِيَّاهُ بتركِ معارضته ، فأما أن تذمه وتمثله (٤) ، فليس في ذلك سدادٌ » (٥) .

قال الشاعر :

وَقُلْ لِبَنِي سَعْدٍ : فَمَا لِي وَمَا لَكُمْ تَرَقُّونَ مِنِّي مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَعْتَقُوا؟
أَعْرَكُمُ أَنِّي بِأَحْسَنِ شِيْمَةٍ بَصِيرٌ وَأَنِّي بِالْفَوَاحِشِ أَخْرَقُ (٦) ؟!

(١) « المنهاج بترتيب الحجاج » (ص ١٠) .

(٢) « جامع بيان العلم » (١/١١١) .

(٣) « الحلم » لابن أبي الدنيا (ص ٣٢) .

(٤) تمثله : تحتذيه وتسلك طريقه .

(٥) « الأدب الصغير والأدب الكبير » (ص ١٥٥) .

(٦) « أخرق : جاهل .

وَرِنَ تَكُ قَدْ فَاحَشْتَنِي فَقَهَرْتَنِي هِنِيئًا مَرِيئًا أَنْتَ بِالْفُحْشِ أَحَدَقُ (١) (٢)
 وإذا ما أرادَ السَّفِيهَ أَنْ يَبْدَأَ بِالسَّفَاهَةِ ، فَمَا أَجْمَلَ الْإِعْرَاضَ عَنْهُ ، وَتَجَاهَلَ
 حَوَارِيهِ ! ، وَصَدَقَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ الْقَائِلُ :
 أَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِ السَّفِيهِ فَكُلُّ مَا قَالَ فَهُوَ فِيهِ
 مَا ضَرَّ نَهْرَ الْفُرَاتِ يَوْمًا لَوْ خَاضَ بَعْضُ الْكِلَابِ فِيهِ (٣)
 انظُرْ مَنْ تُحَاوِرُ :

وأخيراً - أخي الحبيب - انظُرْ مَنْ تُحَاوِرُ ، فَقَدْ كَانَ السَّلْفُ يُلْزَمُونَ الْإِنْتِقَاءَ
 وَالْإِخْتِيَارَ لَمَنْ يُحَاوِرُونَهُمْ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ وَضْعَ الْحَوَارِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَوْضْعَ
 اللَّوْلُوِّ وَالزَّبْرِجَدِ لِلخَنَازِيرِ .

قال الأعمش : « لا تشروا اللؤلؤ تحت أظلاف (٤) الخنازير » (٥) .
 وقال شعبة : « رأيت الأعمش وأنا أحدث قومًا ، فقال : ويحك يا شعبة ،
 تعلق اللؤلؤ أعناق الخنازير ! » (٦) .
 وقال الإمام مالك : « طارح العلم عند غير أهله كطارح الزبرجد للخنازير » (٧) .
 وروى الخطيب البغدادي عن مسروق قال : « لا تشربك (٨) إلا عند من يبيغيه » (٩) .

-
- (١) أَحَدَقَ : مَاهَر .
 (٢) « أدب الدنيا والدين » (ص ٢٥٤) .
 (٣) ديوان الشافعي (ص ٩٠) تحقيق الزغبى .
 (٤) أظلاف : الأظلاف للخنازير بمنزلة الحف للابل .
 (٥) « الجامع لأخلاق الراوي » رقم (٧٢٨) (١/٣٢٧) .
 (٦) « جامع بيان العلم » (١/١٠٨) .
 (٧) « الجامع لأخلاق الراوي » رقم (٧٣٧) (١/٣٢٩) .
 (٨) البز : الثياب ، والمعنى : لا تحاور من لا يستحق حوارك .
 (٩) المرجع السابق رقم (٧٣٧) (١/٣٢٧) .

ورحم الله الإمام الشافعي القائل :

أَثْرُ دُرٍّ بَيْنَ سَارِحَةٍ (١) الْبِهْمِ (٢)
لَعْمَرِي لَثْنٌ ضُيِّعَتْ فِي شَرِّ بَلَدَةٍ
لَثْنٌ سَهْلٌ اللَّهُ الْعَزِيزُ بِلُطْفِهِ
بَثَّتْ مُفِيدًا وَاسْتَفَدْتُ وَدَادَهُمْ
وَمَنْ مَنَعَ الْجُهَّالَ عِلْمًا أَضَاعَهُ
وَأَنْظَمُ مَنْثُورًا لِرَاعِيَةِ الْغَنَمِ !؟
فَلَسْتُ مُضِيْعًا فِيهِمْ غُرَّرَ الْكَلِمَ
وَصَادَفْتُ أَهْلًا لِلْعُلُومِ وَلِلْحَكَمِ
وَالْأَفْمَكُنُونَ (٣) لَدَيَّ وَمُكْتَنَمِ
وَمَنْ مَنَعَ الْمُسْتَوْجِبِينَ (٤) فَقَدْ ظَلَمَ (٥)

وقال كثير بن مرة الحضرمي: « إنَّ عليك في علمك حقًا ، كما أنَّ عليك في مالك حقًا ، لا تُحدِّثُ العلمَ غيرَ أهله فتجْهَلُ ، ولا تمنع العلمَ أهله فتأثم ، ولا تُحدِّثُ بالحكمة عند السُّفهاء فيكذِّبوك ، ولا تُحدِّثُ بالباطل عند الحكماء فيمقتوك (٦) » (٧) .

وقال عبد الكريم العماد :

كَلَامُكَ لَا تَقْلُهُ لِغَيْرِ أَهْلِ
فَمَنْ بَيْنَ الْبِنَاءِ بِغَيْرِ عَقْلِ
وَزَادَكَ أَعْطَاهُ مَنْ يَشْتَهِيهِ
عَلَى الْبَحْرِ اللَّجَاجِ يَغُوصُ فِيهِ

وعن رُوَيْبَةَ بن الْحَجَّاجِ قَالَ : « أَتَيْتُ النِّسَابَةَ الْبَكْرِيَّ ، فَقَالَ لِي : مَنْ أَنْتَ ؟
قُلْتُ : رُوَيْبَةُ بن الْحَجَّاجِ . قَالَ : قَصْرَتْ وَعَرَفْتَ ، فَمَا جَاءَ بِكَ ؟ . قُلْتُ :
طَلَبْتُ الْعِلْمَ . قَالَ : لَعَلَّكَ مِنْ قَوْمِ أَنَا بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ ، إِنْ سَكَتُ لَمْ يَسْأَلُونِي ،

(١) السَّارِحَةُ : الماشية التي تروح ، أي تذهبُ أوَّلَ النَّهَارِ إلى الرَّعْيِ ، جمعها سَوَارِحٌ .

(٢) الْبِهْمُ وَالْبِهْمُ : اسم جمع بهمة ، وهي أولاد الغنم .

(٣) مَكْنُونٌ : محفوظ .

(٤) الْمُسْتَوْجِبِينَ : المستحقين الجديرين بتلقي العلم .

(٥) ديوان الشافعي (ص ١٠٦) تحقيق البقاعي .

(٦) الْمُقْتُ : أشدُّ البُغْضِ .

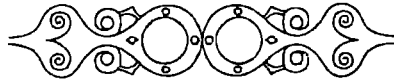
(٧) جامع بيان العلم ، (١/١١٠) .

وَأَنْ تَكَلَّمْتُ لَمْ يَعُوا عَنِّي ! . قُلْتُ : أَرْجُو أَلَّا أَكُونَ مِنْهُمْ » (١) .

وروى الخطيب البغدادي عن مطرف قال : « لَا تُطْعِمُ طَعَامَكَ مَنْ لَا يَشْتَهِيهِ » (٢)
أي لَا تُقْبِلُ عَلَيَّ مَنْ لَا يَقْبِلُ عَلَيْكَ بِوَجْهِهِ ، وَلَا تُحَدِّثْ بِالْحَدِيثِ مَنْ لَا
يُرِيدُهُ .

وأخيراً - أخي الحبيب - كُنْ طبيباً رقيقاً ، يَضَعُ دَوَاءَهُ حَيْثُ يَعْلَمُ أَنَّهُ يَنْفَعُ .
ولقد أجاده من قال - ولاحسن - :

قالوا: نَرَاكَ طَوِيلَ الصَّمْتِ، قُلْتُ لَهُمْ
لَكِنَّهُ أَحْمَدُ الْأَشْيَاءِ عَاقِبَةٌ
أَأَنْشُرُ الْبَزَّ فَيَمْنُ لَيْسَ يَعْرِفُهُ؟!
ما طَوَّلُ صَمْتِي عَنْ عِيٍّ (٣) وَلَا خَرَسِي
عِنْدِي وَأَيْسَرُهُ مِنْ مَنْطِقِي شَكْسِي
أَمْ أَنْشُرُ الدَّرَّ بَيْنَ الْعُمِيِّ فِي الْغَلَسِ (٤) | ١٤ (٥)



(١) المرجع السابق (١٠٩/١) .

(٢) « الجامع لأخلاق الراوي » رقم (٧٣١) (٣٢٨/١) .

(٣) العمي : الجهل .

(٤) الغلس : ظلام آخر الليل .

(٥) « جامع بيان العلم » (١١٠/١) .

أي أخي، إنَّ من المحاورين مَنْ هو محبُّ للمعارضة، كَلَفُ (١) بالمخالفة، لا يُوافق مُحاوره على أمرٍ ، ولا يُسَلِّمُ له بشيءٍ ، فإيَّاكَ وإياه .

قال ابن القيم رحمه الله : « إيَّاكَ ومُخالفةَ الجليس ، ومُعارضةَ أهلِ زمانِكَ فيما لا يضرُّكَ في دُنْيَاكَ ، ولا في آخِرَتِكَ وإنْ قَلَّ ؛ فَإِنَّكَ تَسْتَفِيدُ بِذَلِكَ الأذى والمُنافرةَ والعداوةَ ، وربِّمَا أَدَّى ذَلِكَ إلى المطالبةِ والضررِ العَظيمِ دُونَ مَنْفَعَةٍ أصلاً » (٢) .

(قال ابن القيم رحمه الله) : « إذا رأيتَ إنسانًا جُبِلَ على الخِلافِ ، إنْ قُلْتَ : لا ، قال : نَعَمْ ، وإنْ قُلْتَ : نَعَمْ ، قال : لا ، فالحقُّ بعالمِ الحميرِ ؛ فَإِنَّ دَابَّ الحمارِ إنْ أذِنْتَهُ بَعْدَ ، وإنْ أَبْعَدْتَهُ قُرْبَ ، وأنتَ تَسْتَمْتِعُ بالحمارِ ، ولا تَسْبُهُ ، ولا تُفَارِقُهُ » (٣) .

(قال الإمام العظامي رحمه الله - رحمه الله -) : « من هذا الصنف : « وقال بعضهم : إنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُوَلِّعُ بالخِلافِ أبداً ، حتَّى إنَّهُ يرى أَنَّ أَفضَلَ الأمرِ الأُّيُوفِقُ أحداً ، ولا يُجامِعُهُ عَلَى رأيٍ ، ولا يُوافِقُهُ على مَحبَّةٍ ، ومَنْ كانت هذه عادته ؛ فَإِنَّهُ لا يُبْصِرُ الحَقَّ ، ولا يَنْصُرُهُ ، ولا يَعْتَقِدُهُ دِينًا ومَذْهَبًا ، إِنَّمَا يَتَعْصَبُ لرأيه ، فينتقمُ لِنَفْسِهِ ، ويسعى في مرضاتها ، حتَّى إنَّكَ لو رُمْتُ أَنْ تترَضَّاهُ ، وتوَخَّيْتَ أَنْ تُوافِقَهُ على الرأي الذي يدعوكُ إليه ، تعمَّدَ لخِلافِكَ فيه ، ولم يرضَ به حتَّى ينتقل إلى نقيضِ قولهِ الأوَّلِ ، فَإِنَّ عُدْنَ إلى وفاقِهِ عادَ فيه إلى خِلافِكَ ، فَمَنْ

(١) كَلَفَ : مُوَلِّعَ .

(٢) « الأخلاق والسَّير » ص ١٠٦ .

(٣) « سراج الملوك » ص ١٢٤ .

كان بهذه الحال فعليك بمباعدته ، والنِّفَارِ عَنْ قُرْبِهِ ؛ فَإِنَّ رِضَاءَ غَايَةٍ لَا تُدْرِكُ ،
وَمَدَى شَأْوِهِ (١) لَا يُلْحَقُ « (٢) .

ثُمَّ أوردَ - رحمه الله - أمثلةً لذلك ، فقال : أخبرني ابن التعياني قال :
أخبرنا الزَّجَّاجُ قال : « كُنَّا عِنْدَ الْمَبْرَدِ - أَيِ الْعَبَّاسِ مُحَمَّدٍ - فَوَقَفَ عَلَيْهِ رَجُلٌ ،
فَقَالَ : أَسْأَلُكَ عَنِ مَسْأَلَةٍ فِي النَّحْوِ ؟ قَالَ : لَا ، فَقَالَ : أَخْطَأْتُ ، فَقَالَ : يَا
هَذَا ، كَيْفَ أَكُونُ مُخْطِئًا أَوْ مُصِيبًا ، وَلَمْ أُجِبْكَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ بَعْدُ ؟ ! .
فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ يُعْتَفُونَ ، فَقَالَ لَهُمْ : خَلُّوا سَبِيلَهُ ، وَلَا تَعْرَضُوا لَهُ ،
أَنَا أَخْبِرُكُمْ بِقِصَّتِهِ : هَذَا رَجُلٌ يُحِبُّ الْخِلَافَ ، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ ، وَقَصَدَنِي
عَلَى أَنْ يُخَالَفَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ أَقُولُهُ ، وَيُخَطِّئَنِي فِيهِ ، فَسَبَقَ لِسَانُهُ بِمَا كَانَ فِي
ضَمِيرِهِ « (٣) .

ويدخل في ذلك الجدال المذموم ، فالجدال قد يكون بحق ، وقد يكون
بباطل ؛ ولهذا قَسَمَ الْعُلَمَاءُ الْجِدَالَ إِلَى : مَحْمُودٍ ، وَمَذْمُومٍ .

وقال الخطيب البغدادي رحمه الله : « الْجِدَالُ الْمَذْمُومُ وَجِهَانُ :

أحدهما : الجدال بغير حجة .

والثاني : الجدال بالشَّغْبِ (٤) والتَّمْوِيهِ نُصْرَةً لِلْبَاطِلِ بَعْدَ ظَهْوَرِ الْحَقِّ وَبَيَانِهِ ،
قال الله تعالى : رَجَادُوا بِالْبَاطِلِ أَلْمُحْضَرُونَ بِالْحَقِّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ
عِقَابُ (٥) { غافر : ٥ } .

وأما جدالُ الْمُحَقِّقِينَ فَمِنَ النَّصِيحَةِ فِي الدِّينِ ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْمِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ
حَيْثُ قَالُوا : يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْنَا فَأَكْثَرْتَ حَدَاثًا { هود : ٣٢ } ، وجوابه

(١) الشَّأْوُ : الغاية والهدف .

(٢) « العزلة » (ص ١٦٦) .

(٣) المرجع السابق (ص ١٦٦) .

(٤) الشَّغْبُ : تهيج الشر .

لهم : ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ﴾ { هود : ٣٤ } .

وعلى هذا جرت سنة رسول الله ﷺ .

إلى ان قال - رحمه الله - : ﴿ وقد تحاجَّ المهاجرون والأنصار ، وحاجَّ عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنه الخوارجَ بأمرٍ من عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وما أنكرَ أحدٌ من الصحابة قطُّ ، الجِدالَ في طلبِ الحقِّ ، وأما التَّابِعونَ ومنَ بعدهم فقد توسَّعوا في ذلك ، وثبت أنَّ الجِدالَ المَحمودَ هو طلبُ الحقِّ ونصره ، وإظهارِ الباطلِ وبيانِ فساده ، وأنَّ الخصامَ بالباطلِ هو اللدَادُ الذي قال عنه النبيُّ ﷺ : «أَبْغَضُ الرَّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ» (١) { (٢) } .

وقال إمامُ الحَرَمينِ الجوينيُّ - رحمه الله - : « من الجِدالِ ما يكونُ محموداً مرضياً ، ومنه ما يكونُ مذموماً محرماً ، فالمذمومُ منه ما يكونُ لدفعِ الحقِّ ، أو تحقيقِ العنادِ ، أو ليلبسِ الحقَّ بالباطلِ ، أو لما لا يُطلَبُ به تَعَرُّفٌ ولا تَقَرُّبٌ ، أو للمماراةِ وطلبِ الجاهِ والتَّقدُّمِ ، إلى غير ذلك من الوجوه المنهيُّ عنها ، وهي التي نصَّ اللهُ سبحانه وتعالى على تحريمها ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جِدالًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ (٥٨) ﴿ الزُّخْرَفُ : ٥٨ } .

أما الجِدالُ المَحمودُ المدعوُّ إليه فهو الذي يُحقِّقُ الحقَّ ، ويكشفُ عن الباطلِ ، ويهدفُ إلى الرُّشدِ مع مَنْ يُرجى رجوعُهُ عن الباطلِ إلى الحقِّ ، وفيه قال سبحانه وتعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ { النَّحْلُ : ١٢٥ } « (٣) .

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٥٧) و (٤٥٢٣) و (٧١٨٨) ، ومسلمٌ (٢٦٦٨) عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) « الفقيه والمتفقه » (١/٢٣٣-٢٣٥) .

(٣) « الكافية في الجدل » (ص٢٢-٢٣) .

فضول الحوار

حريُّ بك - أخي المحاور - أن تُمسكَ عن فضول الحوار ؛ حتى لا يختلط موضع الفائدة بغيرها ؛ فإنَّ ذلك مَضَلَّةٌ للفهم والسَّمع معاً .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (١١٤) ﴿ النساء : ١١٤ ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ : « إنَّ مَنْ أَحْبَبَكُمْ إِلَيَّ ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ أَسْوَأَكُمْ أَخْلَاقًا : الثَّرثارون ، الْمُتَفِيهِقُونَ ، الْمُتَشَدِّقُونَ » (١) .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : « لا خَيْرَ فِي فَضُولِ الْكَلَامِ » (٢) .

وأوصى ابن عباس رضي الله عنهما رجلاً ، فقال : « لا تتكلَّم بما لا يعنيك ؛ فإنَّ ذلك فَضْلٌ ، ولست آمنُ عليك من الوزرِ ، ودَعِ الْكَلَامَ فِي كَثِيرٍ مَّا يعنيك حتى تجدَّ له موضعاً ؛ فربُّ مُتكلِّمٍ في غير موضعه قد عنت » (٣) .

وقال عطاء بن ابي رباح : « كانوا يكرهون فَضُولَ الْكَلَامِ » .

وقال : « بتركِ الْفُضُولِ تكْمَلُ الْعُقُولُ » .

وقال : « الصَّمْتُ صيانةُ اللِّسَانِ ، وسترُ الْعِيِّ » (٤) .

(١) تقدَّم تخريجه في حاشية (ص ١٠٧) .

(٢) « بهجة المجالس » لابن عبد البر (١/٦١) .

(٣) « العزلة » (ص ١٣٤) .

(٤) « بهجة المجالس » لابن عبد البر (١/٦١) .

وقال الشافعي - رحمه الله

لا خَيْرَ في حَسْبِ الكِلا
والصَّمْتُ أَجْمَلُ بِالْفَتَى

م ، إِذَا اهْتَدَيْتَ إِلَى عَيْونِهِ (١)
مِنْ مَنْطِقِي فِي غَيْرِ حِينِهِ (٢)

قال الأمام النووي - رحمه الله - : « اعلم أنه ينبغي لكلّ مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلاّ كلامًا ظهرت فيه المصلحة ، ومتى استوى الكلام المباح وتركه في المصلحة ، فالسنة الإمساك عنه ؛ لأنه قد يجزئ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه ، وذلك كثير في العادة ، والسلامة لا يعدلها شيء » (٣) .

وقال الخطيب البغدادي في « آداب التجاليل » : « ويكون كلامه يسيرًا جامعًا ؛ فإنّ التّحفظ من الزّكّل مع الإقلال دون الإكثار ، وفي الإكثار - أيضًا - ما يخفي الفائدة ، ويضيع المقصود ، ويورث الحاضرين الملل » (٤) .

وقال السهامي الكاتب :

خَيْرُ الكِلامِ قَلِيلٌ عَلَى كَثِيرٍ دَلِيلٌ
وَالعِيُّ مَعْنَى قَصِيرٌ يَحْـبُـوِيهِ لَفْظٌ طَوِيلٌ (٥)

وقال الماوردي - رحمه الله - : « واعلم أن للكلام شروطًا لا يسلم المتكلم من الزّكّل إلاّ بها ، ولا يعرَى (٦) من النقص إلاّ بعد أن يستوفيهما ، وهي أربعة : فالشرط الأول : أن يكون الكلام لداع يدعو إليه ، إمّا في اجتلاب نفع ، أو دفع ضرر .

عيون الكلام : أفضل وأحسنه .

ديوان الشافعي (ص ١٠٠) تحقيق البقاعي .

(٣) « رياض الصالحين » (ص ٣٩١) .

(٤) « الفقيه والمتفقه » (ص ٣٧٧) .

(٥) « بهجة المجالس » لابن عبد البر (ص ٧١) .

(٦) يعرَى : يخلو .

والشرط الثاني: أن يأتي به في موضعه ، ويتوخى به إصابة فرصته .

والشرط الثالث: أن يقتصر منه على قدر حاجته .

والشرط الرابع: أن يتخير اللفظ الذي يتكلم به « (١) .

وقال القاسمي: « إياك وفُضُولَ الكلامِ ؛ فإنه يُظهِرُ من عيوبك ما بَطَّنَ ،

ويُحرِّكُ من عَدْوِكَ ما سَكَنَ ، فكلامُ الإنسانِ بيانُ فَضْلِهِ ، وترْجُمانُ عَقْلِهِ ؛

فاقصِرْهُ على الجميل ، واقتصرْ منه على القليل « (٢) .



(١) « أدب الدنيا والدين » (ص ٢٧٦) .

(٢) « جوامع الأدب والأخلاق » (ص ١٦٦) .

الباب الثالث صفات المحاور

- حَسَنُ الْخُلُقِ
- الصَّبْرُ
- بَسْطُ الْوَجْهِ
- التَّوَاضِعُ .
- الرَّحْمَةُ بِالْخَصْمِ .
- الْهُدُوءُ .
- الصِّدْقُ .
- الْإِنصَافُ .
- الرَّفْقُ .
- الْحِلْمُ .
- الْأَنَاةُ .
- التَّغَايُبُ .
- الْمُدَارَاةُ .
- الْإِبْتِعَادُ عَنِ الْمُدَاهَنَةِ .
- الْإِبْتِعَادُ عَنِ الْخَجَلِ .

1

2

3

حَسَنَ الْخُلُقِ

أي أخي ، إنَّ حُسْنَ الخُلُقِ من أسبابِ نجاحِ أيِّ حوارٍ ، والوصولِ إلى ثمراته بأيسرِ الطَّرُقِ ؛ فيه يتمكَّنُ المحاور من إبداءِ حُجَّتِهِ ، وفَهْمِ حُجَّةِ صاحبه ، وهو - مع ذلك - عبادةٌ عظيمةٌ ، أمر به ربُّ العزَّةِ والجلال ، ورَتَّبَ عليه الجزاءَ العظيم .

فمن عائشة رضي الله عنها قالتُ : قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله : « إنَّ العبدَ لَيَبْلُغُ بحسَنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّامِتِ الْقَائِمِ » (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سئل رسولُ الله صلَّى الله عليه وآله عن أكثر ما يدخلُ النَّاسَ الجَنَّةَ ، قال : « تَقْوَى اللَّهِ ، وَحُسْنَ الخُلُقِ » (٢) .

والانطلاق - كما قال الغزالي - علميٌّ ضروريٌّ ؛ فمنها ما هو غريزيٌّ جبليٌّ ، ومنها ما هو اكتسابيٌّ يأتي بالدربة والممارسة والرياضة والمجاهدة ، ولو كانت الأخلاق لا تتغيَّرُ لبطلتِ الوصايا والمواعظ والتأديبات (٣) .

فالأخلاقُ قابلةٌ للتَّغيير ؛ وذلك أنَّ الحِلْمَ من الأخلاقِ ، بل هو سيِّدُها ، وهو - مع ذلك - يُنالُ ويكتسبُ بالتَّحَلُّمِ والمجاهدة ، وحمل النَّفسِ على ذلك ، قال رسول الله صلَّى الله عليه وآله : « إِنَّمَا الْعَالَمُ بِالتَّعَلُّمِ ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ » . ومن يتحرَّرَ الخَيْرَ يَمْتَظُهُ ، وَمَنْ يَتْرُقِ الشَّرَّ يُوَاقِعُهُ » (٤) .

(١) أخرجه أبو داود (٤١٩٨) وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١١ / ١١٦٢) ، والصَّحِيحَةُ (٧٩٥) .

(٢) أخرجه الترمذي (١٠٠٤) ، وابن ماجه (٢٦٠٢٦) ، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح سنن الترمذي (١٦٣٠) .

(٣) الإحياء (٣ / ٥٥) .

(٤) أخرجه الخطيب في تاريخه (١٢٧/٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، والطبرانيُّ في الكبير (١٠٠٤) عن معاوية رضي الله عنه ، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح الجامع (١١ / ١٢٧٨) ، والصَّحِيحَةُ (٣٤٢٢) .

قال الشاعر :

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْحِلْمَ زِينٌ لِأَهْلِهِ وَمَا الْحِلْمُ إِلَّا عَادَةٌ وَتَحَلُّمٌ (١)
 وثمة أسبابٌ تعينُ على حُسْنِ الخُلُقِ . اذْكَرُ بَعْضًا مِنْهَا :
 [١] سلامة العقيدة :

إذا صَحَّتْ عَقِيدَةُ المَحَاوِرِ ، زَكَتْ نَفْسُهُ ، وَاسْتَقَامَتْ أَخْلَاقُهُ .
 قال الغزالي - رحمه الله - : « آدَابُ الظَّوَاهِرِ عُنْوَانُ آدَابِ البَّوَاطِنِ ،
 وَحَرَكَاتُ الجَوَارِحِ ثَمَرَاتُ الخَوَاطِرِ ، وَالأَعْمَالُ نَتِيجَةُ الأَخْلَاقِ » (٢) .
 [٢] الدُّعَاءُ :

فقد كان النَّبِيُّ ﷺ كَثِيرُ الضَّرَاعَةِ إِلَى رَبِّهِ أَنْ يَرْزُقَهُ حُسْنَ الخُلُقِ ، وَكَانَ
 يَقُولُ فِي دُعَاءِ الاسْتِفْتَاكِحِ : « اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِأَحْسَنِ الأَخْلَاقِ ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا
 إِلَّا أَنْتَ ، وَاصْرَفْ عَنِّي سَيِّئَهَا ، لَا يَصْرَفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ » (٣) .
 [٣] المِجَاهِدَةُ :

وذلك لِأَنَّ حُسْنَ الخُلُقِ نَوْعٌ مِنَ الهِدَايَةِ يَحْصُلُ بِالمِجَاهِدَةِ ؛ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ
 وَتَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .
 [٤] المِحَاسِبَةُ :

قال ابن المِقْفَعِ : « لِيَحْسُنَ تَعَاهُدُكَ نَفْسَكَ بِمَا تَكُونُ بِهِ لِلخَيْرِ أَهْلًا ؛ فَإِنَّكَ إِنْ
 فَعَلْتَ ذَلِكَ ، أَتَاكَ الخَيْرُ يَطْلُبُكَ ، كَمَا يَطْلُبُ المَاءُ السَّيْلَ إِلَى الحُدُورَةِ (٤) » (٥) .

(١) « أقوال مأثورة » (ص ٤٤٠) .

(٢) « الإحياء » (٣٥٧/٢) .

(٣) أخرجه مسلم (٧٧١) عن علي بن أبي طالب .

(٤) الحُدُورَةُ : المكان المنحدر .

(٥) « الأدب الصغير والكبير » (ص ١٠) .

أخي الحبيب ، لا تيأس من إصلاح نفسك ؛ فإنَّ مع العسر يسراً ، وما من داء إلا وله دواء .

قال ابن المقفع : « وعلى العاقل أن يُخصيَ على نفسه مساوئها في الدين ، وفي الأخلاق وفي الآداب ، فيجمع ذلك كله في صدره أو في كتاب ، ثم يكثُر عرضه على نفسه ، ويكلفها إصلاحها ، ويوظف ذلك عليها توظيفاً من إصلاح الخلَّة أو الخلتين في اليوم ، أو في الجمعة ، أو الشهر ، فكلما أصلح شيئاً معاه ، وكلما نظرَ إلى محو استبشَّرَ ، وكلما نظرَ إلى ثابتٍ اكتأبَ » (١) .

وقال ابن حزم - رحمه الله - متحدثاً عن تجربته مع نفسه . وعن محاولته في التخلص من عيوبه . وعن النتائج التي حصلَ عليها من جراء ذلك : « كانت في عيوب فلم أزل بالريضة وإطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم ، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق ، وآداب النفس أعاني مداواتها ، حتى أعان الله عزَّ وجلَّ على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه .

وتمام العدل ، وريضة النفس ، والتصرف بالأمور هو الإقرار بها ؛ ليتعظ بذلك متعظاً يوماً إن شاء الله ، فمنها (٢) كلف في الرضى ، وإفراط في الغضب ، فلم أزل أداوي ذلك ، حتى وقفتُ عند ترك إظهار الغضب جملةً بالكلام ، والفعل ، والتخبط ، وامتنعتُ مما لا يحلُّ من الانتصار ، وتحملتُ كم ذلك ثقلاً شديداً ، وصبرتُ على مَضض (٣) مؤلم ، كان ربِّما أمرضني ، وأعجزني ذلك في الرضى ، وكأني سامحتُ نفسي ؛ لأنها تمثلت أن ترك ذلك لؤمٌ .

(١) المرجع السابق (ص: ٥٤) .

(٢) يعني عيوبه .

(٣) المَضض : رجع المصيبة .

ومنها دُعاةٌ غالبَةٌ ، فالذي قَدَرْتُ عليه منها إمساكي عما يُغضب المَآزِحَ ،
 سَامَحْتُ نفسي فيها ؛ إذ رأيتُ أَنَّ تركها من الانغلاق ، ومُضَاهٍ للكِبَرِ .
 ومنها عُجبٌ شديدٌ ، فناظر عَقْلِي نفسي بما يعرفه من عُيوبها ، حتَّى ذَهَبَ
 ذلك كُلُّهُ ، ولم يَبْقَ به - والحمدُ لله - أثرٌ ، بل كَلَّفْتُ نفسي احتقارَ قَدْرِهَا
 حملةً ، واستعمالَ التَّواضُعِ .
 ومنها حركاتٌ كانت تولِّدُها غرارةُ الصِّبَا (١) ، وضعفٌ في الإغضاءِ ،
 فقصرتُ نفسي على تركها فذهبتُ .

ومنها محبةٌ في بُعدِ الصِّيتِ (٢) والغلبةُ ، فالَّذِي وقفتُ عليه في مُعانةِ هذا
 الداءِ الإمساكُ فيه عما لا يحلُّ في الديانةِ ، والله المستعان على الباقي « (٣) .

وأخيراً قال الشاعر :

وما حَسَنٌ أنْ يَمْدَحَ المرءُ نَفْسَهُ ولكنَّ أخلاقاً تُذمُّ وتُمدحُ



١- الصِّبَا : الفتوة والشباب .
 ٢- الصِّيت : الذكر الجميل .
 ٣- « الأخلاق والسير » (١) .

لا شكَّ أنَّ الصبرَ من أعظمِّ صفاتِ المحاورِ ، بل الأساسِ الذي يقومُ عليه أيُّ حوارٍ ، فمتى تجرَّعتَ من محاورك الغُصَصَ ، وقابلتَ ذلكَ بالابتسامةِ وحُسْنِ الأدبِ ، فقد ارتشفتَ النَّصْرَ العزيزَ ، وفُزتَ بالظَّفْرِ الحميدِ ، واكتسبتَ الذِّكْرَ الجميلَ .

قال الشاعر :

وَقَلَّ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرِ يُطَالِبُهُ وَاسْتَصْحَبَ الصَّبْرَ إِلَّا فَازَ بِالظَّفْرِ
ونظرًا لأهميةِ الصبرِ فقد جعلَ اللهُ سبحانه وتعالى الإمامةَ في الدينِ موروثَةً عن الصبرِ واليقينِ ؛ قال اللهُ تبارك وتعالى : ﴿ وَجَاهِلُوا مِنْهُمْ آيَاتِهِمْ لِنَا صَبْرًا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (٢٤) { السَّجْدَةُ : ٢٤ } .

وذكرَ اللهُ ربُّ العزَّةِ والجلالِ الصبرَ في القرآنِ الكريمِ في نَيْفٍ (١) وتسعينَ موضعًا ، وأضافَ أكثرَ الدَّرَجَاتِ والخيراتِ إلى الصبرِ ، وجعلها ثمرَةً له ، وجمعَ للصَّابِرِينَ بين أمورٍ لم يجمعها لغيرهم ، قال اللهُ تبارك وتعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُنْتَهُونَ ﴾ (٢) .

{ البقرة : ١٥٧ } (٢) .

وقرَّنه بالصَّلَاةِ في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكُم مَعِينَةٌ ﴾ (٣) .
لكمبيرةٍ إلا على الخاشعين (٤٤) { البقرة : ٤٥ } ، وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ (٥) .

{ البقرة : ١٥٣ } (٣) .

(١) النَيْفُ : من الواحد إلى التسعة ، ونَيْفٌ بمعنى رادٍ .

(٢) انظر { عدة الصَّابِرِينَ } (ص ٩٨) .

(٣) انظر { الفتاوى } (١/٩٧) .

وبشرنا نبينا ﷺ بقوله : « ما يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ (١) ، وَلَا وَصَبٍ (٢) ، وَلَا هَمٍّ ، وَلَا حَزَنٍ ، وَلَا أَذَىٍّ ، وَلَا غَمٍّ - حَتَّى الشُّوْكَةِ يُشَاكُهَا - إِلَّا كَفَرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ » (٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِيبْ مِنْهُ » (٤) .

وأصلُ كلمة الصَّبْرِ : هو المنع والحبس ، فالصَّبْرُ : حبسُ النَّفْسِ عن الجَزَعِ ، واللِّسَانِ عن التَّشْكِيِّ ، والجوارح عن لطمِ الخُدُودِ ، وشقِّ الثِّيَابِ ، ونحوها (٥) .

وحقيقة الصَّبْرِ : خُلُقٌ فاضلٌ من أخلاقِ النَّفْسِ ، يُمْتَنَعُ به عن فعل ما لا يَحْسُنُ ولا يَجْمَلُ ، وهو قوَّةٌ مِنْ قوَى النَّفْسِ التي بها صلاح شأنها ، وقوام أمرها ، وحين سُئِلَ الجُنَيْدُ عن الصَّبْرِ قال : تَجَرُّعُ المرارةِ مِنْ غَيْرِ تَعَبٍ .

وقيل : « الصَّبْرُ : هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب » (٦) .

والمصائبُ تتفاوتُ ، ولكن أعظمها المصيبة في الدين ، فهي أعظمُ مصائبِ الدُّنيا والآخرة ، وهي نهاية الخُسرانِ الَّذِي لا رِبْحَ معه ، والحِرْمَانِ الَّذِي لا طَمَعَ معه » (٧)

قال الشاعر :

إِذَا أَبَقَتِ الدُّنْيَا عَلَى المَرءِ دِينَهُ فَمَا فَاتَهُ مِنْهَا فَلَيْسَ بِضَائِرٍ

(١) النَّصَبُ : اوجع والتعب .

(٢) الوَصَبُ : المرض .

(٣) أخرجه البخاري - واللفظُ له - (٥٦٤١) و(٥٦٤٢) ، ومسلم (٢٥٧٣) عن أبي سعيدٍ وأبي هريرة .

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٥) .

(٥) « عدة الصَّابِرِينَ » (ص ٢٧) .

(٦) المرجع السابق (ص ٢٩) .

(٧) « تسلية أهل المصائب » (ص ٢٤) .

فَعَلَى الْمُحَاوِرِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى مُحَاوِرِهِ ، وَإِنْ كَانَ مَا يَسْمَعُهُ مِنْهُ شَبَهَ
الْوَسَاوِسَ ، فَلَا يَشُقُّ عَلَيْهِ ، وَلَا يَعِدُّ ذَلِكَ حِمْلًا ثَقِيلًا ، بَلْ يَهْوُونَ مِنْ ذَلِكَ ؛
فَإِنَّ عَوَاقِبَ الصَّبْرِ أَحْلَى مِنْ جَنِيِّ الشَّهْدِ (١) فِي الْفَمِّ .

ولقد آجَادَ مَنْ قَالَ - وَأَحْسَنَ - :

وَالصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ ، مُرٌّ مَذَاقَتُهُ لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ
فِيَا أَخِي إِيَّاكَ أَنْ تُقَابِلَ السَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا ، فَرُبَّمَا كَانَ مَنْ تُحَاوِرُهُ الْيَوْمَ - فِي
سَابِقِ عِلْمِ اللَّهِ - خَيْرًا مِنْكَ غَدًا ، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُسْمِعَهُ كَلِمَةً
يَحْفَظُهَا عَنْكَ ، حَتَّى إِذَا اخْتَمَرَتُ الْفِكْرَةَ فِي رَأْسِهِ ، وَأَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالْهِدَايَةِ ،
فَثَابَ إِلَى رُشْدِهِ ، وَرَجَعَ إِلَى صَوَابِهِ ، وَقَفَّ الشَّيْطَانُ فِي طَرِيقِهِ ، وَقَالَ لَهُ :
اذْكُرْ تِلْكَ الْكَلِمَةَ ، فَتَكُونُ أَنْتَ فَتْنَةٌ لَهُ ، لَكِنْ إِنْ تَلَطَّفْتَ مَعَهُ بِالْجَوَابِ ، وَلَنْتَ
لَهُ فِي الْخِطَابِ ، فَاتْرَكَهُ وَإِنْ لَمْ يُوَافِقْكَ ، فَهُوَ - مَعَ مَرُورِ الزَّمَانِ ، وَتَخَمُّرِ
الْفِكْرَةِ فِي رَأْسِهِ ، وَحُسْنِ تَعَاهُدِكَ لَهُ - سَوْفَ يَعُودُ إِلَيْكَ ، هَذَا حَكْمُ اللَّهِ ،
قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ
فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤) وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا
يَلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿ (٣٥) ﴾ [فَصَّلْتُ : ٣٤ ، ٣٥] .

وَاعْلَمْ أَخِي أَنَّ مِنْ حُسْنِ تَوْفِيقِ اللَّهِ لَكَ الصَّبْرَ عَلَى مَنْ تُحَاوِرُهُ مِنَ الْإِخْوَانِ
فَكُنْ - يَا حَفِظَكَ اللَّهُ - كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

تَنَكَّرَ لِي دَهْرِي ، وَلَمْ يَدْرِ أَنَّي
وَوَظَلَّ يُرِينِي الدَّهْرُ كَيْفَ اغْتَرَارَهُ
أَعَزُّ ، وَأَحْدَاثُ الزَّمَانِ تَهُونُ
وَبِتُّ أُرِيهِ الصَّبْرَ كَيْفَ يَكُونُ (٢)

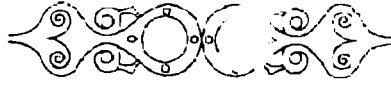
(١) الشَّهْدُ - بَضْمُ الشَّيْنِ وَفَتْحُهَا - : عَسَلُ النَّحْلِ الَّذِي لَمْ يُعَصَّرْ مِنْ شَمْعِهِ بَعْدَ .

(٢) « الْبَدَايَةُ وَالنَّهَايَةُ » (١١ / ١٦٠) ..

او كما قال الآخر :

وَأَصْبِرُ حَتَّى يَحْكَمَ اللَّهُ فِي أَمْرِي
صَبْرْتُ عَلَى شَيْءٍ أَمْرٌ مِنَ الصَّبْرِ (١)

سَأَصْبِرُ حَتَّى يَعْجِزَ الصَّبْرُ عَنْ صَبْرِي
وَأَصْبِرُ حَتَّى يَعْلَمَ الصَّبْرُ أَنَّي



(١) الصَّبْرُ : عَصَاةٌ شَجَرٌ مُرٌّ .

بَسْطُ الْوَجْهِ

أي أخي، إن من أخلاق الرَّجُلِ النَّبِيلِ ذِي الْمُرُوَّةِ وَالْأَدَبِ وَالْتَوَدُّدِ وَالْتَلَطُّفِ وَبَسْطُ الْوَجْهِ لِمَنْ يُحَاوِرُهُ ، فَاتَّبِعْهُ لِهَذَا الْأَمْرِ ؛ فَهُوَ غَايَةٌ فِي نُبْلِ النَّفْسِ ، وَصِفَاءِ الْمَعْدَنِ .

قال حبيبك رسول الله ﷺ : « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَلَوْ أَنْ تَكَلَّمَ أَخَاكَ وَوَجَّهَكَ إِلَيْهِ مُبَسِّطًا » (١) .

وقال حبيب بن أبي ثابت - (رحمه الله) - : « مِنْ حُسْنِ خُلُقِ الرَّجُلِ أَنْ يُحَدِّثَ صَاحِبَهُ وَهُوَ يَتَبَسَّمُ » (٢) .

والمحاور العاقل هو الذي يُقْبَلُ عَلَى مُحَاوِرِهِ بِوَجْهِ بَاشٍ طَلْقٍ ، يَذُوبُ رِقَّةً وَخُلُقًا ، وَمِنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَاتُهُ كَانَ عَلَى التَّفَكِيرِ ، وَاخْتِيَارِ الْكَلِمَةِ الْمُنَاسِبَةِ لِمَقْتَضَى الْحَالِ ، وَيَنْظُرُ لِصَاحِبِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الثَّقَّةِ ، وَلَيْسَ مِبَالِغًا مَنْ قَالَ : إِنَّ الْغَضَاضَةَ ، وَالْغِلْظَةَ ، وَالْأَكْفَهْرَارَ ، وَالْعُبُوسَ ، وَالْإِشَاحَةَ ، وَالصُّدُودَ مِنْ أَخْلَاقِ جُفَاةِ الْأَعْرَابِ ، وَجُنُودِ النَّارِ .

ولقد أجاد ابن عمر قال - (وأحسن) - :

أَخُو الْبَشَرِ مَحْبُوبٌ عَلَى حُسْنِ بَشَرِهِ وَكَلِمَةِ الْبَغْضَاءِ مَنْ كَانَ عَابِسًا (٣) ، وَالْعُبُوسُ وَمَا يَسْتَصْحَبُهُ مِنْ كَابَةِ وَاضْطِرَابِ نَفْسٍ دَلِيلٌ عَلَى صِغَرِ النَّفْسِ ، أَمَّا النَّفُوسُ الْكَبِيرَةُ فَيَكْتَنِفُهَا جَوْ السَّكِينَةِ وَالطَّمَأْنِينَةِ (٤) .

أخرجه أبو داود (١٠٠٠) ، وأحمد (١٠٠٠) عن جابر بن سليم ، ومسلم عن أبي ذر بلفظ :

« مَنْ تَلَقَّى أَخَاكَ مِنْ جِهَةِ طَلْقٍ ... »

(١) « روضة العقلاء » (١٧٧) .

(٢) المرجع السابق (١٧٥) .

(٣) « أقوال مأثورة » (١٨١) .

قيل لحكيم: « مَنْ أَضَيَّقُ النَّاسَ طَرِيقًا ، وَأَقْلَهُمُ صَدِيقًا ؟ » قال : « مَنْ عَاشَرَ النَّاسَ بَعْبُوسٍ وَجَهٍ ، وَاسْتَطَالَ عَلَيْهِمُ بِنَفْسِهِ » (١) .

فكم من الناس من لا تراه إلا عابِسَ الوجهِ ، مقطبَ الجبين ، لا يعرفُ التَّبَسُّمَ واللِّبَاقَةَ ، ولا يُوقِفُ للبِشْرِ والظَّلَاقَةَ ، بل إِنَّهُ يَنْظُرُ لِلنَّاسِ شِزْرًا ، وَيَرْمُقُهُمْ (٢) غِيظًا وَحَنَقًا ، لا لذنوب ارتكبوها ، ولا لخطأ فعلوه ، وإنما هكذا يُوحِي إليه طَبَعُهُ ، وتدعوه إليه نَفْسُهُ ، وهذا الخُلُقُ مَرَكَّبٌ مِنَ الكِبَرِ ، وَغَلْظِ الطَّبَعِ ؛ فَإِنَّ قَلَّةَ البِشَاشَةِ استهانةً بالنَّاسِ ، والاسْتِهَانَةُ بالنَّاسِ تَكُونُ مِنَ الإِعْجَابِ وَالكِبَرِ ، وَقَلَّةُ التَّبَسُّمِ - وَلا سِيَّما عِنْدَ الحِوَارِ - تَكُونُ مِنَ غَلْظِ الطَّبَعِ ، وَهَذَا الخُلُقُ مُسْتَقْبِحٌ وَخَاصَّةً بِالرُّؤْسَاءِ وَالْأَفَاضِلِ (٣) .

قال الشاعر:

البِشْرِ يُكْسِبُ أَهْلَهُ صَدَقَ المَوَدَّةَ وَالمَحَبَّةَ
والتَّيِّبَةُ (٤) يَسْتَدْعِي لَصًا حَبُّهُ المَذَمَّةَ وَالمَسَبَّةَ (٥)

والمحاور الحكيم يُقْبَلُ عَلَى مُحَاوَرِهِ - وَلا سِيَّما إِذَا كَانَ سَنِيًّا مُنْصَفًا عَدْلًا - بِوَجْهِ طَلَّتِي لِإِدْخَالِ السُّرُورِ عَلَيْهِ ، وَاسْتِلَالِ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ تَعَكُّيرٍ ، وَتَحْوِيلِ دَقَّةِ الحَدِيثِ لِصَالِحِ الحَقِّ ، سِوَاءَ أَظْهَرَهُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ ، أَمْ عَلَى يَدِ مَنْ يُحَاوَرُهُ .

قال ابن عقييل الحنبلي - رحمه الله - : « البِشْرُ مُؤَنَسٌ لِلْعُقُولِ ، وَمِنْ دِوَاعِي القَبُولِ ، وَالعُبُوسِ ضِدُّهُ » (٦) .

(١) المرجع السابق (ص ١٧٨) .

(٢) يرمقهم : ينظر إليهم .

(٣) انظر « تهذيب الأخلاق » (ص ٣٢) .

(٤) التَّيِّبَةُ : الكبرياء .

(٥) « عين الأدب والسياسة » (ص ١٥٣) .

(٦) « الفنون » (٢/٦٣٥) .

وقال ابن حبان - رحمه الله - : « البَشَاشَةُ إِدَامُ الْعُلَمَاءِ ، وَسَجِيَّةٌ ^(١) الْحُكَمَاءِ ؛ لِأَنَّ الْبِشْرَ يُطْفِئُ نَارَ الْمُعَانَدَةِ ، وَيُحْرِقُ هَيْجَانَ الْمُبَاغِضَةِ ، وَفِيهِ تَحْصِينٌ مِنَ الْبَاغِي ، وَمَنْجَاةٌ مِنَ السَّاعِي ^(٢) » ^(٣) .

قال الشاعر :

التى بالبشر من لقيت من النأ
س جَمِيعًا ، ولا فهِمُ بِالطَّلَاقِ
تَجِنُ مِنْهُمُ جَنِّي ثَمَارِ ، فَخَذَهَا
طَيِّبًا طَعْمُهُ ، لَذِيذَ الْمَذَاقِ ^(٤)

وقال ابو جعفر المنصور - رحمه الله - : « إِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ يَكْثَرَ الثَّنَاءُ الْجَمِيلُ عَلَيْكَ مِنَ النَّاسِ بِغَيْرِ نَائِلٍ ^(٥) ، فَالْقَهُمْ بِبِشْرِ حَسَنِ ^(٦) » .

وقال محمد بن حازم :

وما اکتسبَ المحامدَ طَالِبُوهَا
بِمِثْلِ الْبِشْرِ وَالْوَجْهِ الطَّلِيقِ ^(٧)
وكانت العربُ تمدحُ طلقَ الوجهِ ، وتجعله دليلاً على سِعةِ الصِّدْرِ ، وجوْدَةِ الكَفِّ ، وسخاوةِ الطَّعْجِ ، وكرمِ السَّجَايَا ، ونداوةِ الخاطِرِ .

قال آخذهم :

صَحْوُكَ السَّنُّ يَطْرَبُ لِلْعَطَايَا
وَيَفْرَحُ إِنْ تَعَرَّضَ لِلسُّؤَالِ

وقال عزوة - رحمه الله - : « أُخْبِرْتُ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي الْحِكْمَةِ : يَا بُنَيَّ ، لِيَكُنْ وَجْهُكَ بَسْطًا ، وَلِتَكُنْ كَلِمَتُكَ طَيِّبَةً ، تَكُنْ أَحَبَّ إِلَى النَّاسِ مِنْ أَنْ

(١) السَّجِيَّةُ : الخُلُقُ والطَّيْبَةُ ، والجمعُ : سَجَايَا .

(٢) السَّاعِي : الذي يَسْعَى بالوَقِيعة ؛ لِيُفَرِّقَ بَيْنَ الْأَحْبَةِ .

(٣) « روضة العقلاء » (ص ٧٥) .

(٤) المرجع السابق (ص ٧٦) .

(٥) النائل : العطية .

(٦) « عين الأدب » (ص ١٥٤) .

(٧) « بهجة المجالس » (٦٦٥ / ٢) .

تُعْطِيَهُمُ الْعَطَاءَ» (١)

وقال ابن حبان: « مَنْ بَشَّ لِلنَّاسِ وَجَهًا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ بَدُونِ الْبَاذِلِ لَهُمْ مَا يَمْلِكُ » (٢)

وقال أبو الطيب البخاري:

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالٍ فَلْيَسْعِدِ النَّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ
وَالْبِشَاشَةُ عَطْرُ الْأَخْلَاقِ ، وَنَفْحَةٌ مِنْ نَفْحَاتِهِ ، لَا تُكَلِّفُكَ جَهْدًا وَلَا مَالًا ،
فَهِىَ أَقْلُ كَلْفَةٍ ، وَأَيْسَرُ مَوْئِنَةٍ ، وَأَعْظَمُ أَجْرًا .

قيل للعتابي: « إِنَّكَ تَلْقَى النَّاسَ كُلَّهُمْ بِالْبِشْرِ؟! » قال: « دَفَعُ ضَغِينَةَ
بِأَيْسَرِ مَوْئِنَةٍ ، وَاکْتَسَابَ إِخْوَانٍ بِأَيْسَرِ مَبْذُولٍ » (٣)

وقيل لأحد السلف: « مَا أَبْشَكَ! » ، قال: « إِنَّهُ يُقَوْمُ » (٤) علي
برخيصة (٥) (٦)

وقال أبو حنيفة لأصحابه: « إِذَا نَازَرْتُمْ فَأَظْهِرُوا الضَّحْكَ ، يَقْضِ عَلَيْكُمْ
الْجُمْهُورُ بِالْغَلْبَةِ » (٧)

ومن عجائب ما جاء في ترجمة عبد الله بن قدامة أنه كان لا يُناظرُ أحدًا إلاَّ
وهو يتبسّم ، حتَّى قال بعضُ النَّاسِ: « هَذَا الشَّيْخُ يَقْتُلُ خَصْمَهُ بِتَبَسُّمِهِ » (٨)

(١) « روضة العقلاء » (ص ١٧٥) .

(٢) المرجع السابق (ص ١٧٥) .

(٣) « بهجة المجالس » (٢/ ٦٦٥) .

(٤) قَوْمُ الشَّيْءِ: قَدَّرَ ثَمَنَهُ .

(٥) يقول: إن البشاشة رخيصة ، لا تُكَلِّفُهُ مَالًا وَلَا جُهْدًا ، وَإِنَّهَا غَالِيَةٌ وَقِيْمَةٌ ، لِأَنَّهَا تَجْذِبُ الْقُلُوبَ ،
وَتَقْتُلِعُ أَسْبَابَ الْبِغْضَاءِ .

(٦) « روضة العقلاء » (ص ١٧٥) .

(٧) « مناقب الشافعي » للبيهقي (١/ ١٩٨) .

(٨) « الذئيل على طبقات الحنابلة » (٢/ ١٣٧) .

قال القاضي الفنوي:

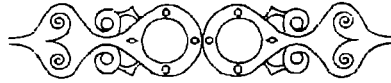
يَكَادُ يَقَطُرُ مِنْ مَاءِ الْبَشَاشَاتِ
فِي جَسْمِ حَقْدٍ وَتَوْبٍ مِنْ مَوَدَّاتِ (١)

لَوْ الْعَدُوُّ بَوَّجَهُ لَا قُطُوبَ بِهِ
فَأَحْزَمُ النَّاسِ مَنْ يَلْقَى أَعَادِيهِ

فكّن اخي المحاور كما قال الشاعر:

فَبِشْرٍ وَأَمَّا وَعَدُهُ فَجَمِيلٌ
إِذَا اعْتَلَّ مَذْمُومُ الْفَعَالِ (٢) بِخَيْلٍ
فَعَفٌ وَأَمَّا طَرْفُهُ (٣) فَكَلِيلٌ (٤) (٥)

فَتَى مَثَلُ صَنُوِ الْمَاءِ أَمَّا لِقَاؤُهُ
يَسْرُكُ مُفْتَرًّا وَيُشْرِقُ وَجْهَهُ
عَيْيٌ عَنِ الْقَحْشَاءِ أَمَّا لِسَانُهُ



- (١) «أدب الدنيا والدين» (ص ١٨٢) .
(٢) الْفَعَالُ - بفتح الفاء - : الْفِعْلُ مصدر كَالذَّهَابِ .
(٣) الطَّرْفُ : الْبَصَرُ .
(٤) كَلِيلٌ : مُتَعَبٌ .
(٥) «روضة العقلاء» (ص ٧٦) .

التَّوَاضُّعُ

إِنَّ التَّوَاضُّعَ - أَخِي المَحَاوِر - مِنْ أَهَمِّ طُرُقِ اكْتِسَابِ الحِكْمَةِ ، وَإِصَابَةِ الصَّوَابِ فِي الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ .

فَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلی الله علیه و آله قَالَ : « مَا مِنْ أَدْمِيٍّ إِلَّا فِي رَأْسِهِ حِكْمَةٌ بِيَدِ مَلِكٍ ، فَإِذَا تَوَاضَعَ قَبِيلٌ لِلْمَلِكِ : أَرَفَعُ حِكْمَتَهُ ، وَإِذَا تَكَبَّرَ قَبِيلٌ لِلْمَلِكِ : ضَعَّ حِكْمَتَهُ » (١) .

قَالَ ابْنُ حِبَّانٍ - رَحِمَهُ اللهُ - : « عَلَى العَاقِلِ لَزُومُ التَّوَاضُّعِ ، وَمُجَانِبَةُ التَّكْبِيرِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي التَّوَاضُّعِ خَصْلَةٌ تَحْمِلُهُ إِلَّا أَنْ المَرءَ كَلَّمَا كَثُرَ تَوَاضَعُهُ أَزْدَادَ بِذَلِكَ رِفْعَةً ، لَكَانَ الوَاجِبُ عَلَيْهِ إِلَّا يَتَزَيَّأَ بِغَيْرِهِ .

والتَّوَاضُّعُ تَوَاضُّعَانِ : أَحَدُهُمَا مَحْمُودٌ ، وَالأُخْرَى مَذْمُومٌ .

والتَّوَاضُّعُ المَحْمُودُ : تَرَكَ التَّطَاوُلَ عَلَى عِبَادِ اللهِ ، وَالإِزْرَاءَ بِهِمْ .

والتَّوَاضُّعُ المَذْمُومُ : هُوَ تَوَاضُّعُ المَرءِ لِذِي الدُّنْيَا رَغْبَةً فِي دُنْيَاهُ .

فَالعَاقِلُ يَلْزِمُ مَفَارِقَةَ التَّوَاضُّعِ المَذْمُومِ عَلَى الأَحْوَالِ كُلِّهَا ، وَلَا يُفَارِقُ

التَّوَاضُّعَ المَحْمُودَ عَلَى الجِهَاتِ كُلِّهَا » (٢) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صلی الله علیه و آله : « مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا ، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ » (٣) .

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه وَهُوَ عَلَى المُنْبَرِ : « إِنَّ العَبْدَ إِذَا تَوَاضَعَ لِلَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ

(١) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الكَبِيرِ (٢١٨/١٢) ، وَحَسَنَهُ الألبَانِيُّ فِي صَحِيحِ الجَامِعِ (٥٦٧٥/٢) ، وَالصَّحِيحَةُ (٥٣٨) .

(٢) « رُوضَةُ العُقْلَاءِ » (ص ٥٩) .

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ مَعَ شَرْحِ النَّوَوِيِّ (١٤١/٦) .

رَفَعَ حَكَمَتَهُ (١) ، قال : انتعشُ رَفَعَكَ اللهُ ، فهو في نفسه حَقِيرٌ ، وفي أعينِ النَّاسِ كَبِيرٌ ، فإذا تَكَبَّرَ وَعَدَا طَوْرَهُ ، وهصَهُ إلى الأَرْضِ ، وقال : اخْسَأْ اخْسَأَكَ اللهُ ، فهو في نفسه كَبِيرٌ ، وفي أعينِ النَّاسِ حَقِيرٌ ، حتَّى إِنَّه أَحْقَرُ في أعينِهِمْ من الخنزير « (٢) .

قال الشاعر:

تَوَاضَعُ تَكُنُ كَالنَّجْمِ لَاحٍ (٣) لِنَاطِرٍ عَلَى صَفَحَاتِ الْمَاءِ وَهُوَ رَفِيعٌ
وَلَا تَكُ كَالدُّخَانِ يَعْلُو بِنَفْسِهِ إِلَى طَبَقَاتِ الْجَوِّ وَهُوَ وَضِيعٌ (٤)

وقال أبو يوسف يَعْقُوبُ بن إبراهيم - رحمه الله تعالى - : « يا قوم ، أريدوا بعلمكم الله تعالى ؛ فَإِنِّي لم أَجْلِسْ مَجْلِسًا قَطُّ أَنُوي فِيهِ أَنْ أَتَوَاضَعَ إِلَّا لِمَ أَقْمُ حتَّى أَعْلُوهُمْ ، ولم أَجْلِسْ مَجْلِسًا قَطُّ أَنُوي أَنْ أَعْلُوهُمْ إِلَّا لِمَ أَقْمُ حتَّى أَفتَضِحَ » (٥) .

قال البحتري:

دَنُوتٌ تَوَاضَعًا وَعَلُوتٌ مَجْدًا فَشَأْنَاكَ انخِفاضٌ وارتِفاغٌ
كَذَلِكَ الشَّمْسُ تَبْعُدُ أَنْ تُسَامَى (٦) وَيَدْنُو الضَّوْءُ مِنْهَا وَالشُّعَاعُ

(١) الْحِكْمَةُ - بفتحات - : حديدة في اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه ، تمنعه عن مخالفة راجيه

وحديث عمر هذا كناية عن الإعزاز ؛ لأن من صفة الدليل تنكيس رأسه .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٩٠/٩) ، وإسناده حسن ، وانظر تخريجه في كتاب جزء من

حديث سفيان بن عيينة بتحقيق الصومان .

(٣) لَاحٌ : بَرَزَ وَظَهَرَ .

(٤) « جواهر الأدب » (ص ٧١٣) .

(٥) « تذكرة السامع والمنكلم » (ص ٦٩) .

(٦) تُسَامَى : تُفَاخِرُ .

وقال ايضا:

كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي الْعُلُوِّ وَضَوْءُهُ
لِلْعُصْبَةِ (١) السَّارِينَ (٢) جِدُّ قَرِيبُ
والمحاورُ العاقلُ يرفعُ من شأنِ الآخرينَ ؛ لأنه يعلمُ أنَّ التكبرَ يُؤدِّي إلى
كراهيته ، وكراهة ما عنده من الحقِّ .

نقل الإمام الشاطبي عن أبي حامد الغزالي - رحمهما الله تعالى - قوله :
«أكثرُ الجهالاتِ إنما رَسَخَتْ في قلوبِ العوامِّ بتعصُّبِ جهلةِ أهلِ الحقِّ ،
أظهروا الحقَّ في معرضِ التَّحديِّ والإذلالِ ، ونظروا إلى ضُعفاءِ الخصومِ بعينِ
التَّحقيرِ والازدراءِ ، فثارت في بواطنهم دواعي المعاندةِ والمخالفةِ ، ورَسَخَتْ في
قلوبهم الاعتقاداتُ الباطلةُ ، وتعدَّرَ على العلماءِ المتلطفينَ مَحْوُها مع ظهورِ
فسادها » .

قال ابو نواس:

حَذَرْتُ: الْكِبَرَ لَا يَغْشَاكَ مَبْسَمُهُ
يَا بُوْسَ جَلْدَ عَلَى جَوْفِ مَجْوَفَةٍ
فَإِنَّهُ مَلْبَسٌ نَارَعَتَهُ اللَّهُ
يَخْوِي مَقَاذِيرَ ، إِنَّ كَلِمَتَهُ تَاهَا
إِنِّي لَأَمَقْتُ نَفْسِي عِنْدَ نَخْوَتِهَا
فَكَيْفَ آمَنُ مَقَّتَ اللَّهُ إِيَّاهَا !؟

وقال إمام الحرمين الجويني - رحمه الله تعالى - في ذكر آدابِ الجدْلِ : « فأولُّ
شيءٍ فيه ممَّا عليه النَّاطِرُ أن يقصدَ التَّقَرُّبَ إلى الله سبحانه وتعالى ، وطلبَ
مرضاته في امتثالِ أمره سبحانه فيما أمرَ به من المعروفِ ، والنَّهْيِ عن المنكرِ ،
والدُّعَاءِ إلى الحقِّ عن الباطلِ ، ويتَّقِي اللهَ أن يقصدَ بنظره المباهاةَ ، وطلبَ الجاهِ
والتَّكسُّبَ ، والمماراةَ ، والمحكِّ ، والرِّياءَ ، ويحذرُ اليمِّ عقابَ الله سبحانه

(١) العُصْبَةُ : الجماعة .

(٢) السَّارِينَ : السَّارِينَ ليلاً من السُّرى ، وهو سِرُّ اللَّيْلِ .

وتعالى ، ولا يكن قَصْدُهُ الظَّفَرَ بِالْخِصْمِ ، وَالسُّرُورَ بِالْغَلْبَةِ وَالْقَهْرَ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ دَابِّ الْأَنْعَامِ الْفَحُولَةِ : كَالْكَبَاشِ ، وَالذِّيكَ .

ثُمَّ قَالَ : « وَيَلْزَمُ الْخُشُوعَ وَالتَّوَاضُعَ ، وَيَقْصِدُ الْإِنْقِيَادَ لِلْحَقِّ ، فَيَكُونُ مِنْ جُمْلَةِ الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » { الزُّمَرُ : ١٨ } « (١) .

وقال ابن المقفع : « تَحَفَّظْ فِي مَجْلِسِكَ وَكَلَامِكَ مِنَ التَّطَاوُلِ عَلَى الْأَصْحَابِ وَطَبْ نَفْسًا عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَعْزِضُ لَكَ مِنْ صَوَابِ الْقَوْلِ وَالرَّأْيِ مُدَارَةً ؛ لِئَلَّا يَظَنَّ أَصْحَابُكَ أَنَّ دَابَّكَ التَّطَاوُلَ عَلَيْهِمْ » (٢) .

قال السهيلي :

تَوَاضَعَ إِذَا كُنْتَ تَبْغِي الْعُلَا
وَكُنْ رَاسِيًا عِنْدَ صَفْوِ الْغَضَبِ
فَخَفَضَ الْفَتَى نَفْسَهُ رِفْعَةً
لَهُ وَاعْتَبَرَ بِرُسُوبِ الذَّهَبِ

ومن اللطائف ما ذكره الماوردي - رحمه الله - قال : « حُكِيَ أَنَّ مُطَرِّفَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ نَظَرَ إِلَى الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ (٣) يَسْحَبُهَا ، وَيَمِشِي الْخِيَلَاءِ (٤) ، فَقَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، مَا هَذِهِ الْمِشِيَّةُ الَّتِي يُبْغِضُهَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ ! » .

فقال المهلب : أما تعرفني ؟ !

فقال : بل أعرفك ، أولئك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة (٥) ، فأخذ ابن عوف هذا الكلام ، فنظمه شعراً فقال :

- (١) « الكافية في الجدل » (ص ٥٢٩) .
(٢) « الأدب الصغير والكبير » (ص ١٣٤) .
(٣) الحلة : ثوب له ظهارة وبطانة من جنس واحد ، جمعها حلل .
(٤) الخيلاء : الكبرياء ، واحتقار الناس ، والعجب عليهم .
(٥) العذرة : الغائط .

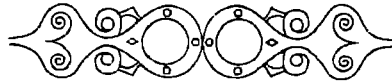
وَكَانَ بِالْأَمْسِ نُظْفَةً مَذْرَةً
يَصِيرُ فِي اللَّحْدِ جِنْفَةً قَذْرَةً
مَا بَيْنَ ثَوْبَيْهِ يَحْمِلُ الْعَذْرَةَ « (١)

عَجِبْتُ مِنْ مُعْجَبٍ بِصُورَتِهِ
وَفِي غَدٍ - بَعْدَ حُسْنِ صُورَتِهِ -
وَهُوَ فِي تَيْهِهِ وَنَخْوَتِهِ

وَآخِرًا قَالَ الْقحطاني:

فَالْعُجْبُ يُخْمَدُ جَمْرَةَ الْإِحْسَانِ (٢)

وَإِذَا غَلَبَتِ الْخَصَمَ لَا تَهْزَأُ بِهِ



(١) « أدب الدنيا والدين » (ص ٢٣٦-٢٣٧) .
(٢) « التوبة » (ص ٣٩) .

الرَّحْمَةُ بِالْخَصْمِ

أي أخي ، ما أُنْحَفَ الحوار بمثل استعمال الرَّحْمَةِ ! ؛ فَإِنَّ صَاحِبَ الْقَلْبِ القاسي يتمنى لغيره الأخطاءَ ، ويتصيدها عليهم من غير رحمة ولا شَفَقَةٍ ، والمحاوِر الرَّحِيمِ يَسْعَى لهداية الآخرين ، فهو يُشْفِقُ عليهم ، ويأسُ لأخطائِهِمْ ، فهو كالأب يفرحُ إذا أصابَ صَغَارُهُ الصَّوَابَ ، ويتمنى لهم الهدى والرَّشَادَ .

ولهذا امتدَحَ اللهُ سبحانه وتعالى نبيَّهُ ﷺ ، فقال له : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا ^(١) غَلِيظَ الْقَلْبِ ^(٢) لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ .

﴿ آل عمران : ١٥٩ ﴾ .

فقد كان عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ رحيماً برحمة الله لعباده ، ليئاً رقيقاً سَمِحاً ، مُبَشِّراً مُبَشِّراً ، لا منقراً ولا معسراً ، يدعو النَّاسَ بِسَمَاحَةٍ جَعَلَتْ الْأُمَّةَ تَنقَادُ إِلَيْهِ ، كيف لا وهو المبعوث رحمةً للعالمين بنصِّ الكتابِ المبينِ ؟ ! ، قال اللهُ سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٧) ﴿ الأنبياء : ١٠٧ ﴾ .

وتألَّقت فيه رحمته ولبينه تألقت الشمس في رابعة النهار ، حيث أتاه شابٌ تجرّي في عروقه حرارةُ الشَّبَابِ ، أتاه لیسأله شيئاً ، فیا تُرى عن ماذا سأله ؟ لقد سأله - ويكلُّ جُرْأَةً - أن يَأْذَنَ له بالزنى ! ، نَعَمَ الزنى ، فانظر - يا أخا الإسلام - كيف كَانَ تَصَرَّفَ الرَّحْمَةُ المهداة ، والنُّعْمَةُ المُسَدَّاة معَ هذا الشَّابِّ الجريءِ ، هل سبّه ؟ ، هل زجره ونهره ؟ ، هل عَنَّفَهُ وَوَبَّخَهُ ؟ ، لا وربُّ الكعبةِ ، ما فعلَ من ذلكَ من شيءٍ ، إذا ماذا تراه قال نبيُّ الرَّحْمَةِ ، وينبوع

(١) فظاً : سَيِّءَ الخُلُقِ .

(٢) غَلِيظَ الْقَلْبِ : قاسي القلب .

الحنان ، ومَعِينُ الرَّفْقِ وَاللَّيْنِ ؟ .

والقوم من حوله قَدْ زَجَرُوا الْفَتَى - وَحُقَّ لَهُمْ ذَلِكَ - وَلَكِنَّهُ ﷺ ناداهُ بصوت لَيِّنٍ ، فقال : « ادْنُ » ، فدنا منه قريبا ، فجلسَ ، ثم قال ﷺ : « أُتِحِبُهُ لِأُمَّتِكَ ؟ » ، قال : « لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك » ، قال ﷺ : « ولا النَّاسُ يَحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ » .

قال ﷺ : « أُتِحِبُهُ لِأَبْنَتِكَ ؟ » ، قال : « لا ، جعلني الله فداك » ، قال ﷺ : « ولا النَّاسُ يَحِبُّونَهُ لِأَبْنَاتِهِمْ » .

ثُمَّ أَخَذَ يُعَدِّدُ عَلَيْهِ : أَفُتِحِبُهُ لِأَخْتِكَ ، لِعَمَّتِكَ ، لِخَالَتِكَ . . . ، وَالشَّابُّ يَقُولُ : « لا - والله - ، جعلني الله فداك » .

فوضع النَّبِيُّ ﷺ يَدَهُ الشَّرِيفَةَ عَلَيْهِ ، وقال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ » ، فلم يكنُ الْفَتَى بعد ذلك يلتفت إلى شيءٍ (١) .

فتدبَّرَ - أخي - وتأمَّلْ ، فهذا الشَّابُّ عارمُ الشَّهْوَةِ ، نائر الغريزة ، صريحٌ في التَّعبير عن نوازعه إلى حدِّ الإغرابِ والإثارة ، ومع غرابة طلبه الذي أثار عليه الجالسين ، لم يكنُ من المحاور الحكيم الرَّحِيمِ ﷺ إلاَّ أَنْ لَقِيَهُ بهذا الرَّفْقِ العجيبِ ، والحوار الهادئ مراعاةً لحاله ، ومع الحوارِ الْمُنَاسِبِ ، واللِّمْسَةِ اللَّطِيفَةِ ، والدُّعَاءِ الْمُبَارَكِ ، قام ذلك الْفَتَى والزَّئِي أَكْرَهُ شَيْءٍ إِلَى نَفْسِهِ .

دَعَانِي وَأَعْظِي لِلْحَقِّ قُدُومًا وَقَالَ : أَلَا تُتُوبُ عَنِ الْغَوَانِي (٢)
وقال برأفةٍ : أوجدتَ طرقًا إِلَى الْقَلْبِ الْمَعْنَى (٣) بِالْأَمَانِي؟

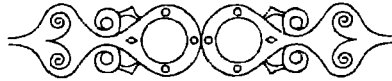
(١) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (١: ٢٥٧) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ ، وَصَحَّحَ الْإِبْرَاهِيمُ فِي الصَّحِيحَةِ (١)

(٢) الْغَوَانِي : جَمْعُ غَانِيَةٍ ، وَهِيَ الْمَرَأَةُ الْجَمِيلَةُ ، سُمِّيَتْ غَانِيَةً لِاسْتِغْنَائِهَا بِحُسْنِهَا وَجَمَالِهَا عَنِ الْحَلِيِّ وَنَحْوِهِ .

(٣) الْمَعْنَى : مَأخُوذٌ مِنْ عَيْبِ عَتَاءٍ ، وَهُوَ الْمَتَعَبُ الْحَزِينُ ، وَالْمُكَلِّفُ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِ .

أَجَابَ الْقَلْبُ دَاعِيَهُ ، فَأَخْبَا بِهَا جَسَدًا ضَعِيفًا كَانَ وَانِي (١)
 فَحَمْدًا لِلَّذِي أَعْطَى نَعِيمًا وَحَمْدًا خَالِقِي ، يَا مَنْ هَدَانِي
 وَلَا تَظَنَّ - أَخِي المَحَاوِر - أَنَّ هَذَا الأَثَرَ العَجِيبَ الَّذِي تَرَكَه ﷺ فِي
 نَفْسِ هَذَا الشَّابِّ مِنْ هُدُوءِ نَفْسٍ ، وَإِعْرَاضٍ عَنِ الزُّنَى الَّذِي كَانَ يَتَوَقَّعُ إِلَيْهِ ،
 وَيُرْغَبُ فِي ، كَانَ مُعْجِزَةً خَارِقَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ لَا تَتَكَرَّرُ لغيرِهِ إِلاَّ مِنْ بَابِ
 الكَرَامَةِ أَوْ خَوَارِقِ العَادَاتِ ، كَلَّا فَإِنَّ مَحَاوِرِ رَبَّانِيَّ الوِجْهَةَ ، نَبَوِيَّ الطَّرِيقَةَ ،
 يَقْتَدِي بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلًا وَعَمَلًا سَيَجِدُ - بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى - الأَثَرَ نَفْسَهُ ،
 أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ (٢) .

دَعَاكُمْ إِلَى خَيْرِ الأُمُورِ مُحَمَّدٌ وَلَيْسَ العَوَالِي (٣) فِي القَنَا (٤) كَالسَّوَابِلِ



(١) الواني : الضَّعِيفُ .

(٢) المنهاج النَّبَوِيُّ فِي تَرْبِيَةِ الشَّبَابِ « (ص ١٥٣) .

(٣) العَوَالِي : جَمْعُ عَالِيَةٍ ، وَهِيَ مَا يَلِي مَوْضِعَ السِّنَانِ مِنَ الرُّمْحِ .

(٤) القَنَا : جَمْعُ قَنَاةٍ ، وَهِيَ رُمْحٌ فِي رَأْسِهِ سِنَانٌ مِنَ الحَدِيدِ الصَّلْبِ الحَادِّ .

الهدوء

لا شكَّ أَنَّ الغَضَّ من الصَّوْتِ فيه أدبٌ مع الله ومع النَّاسِ ، وثقةٌ بالنَّفْسِ ،
واطمئنانٌ إلى صدقِ الحديثِ وقوَّتِهِ .

ومن هنا كان توجيهه لُقمان لابنه بغضُّ الصَّوْتِ وتقصيره ، قال الله تعالى
على لِسَانِهِ : ﴿ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) ﴾
لُقمان : ١٩ .

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسير الآية : ﴿ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾ ،
أي لا تُبَالِغْ في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ
أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، قال مُجاهدٌ وغيرُ واحدٍ : إنَّ أقبَحَ
الأصواتِ لصوت الحمير ، أي غاية من رفع صوته أن يُشَبَّهَ بالحمير في علوِّه
ورفعه ، ومع هذا هو بغيضٌ إلى الله ، وهذا التَّشْبِيهِ في هذا بالحمير يقتضي
تحريمه ، وذمُّه غايةَ الذمِّ « (١) .

وقال العلامة ابن سعدي - رحمه الله - في تفسيرها : ﴿ وَأَغْضُضْ مِنْ
صَوْتِكَ ﴾ أدباً مع النَّاسِ ومع الله ، ﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ ﴾ أي أفظعها
وأبشعها ﴿ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ، فلو كان في رفع الصَّوْتِ فائدةٌ ومصلحةٌ ، لما
اختصَّ بذلك الحمار الذي قد علمت خِسَّتُهُ وبِلادَتُهُ « (٢) .

ورفع الصوت حال المحاورَةِ من صفاتٍ وخصائصِ الجدَلِ المذموم ؛ لأنَّ رَفَعَ
الصوت - غالباً - فوق مقدار الحاجة لا يُظْهِرُ حقاً ، ولا يُبْطِلُ باطلاً .

(١) « تفسير القرآن العظيم » (٣/ ٤٣٠) .

(٢) « تيسير الكريم الرحمن » (ص ٦٤٩) .

قال الشاطبي - رحمه الله - : « رَفَعُ الصَّوْتِ مِنْ خِوَاصِّ الْجَدَلِ الْمَذْمُومِ ؛ لِأَنَّ رَفَعَ الصَّوْتِ ، وَالخُرُوجَ عَنِ الْعِتْدَالِ فِيهِ نَاشِئٌ عَنِ الْهَوَى فِي الشَّيْءِ الْمُتَكَلِّمِ فِيهِ » (١) .

فَعَلَى الْمَحَاوِرِ أَلَّا يَرْفَعُ صَوْتَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ السَّامِعُ ، فِي ذَلِكَ رِعُونَةٌ وَإِيذَاءٌ ، فَالْمَحَاوِرِ غَيْرِ الْخَطِيبِ ، وَرَفَعَ الصَّوْتِ لَا يُقَوِّي حُجَّةَ صَاحِبِهِ قَطُّ ، بَلْ إِنَّ صَاحِبَ الْحُجَّةِ الضَّعِيفَةِ يَحُولُ إِضْفَاءً هَذَا الضَّعْفَ بِالْحِدَّةِ وَالغَلْظَةِ وَالزُّعَامِ ، وَفِي أَكْثَرِ الْحَالَاتِ يَكُونُ صَاحِبَ الصَّوْتِ الْهَادِي هُوَ الَّذِي يَعْكَسُ عَقْلًا مُتَرَنِّيًا ، وَفِكْرًا مُنْتَظِمًا ، وَحُجَّةً وَمَوْضُوعِيَّةً ، وَانظُرْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - إِلَى الْبَحْرِ تَجِدُ الصَّخْبَ وَالضَّبَجِيجَ عَلَى الشَّاطِئِ وَعِنْدَ الصُّخُورِ ، حَيْثُ الْمَاءُ ضَحْلٌ لَا جِوَاهِرَ فِيهِ وَلَا دُرَّ ، وَتَجِدُ الْهُدُوءَ لَدَى الْمَاءِ الْأَعْمَقِ ، حَيْثُ نَفَائِسُ الْبَحْرِ وَكُنُوزُهُ ، وَفِي بَعْضِ الْأَمْثَالِ : « الْمَاءُ الْأَعْمَقُ أَهْدَى » .

وَقَدْ وَجِدَ - بِالْخَبْرَةِ وَالتَّجْرِبَةِ - أَنَّ الصَّوْتِ الْمُعْتَدِلُ الْهَادِي الْمَتَانِي ، مِنْ غَيْرِ صَرَخٍ أَوْ صِيَاحٍ ، وَمِنْ غَيْرِ إِسْرَارٍ وَإِخْفَاتٍ هُوَ الْأَدْخَلُ فِي النَفُوسِ ، وَالْأَنْفَدُ إِلَى الْأَعْمَاقِ ، وَالْأَحْفَظُ لَجَلَالِ الْكَلِمَةِ ، وَوَقَارِ الْمُتَكَلِّمِ (٢) .

قال الاخ الكريم العماد :

أَرَى الْبَحْرَ حَيْثُ الْعُمُقُ وَالْدُرُّ هَادِيًا
فَكُنْ هَادِيًا طَبْعًا تَكُنْ ذَا مَهَابَةٍ
فَصَوْتُكَ لَا يُعْطِيكَ قُوَّةَ حُجَّةٍ
فَعَقْلُ الْفَتَى عُنْوَانُهُ فِي لِسَانِهِ
وَيُلْقَى ضَبَجِيجُ الْبَحْرِ عِنْدَ السَّوَاهِلِ
وَلَا تَرْفَعَنَّ الصَّوْتِ عِنْدَ التَّجَادُلِ
وَعَظْمُكَ لَا يُرِيدُكَ بَيْنَ الْأَرَادِلِ
وَعِلْمُ الْفَتَى يُعْلِيهِ عَنْ كُلِّ سَافِلِ

(١) « الاعتصام » (٢/ ٩٤) .

(٢) « في أصول الحوار » (ص ٩٧) بتصرف .

فيا لله كم من هادئ عَفَّ اللِّسَانَ حَلِيمٍ كَاطِمٍ لِلغَيْظِ أَقْدَرُ عَلَى نُصْرَةِ الحَقِّ
من غَيْرِهِ ! .

قال أبو عثمان بن الإمام الشافعي - رحمهما الله - : « ما سمعتُ أبي يُناظِرُ
أحدًا فرقعَ صَوْتُهُ » (١) .

وقال الخطيب البغدادي - رحمه الله - في ذكر آداب الجدل (المناظرة) : « ويستشعر
في نفسه الوقارَ ، ويستعمل الهدوءَ ، وحسنَ السمْتِ ، وطولَ الصمْتِ إلا عندَ
الحاجة » (٢) .

وقال أيضاً : « وإن فحشَ الخصمُ في جوابِهِ ، وأحالَ في حجاجِهِ ، فينبغي
الأَّ يحتدُّ عليه ؛ ليحذرَ من الصَّياحِ في وجهِهِ ، والاستخفافِ به ؛ فإنَّ ذلكَ من
أخلاقِ السُّفهاءِ ، ومن لا يتأدَّبُ بأدبِ العلماءِ » (٣) .

وما من شكٍّ أنَّ الأحبالَ الصَّوتِيَّةَ لا تنوبُ عن الحجَّةِ القويَّةِ ، وحقيقة
الحالِ ، كما قال أحدُهُم :

صِغَارُ الأَسَدِ أَكْثَرُهَا رَيْباً وَأَصْرَمُهَا اللُّوَاتِي لا تَرَأُ
رُويَ أَنَّ المَرْزِيَّ - رحمه الله - ناظَرَهُ إنسانٌ كثيرُ الصَّياحِ ، كثيرُ الشَّعْبِ ،
فقال المَرْزِيُّ : « أَحْبَرْنَا الشافعيُّ أَنَّ أبا حنيفةَ ناظَرَ رجلاً ، فكثُرَ صياحُ أبي
حنيفةَ ، فمرَّ رجلٌ وقال : أَخْطَأْتُ يا أبا حنيفةَ . فقال أبو حنيفةَ : ما هذه
المسألةُ ؟ . قال الرَّجُلُ : لا أدري . فقال أبو حنيفةَ : فكيفَ عرفتَ أنَّني
أخْطَأْتُ ؟ ! . فقال الرَّجُلُ : لأنَّكَ إذا أَخْطَأْتَ صَحْتَ ، وإذا أَصَبْتَ رَفَقْتَ ؛
فعلمتُ أَنَّكَ أَخْطَأْتَ حيثُ رأيتُكَ تصيحُ ! » (٤) .

(١) مناقب الشافعي ، لليهقي (٢٨٧/١) .

(٢) الفقيه والمتفقه ، (١٧/٢٠) .

(٣) المرجع السابق (٣٥/١) .

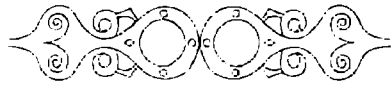
(٤) مناقب الشافعي ، للررازي (١٣٦) .

ومن اللطائف أن ابن عنين الشاعر سمع فقيهين كانا بدمشق يَبْزُ أحدهما
بالبغل ، والآخرُ بالجاموسِ ، فقال :

البَغْلُ والجاموسُ في جدليهما
بَرزًا عَشِيَّةً لَيْلَةً فَتَبَاحِثَا
مَا أَتَقْنَا غَيْرَ الصُّبْحِ كَأَنَّمَا
قَدْ أَصْبَحَا عِظَةً لِكُلِّ مُنَاطِرِ
هَذَا بَقَرْنِيهِ ، وَذَا بِالْحَافِرِ
لُقْنَا جِدَالَ المَرْتَضَى بْنِ عَسَاكِرِ

ورحم الله الإمام الشافعي . فقد كان يقول :

إِذَا مَا كُنْتَ ذَا فَضْلٍ وَعِلْمٍ
فَتُنَاطِرُ مَنْ تُنَاطِرُ فِي سُكُونٍ
يُفِيدُكَ مَا اسْتَفَادَ بِلَا امْتِنَانٍ
وَلِيَاكَ اللُّجُوجُ (٢) وَمَنْ يُرَائِي
بِمَا اخْتَلَفَ الأَوَائِلُ والأَوَاخِرُ
حَلِيمًا لَا تُلِحُّ وَلَا تُكَابِرُ
مِنَ النُّكْتِ (١) اللُّطِيفَةِ والنَّوَادِرِ
بَأَنِّي قَدْ غَلَبْتُ ، وَمَنْ يُفَاخِرُ
يَمْنِي بِالتَّقَاطُعِ والتَّدَابِيرِ (٣)



(١) النُّكْتُ : جَمْعُ نَكْتَةٍ ، وهي الفكرة اللطيفة المؤثرة في النفس ، والمسألة العلمية الدقيقة ، يتوصل إليها بدقة وإنعام فكر .

(٢) اللُّجُوجُ : التَّمَادِي فِي الخصومة ، مأخوذة من لَجَّ فِي الأمر لَجَّاجًا ولجاجة ، إذا لازمه وأبى الانصراف عنه .

(٣) ديوان الشافعي (ص ١١٠) تحقيق البقاعي .

الصدق

لا شكَّ أنَّ الصُّدُقَ من أهمِّ صفاتِ المحاور ، فالنَّاسُ إذا علموا صدقَ اللُّهجة من المحاور أكرموه ، وأجلُّوه وسودَّوه ، وحرصوا على صحبته ، وأصاخوا السَّمْعَ لحواره ، واستناروا برأيه ، وأخذوا بقوله ، فتطيبُ حياته ، ويكثرُ أنسهُ ، وتسعدُ نفسهُ ، واللهُ سبحانه وتعالى أمرَ بالصدقِ ، وأثنى على الصَّادِقِينَ ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١١٩) .

﴿ التَّوْبَةُ : ١١٩ ﴾ .

وأخبرَ سبحانه وتعالى أنَّ الصَّادِقِينَ ينفعهم صدقُهم يومَ القيامةِ ، فقال : ﴿ قَالاَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١١٩) .

﴿ المائدة : ١١٩ ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ ﴿ الأحزاب : ٢٤ ﴾ .
وأخبرَ سبحانه وتعالى أنَّ الشَّيَاطِينَ تُنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ، فقال : ﴿ هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مِنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ ﴾ (٢٢١) تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿ الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢ ﴾ ، فَعَلَىٰ قَدْرٍ كَذَبِ الشَّخْصِ تَمُدُّ الشَّيَاطِينُ فِي غِيِّهِ وَضَلَالِهِ .

وفضلاً عن ذلك فالصُّدُقُ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَالْبِرُّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ الصُّدُقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صَدِيقًا ، وَإِنَّ الْكُذْبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكُذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا » (١) .

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) .

وفي رواية لمسلم : « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ ، وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ؛ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ ، وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا » (١) .

قال ابن حبان - رحمه الله - : « كُلُّ شَيْءٍ يُسْتَعَارُ لِيُتَجَمَّلَ بِهِ سَهْلٌ وَجُودُهُ خَلَدَ اللَّسَانَ ؛ فَإِنَّهُ لَا يُنْبِئُ إِلَّا عَمَّا عُوِدَ ، وَالصِّدْقُ يَنْجِي ، وَالْكَذِبُ يُرْدِي ، وَمَنْ غَلَبَ لِسَانَهُ أَمْرَهُ قَوْمُهُ ، وَمَنْ أَكْثَرَ الْكَذِبَ لَمْ يَتْرِكْ لِنَفْسِهِ شَيْئًا يَصْدُقُ بِهِ ، وَلَا يَكْذِبُ إِلَّا مَنْ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ » (٢) .

قال الشاعر:

الْكَذِبُ مُرْدِيكَ ، وَإِنْ لَمْ تَخَفْ
فَانْطِقْ بِمَا شِئْتَ تَجِدُ غَيْبَهُ (٣)
وَالصِّدْقُ مُنْجِيكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ
لَمْ تُبْتَحَسْ (٤) وَزَنَّهُ مِثْقَالِ (٥)

وقال آخر:

كَذِبْتَ وَمَنْ يَكْذِبُ فَإِنَّ جَزَاءَهُ
إِذَا عُرِفَ الْكَذَّابُ بِالْكَذِبِ لَمْ يَزَلْ
وَمِنْ آفَةِ الْكَذَّابِ نِسْيَانُ كَذِبِهِ
إِذَا مَا أَتَى بِالصِّدْقِ أَلَّا يُصَدِّقًا
لَدَى النَّاسِ كَذَّابًا وَإِنْ كَانَ صَادِقًا
وَتَلَقَّاهُ ذَا فِغْهِ إِذَا كَانَ حَادِثًا (٦)

وَصِدْقُكَ أَخِي الْمَحَاوِرِ فِي حِوَارِكَ مَدْعَاةٌ لِقَبُولِ حِوَارِكَ ، أَلَا تَرَى أَنَّ رَسُولَ

(١) أَخْرَجَ مُسْلِمٌ (٢٦٠٧) .

(٢) « رَوْضَةُ الْعُقَلَاءِ » (ص ٥٢) .

(٣) غَيْبُ الشَّيْءِ : عَاقِبَتُهُ .

(٤) لَمْ تُبْتَحَسْ : لَمْ تُنْقَصْ .

(٥) « رَوْضَةُ الْعُقَلَاءِ » (ص ٥٢) .

(٦) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ .

الله ﷺ قال للمشركين : « أَرَأَيْتُمْ^(١) لِي أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ مَدَا
الْحَيْلِ ، أَكُنْتُمْ تُصَلُّونَ ؟ » ، قالوا : « مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا » .

وفي رواية أخرى للبخاري : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ يُصَبِّحُكُمْ أَوْ
يُمْسِيكُمْ^(٢) كَذِبًا ، لَمْ تُصَلُّوا ؟ » قالوا : « بَلَى »^(٣) .

وهرقلُ لما سألَ مُشْرِكِي مَكَّةَ عن رَسولِ اللهِ ﷺ فقال لهم : « فَهَلْ كُنْتُمْ
تَتَهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟ » قال أبو سُفْيَانُ : « لا » ، فقال هِرَقْلُ :
« فَقَدْ أَعْرَفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكْذِبَ عَلَى اللهِ »^(٤) .

قال الشاعر:

عَوْدٌ لِسَانَكَ قَوْلَ الْخَيْرِ تَحْظُ بِهِ إِنَّ اللِّسَانَ لَمَّا عَوَدَتْ مُعْتَادُ
مُوَكَّلٌ بِتَقَاضِي مَا سَنَنْتَ لَهُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَانظُرْ كَيْفَ تَرْتَادُ^(٥)

وَبِصْدَقِ الْحَوَارِيزِيِّ تَقَطُّعُ مَجَادَلَاتٍ ، وَتَزْوُلُ إِشْكَالَاتٍ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ كَعْبُ
بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ لَمَّا تَخَلَّفَ كَعْبٌ عَنِ الْعَزْرِ : « إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ
جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرَجَ مِنْ سَخَطِهِ بَعْدَ ، وَلَقَدْ
أَعْطَيْتُ جَدَلًا ، وَلَكِنِّي - وَاللَّهِ - لَقَدْ عَلِمْتُ لَنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ
تَرْضَى بِهِ عَنِّي ، لِيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسَخِّطَكَ عَلَيَّ ، وَلَنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثًا
صَدَقَ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عِقَابَ اللهِ » ، ثُمَّ قَالَ كَعْبٌ : « وَاللَّهِ ،
مَا كَانَ لِي عُذْرٌ ، وَاللَّهِ ، مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ »

أَرَأَيْتُمْ : أَخْبَرُونِي .

يَعْنِي يَغْيِرْ عَلَيْكُمْ صَبَاحًا أَوْ مَسَاءً .

أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٥٧٧) وَ (١٥٧٨) وَ (١٥٧٩) وَ (١٥٨٠) ، وَمُسْلِمٌ (١٠٠٠) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا .

أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٥٧٧) وَ (١٥٨٠) ، وَمُسْلِمٌ (١٠٠٠) .

(١) « أدب الدنيا والدين » للماوردي (ص ١٢٠) .

فقال رسولُ الله ﷺ : « أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَّقَ ، فَقَمٌ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ » (١) .
والصدقُ : هو أن يُخْبِرَ المحاورَ عما يعتقدُه أنه الصَّوابُ ، وأنه مطابقٌ
للواقعِ بلا زيادةٍ ، ولا نقصانٍ .
وكما يكونُ الصدقُ بالقَوْلِ ، يكونُ بالفعلِ ، والإشارةُ باليدِ ، أو هزُّ
الرَّأسِ ، وقد يكونُ بالسُّكوتِ .

وَصِدُّه الكَذِبُ ، وهو عملٌ مردوؤٌ ، وصفةٌ ذميمةٌ ، وخصلةٌ من خصالِ
التَّفَاقِ ، وشعبةٌ من شُعَبِ الكُفْرِ ، والكذبُ قبيحٌ ، وأقبحُ الكذبِ القولُ على
اللهِ بغيرِ علمٍ ، قال اللهُ سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمْ
الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكُذْبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ (١١٦) ﴿ النحل : ١١٦ ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ
تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ السَّوْدَةُ الْآبِسُ فِي نَارٍ عَظِيمَةٍ لِّلَّذِينَ
كَذَبُوا ﴾ ﴿ الزمر : ٦٠ ﴾ .

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ :
كَلِمَاتٌ مِنْهُنَّ كَذِبٌ عَلَى أَحَدٍ فَحَسْبُ كَذِبٍ عَلَيَّ مِنْهُنَّ . (٢)

ومن ذلك الكذب على أهل العلم ، فينقلُ عنهم خلافَ قولِهِم ، أو
ينقل عنهم كلامًا ناقصًا ، أو يقطعَ عبارةً عن سياقها ، أو يعزلها عن
مناسبتها ؛ ليقصرها على خدمة رأيه ، أو ينسب إليهم كلامًا لم يصحَّ عنهم
البتةُ فهذا دليلٌ على ضعةِ النَّفسِ ، وحقارةِ الشَّأنِ ، ويُنظرُ لصاحبِهِ بعينِ
الخيانةِ ، وفي منشورِ الحَكَمِ : « الكَذَابُ لِصٌّ ؛ لِأَنَّ اللَّصَّ يَسْرِقُ مَالَكَ ،

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨) ، ومسلم (٢٧١٩) .

(٢) أخرجه البخاري (١٣٥٨) ، ومسلم (١١٧١) برقم (٤٤) .

والكذابُ يسرقُ بقلبك، (١)

قال الشاعر:

إِذَا مَا الْمَرْءُ أَخْطَأَهُ ثَلَاثٌ فَبِعْغُهُ وَكَوْ بِكَفٍّ مِنْ رَمَادٍ
سَلَامَةٌ صَدْرِهِ وَالصُّدُقُ مِنْهُ وَكَيْتَمَانُ السَّرَائِرِ فِي الْفُؤَادِ (٢)

وقال ابن تيمية - رحمه الله - : « اللسانُ سبُعُ عَقُورٍ ، إن ضَبَطَهُ صاحِبُهُ سَلِمَ ، وإن خَلَّى عنه عَقْرَهُ ، وبِقَمِهِ يُفْتَضَحُ الكَذُوبُ ، فالعَاقِلُ لا يَشْتَغِلُ بِالخَوْضِ فيما لا يَعْلَمُ ؛ فَيَتَّهَمُ فيما يَعْلَمُ ؛ لأنَّ رَأْسَ الذُّنُوبِ الكَذِبُ ، وهو يَبْدِي الفِضَائِحَ ، ويكْتُمُ المحاسِنَ ، ولا يَجِبُ على المرءِ إِذَا سَمِعَ شَيْئًا يَعيِبُ أن يُحَدِّثَ به ؛ لأنَّ مَنْ حَدَّثَ عن كُلِّ شَيْءٍ أَرَى برأيه ، وأفسَدَ صِدْقَهُ » (٣) .

وقال أيضًا : « الصُّدُقُ يَرْفَعُ المرءَ في الدَّارَيْنِ ، كما أنَّ الكَذِبَ يَهْوِي به في الحَا ، ولو لم يكن في الصُّدُقِ خِصْلَةٌ تُحْمَدُ إِلَّا أنَّ المرءَ إِذَا عُرِفَ به قُبِلَ كَذِبُهُ وصَارَ صِدْقًا عِنْدَ مَنْ يَسْمَعُهُ ، لكان الواجبُ على العَاقِلِ أن يَبْلُغَ مَجْهُودَهُ في رِياضَةِ لِسَانِهِ ، حَتَّى يَسْتَقِيمَ له على الصُّدُقِ ، ومُجَانِبَةِ الكَذِبِ » (٤) .

وقال بعضُ الحكماءِ : « عَلَيْكَ بالصُّدُقِ ، فما السِّيفُ القاطِعُ في كَفِّ الرَّجُلِ الشُّجَاعِ بأعزَّ من الصُّدُقِ ، والصُّدُقُ عَزٌّ وإن كان منه ما تَكَرَّه ، والكَذِبُ ذُلٌّ ، وإن كانَ فيه ما تُحِبُّ ، وَمَنْ عُرِفَ بالكَذِبِ اتَّهَمَ بالصُّدُقِ » (٥) .

وقال ظَفر بن ظَريفٍ : « ما يَسْرُني أَني كَذِبتُ ، وأتَّى لي الدُّنيا وما فيها » (٦) .

(١) « أدب الدنيا والدين » (ص ٢٦٦) .

(٢) « روضة العقلاء » (ص ٥٣) .

(٣) المرجع السابق (ص ٥٣) .

(٤) المرجع السابق (ص ٥٤) .

(٥) « المحاسن والمساوي » (ص ٤٣٢) .

(٦) « السِّير » (٦/١٢٨) .

وقال بعض الحكماء: «الصدق عزيز، والكذب خضوع» (١).
وقال آخر: «لو لم يترك العاقل الكذب إلا مروءة، لقد كان حقيقاً
بذلك، فكيف وفيه المأثم والعار؟!» .

وقال الشاعر:

إِذَا الْأُمُورُ تَزَاوَجَتْ فَالصِّدْقُ أَكْرَمُهَا نِتَاجَا
وَالصِّدْقُ يَعْقِدُ فَوْقَ رَأَى سِ حَلِيفِهِ بِالصِّدْقِ تَاجَا
وَالصِّدْقُ يَقْدَحُ زَنْدَهُ (٢) فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ سِرَاجَا (٣)

وقال ابن السماك: «ما أحسبني أوجر على ترك الكذب؛ لأنني أتركه أنفة» (٤).
وقال الشعبي: «عليك بالصدق حيث ترى أنه يضرك؛ فإنه ينفعك،
واجتنب الكذب حيث ترى أنه ينفعك؛ فإنه يضرك» .

وقال الشافعي - رحمه الله - : «آلات الرياسة خمس: صدق اللهجة،
وكتمان السر، والوفاء بالعهد، وابتداء النصيحة، وأداء الأمانة» (٥).

وأخيراً قال الشاعر:

كَمْ مِنْ حَسِيبٍ كَرِيمٍ كَانَ ذَا شَرَفٍ قَدْ شَانَهُ الْكَذِبُ وَسَطَ الْحَيِّ إِنْ عَمَدَا
وَآخِرَ كَانَ صُعْلُوكًا (٦) فَشَرَّفَهُ صَدَقُ الْحَدِيثِ وَقَوْلُ جَانِبِ الْفَنَدَا (٧)
فَصَارَ هَذَا شَرِيفًا فَوْقَ صَاحِبِهِ وَصَارَ هَذَا وَضِيعًا تَحْتَهُ أَبَدَا (٨)

(١) «المحاسن والمساوي» (ص ٤٣٣).

(٢) الزند في الأصل: العود الذي يقتدح به النار، جمعه أزند ورناد.

(٣) «المحاسن والمساوي» (ص ٤٣٣).

(٤) المرجع السابق (ص ٤٣٣).

(٥) «السير» (١٠/٤٢).

(٦) صُعْلُوكًا: فقيراً.

(٧) الْفَنَدُ - بفتحين - : الكذب.

(٨) «روضة العقلاء» (ص ٥٥).

الإنصاف

أي أخي ، لا شكَّ أنَّ الإنصافَ في المُحاورَةِ من صفاتِ الرَبَّانِيِّينَ الذين لا يرجونَ إلَّا الحقَّ ، فهو آيةُ حُسْنِ الخُلُقِ ، وعُنوانُ علُوِّ الهِمَّةِ ، يدلُّ على نفسٍ مُطمئنَّةٍ ، وأفقٍ واسعٍ ، ونظيرٍ في العواقبِ بعيدٍ .

ومن الإنصافِ قَبُولُ الحقِّ من كُلِّ مَنْ قاله كائناً من كانَ ، حتَّى من المُبتدِعِ بل الكافرِ ، وهذا هو لبُّ الإنصافِ ولُبَّابُهُ ، بل مَرَبُطُ الفَرَسِ وبيتُ القَصِيدِ .

قال اللهُ تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٨) ﴿ المائدة : ٨ ﴾ .

وعن قتيلة بنت صَيْفِي الجُهَيْنِيَّةِ قالت : « أتى حبرٌ من الأَجبارِ رسولَ اللهِ ﷺ ، فقال : « يا مُحَمَّدُ ، نَعَمَ القَوْمُ أنتم ، لولا أنكم تُشركون » ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « سُبْحَانَ اللهِ ، وما ذاكَ ؟ ! » ، قال : « تقولون - إذا حلفتم - والكعبةُ ! » .

قالت : فأَمَهَلَ رسولُ اللهِ ﷺ شيئاً ، ثم قال : « إِنَّهُ قد قال . فَمَنْ حَلَفَ فَلْيَحْلِفْ بِرَبِّ الكَعْبَةِ » .

قال : « يا مُحَمَّدُ ، نَعَمَ القَوْمُ أنتم ، لولا أنكم تجعلون لله نداً ! » ، قال : « سُبْحَانَ اللهِ ، وما ذاكَ ؟ ! » ، قال : « تقولون : ما شاء اللهُ وشئتُ » .

قالت : فأَمَهَلَ رسولُ اللهِ ﷺ شيئاً ، ثمَّ قال : « إِنَّهُ قد قال ، فَمَنْ قال ما شاء اللهُ ، فليفصلْ بينهما ثمَّ شئتُ » (١) .

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٧١/٦) ، وَالْحَاكِمُ (١٩٧/٤) ، وَصَحَّحَهُ وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ ، وَصَحَّحَهُ - أَيْضًا - الألبانيُّ في صحيح الجامع (٦٢١٤/٢) ، وَالصَّحِيحَةُ (١٣٦) .

وقال في قصة أبي هريرة رضي الله عنه مع الشيطان الذي أراد أن يسرق من طعام الزكاة ، فأمسكه ثم أطلقه ، ثم قال له في الثالثة : « لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا نعود ، ثم تعود » .

قال : « دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها » ، قلت : « ما هن ؟ » ، قال : « إذا أويت إلى فراشك ، فاقراء آية الكرسي ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ { البقرة : ٢٥٥ } حتى تختتم الآية ؛ فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما إنك لعد صدقك وهو كذوب » (١) .

قال الشاعر :

عُدَّاتِي (٢) لَهُمْ فَضْلٌ عَلَيَّ وَمِنَّةٌ فلا أَعَدَّ الرَّحْمَنُ عَنِّي الْأَعَادِيَا
مُمْ بَحَثُوا عَن سَوَاتِي فَاجْتَنَّبَتْهَا وهم نَافسوني ، فَانكَسَبَتْ الْمُعَالِيَا

روى في كتاب العقول للشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : « والله قد أمرنا ألا نقول عليه إلا الحق ، وألا نقول عليه إلا بعلم ، وأمرنا بالعدل والقسط ، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني - فضلاً عن الرافضي - قولاً فيه حق أن نتركه ، أو نردّه كلّهُ ، بل لا نردُّ إلا ما فيه من الباطل دون ما فيه من الحق » (٣) .

وقال الشوكاني - رحمه الله - : « ومن الآفات المانعة عن الرجوع إلى الحق أن يكون المتكلم بالحق حدث السن بالنسبة إلى من يناظره ، أو قليل العلم ، أو الشهرة في الناس ، والآخر عكس ذلك ؛ فإنه قد تحمله حمية الجاهلية ، والعصية الشيطانية على التمسك بالباطل أنفة منه عن الرجوع إلى قول من هو أصغر منه سناً ، أو أقل منه علماً ، أو أخفى منه شهرة ، ظناً منه أن في ذلك

(١) أخرجه البخاري (٣٧٥) و (٥٠١) .

(٢) العداة : جمع عاد .

(٣) « منهاج السنة النبوية » (٣٩٢/٢) .

عليه ما يُحِطُّ منه ، وينقُصُ ما هو فيه ، وهذا الظنُّ فاسدٌ ؛ فإنَّ الحِطَّ والنَّقْصَ
 إِنَّا هو في التَّصْمِيمِ على الباطِلِ ، والعلوُّ والشرفُ في الرجوعِ إلى الحقِّ بيدِ مَنْ
 كانَ ، وعلى أيِّ وجهٍ حصلَ « (١) » .

وفي ذلك يقول ابن القيم - رحمه الله - في نونيته :

وتَعَرَّ مِنْ تَوَيْيْنٍ مَنْ يَلْبَسُهُمَا يَلْقَى الرَّدَى بِمَذْمَةٍ وَهَوَانٍ
 ثَوْبَ مِنَ الْجَهْلِ الْمَرْكَبِ فَوْقَهُ ثَوْبُ التَّعَصُّبِ ، بَسَّتِ الثَّوْبَانَ
 وَتَحَلَّ بِالْإِنْصَافِ أَفْخَرَ حُلَّةً زِينَتُهَا الْأَعْطَافُ^(٢) وَالْكَتِفَانُ^(٣)

وإذا ذكرتَ ما لكَ وما عليكَ من الأدلَّةِ والبراهينِ ، فقد بلغتَ قِمَّةَ
 الإنصافِ ؛ فإنَّ كتمَ أدلَّةِ الطَّرَفِ الآخرِ من أخلاقِ المغضوبِ عليهم ، الذين
 يلبسونَ الحقَّ بالباطلِ ؛ قال اللهُ تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ
 بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٧١) ﴿ [آل عمران : ٧١] .

وأخذَ بعضُ المبتدعةِ هذه الصِّفَّةَ الذَّميمةَ عن اليهودِ ؛ ولهذا قال وكيعُ بنُ
 الجراحِ - رحمه الله - : « أَهْلُ الْعِلْمِ يَكْتُبُونَ مَا لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِمْ ، وَأَهْلُ الْأَهْوَاءِ
 لَا يَكْتُبُونَ إِلَّا مَا لَهُمْ » (٤) .

وقال ابنُ تيمية - رحمه الله - : « يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْخُطَابُ فِي الْمَسَائِلِ بِطَرِيقِ
 ذِكْرِ دَلِيلٍ كُلِّ قَوْلٍ ، وَمُعَارَضَةِ الْآخِرِ لَهُ ؛ حَتَّى يَتَبَيَّنَ الْحَقُّ بِطَرِيقِهِ لِمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ
 هِدَايَتَهُ » (٥) .

(١) « أدب الطلب ومتبهي الأرب » (ص ٦٦) .

(٢) الأعطاف : جمع عطف ، وهو الجانب .

(٣) نونية ابن القيم بشرح محمد خليل هراس « (١/٥٢) » .

(٤) « سنن الدارقطني » (١/٢٦) .

(٥) « الفتاوى » (٨/١٠٨) .

قال الشاعر:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفِ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرْفِ الْهَجْرَانِ لَوْ كَانَ يَعْقِلُ
وَقَدْ تَقُولُ قَوْلًا تَرَاهُ صَوَابًا ، فَيَنْقُدُهُ آخَرُ بِمِيزَانِ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ ، وَلَمْ تَجِدْ
حَرَجًا مِنْ أَنْ تَقُولَ : أَخْطَأْتُ فِي قَوْلِي ، وَمَتَى فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ أَنْصَفْتَ نَفْسَكَ
مِنْ نَفْسِكَ ، وَلَوْ أَخَذْتَ هَذِهِ الْخِصْلَةَ حَظَّهَا مِنَ النَّفْسِ لَعَمَّ الْاِتْتِلافُ ، وَلَقَلَّ
الْاِخْتِلافُ .

عن الربيع بن سليمان قال : سمعتُ الشَّافعيَّ يقولُ : « ما أوردتُ الحقَّ والحُجَّةَ
على أحدٍ فقبلها إلاَّ هبتهُ ، واعتقدتُ مودتهُ ، ولا كابرني على الحقِّ أحدٌ ،
ودافعَ الحُجَّةَ إلاَّ سقطَ من عيني » (١) .

قال الشاعر:

وَلَمْ تَزَلْ قَلَّةُ الْإِنْصَافِ قَاطِعَةً بَيْنَ الرَّجَالِ ، وَإِنْ كَانُوا ذَوِي رَحِمٍ
وَمِمَّا يُعِينُ عَلَى الْإِنْصَافِ - أَيْضًا - أَنْ يَضَعَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ مَوْضِعَ خَصْمِهِ ؛
فَذَلِكَ مِمَّا يَدْعُو لِالْتِمَاسِ الْمَعَاذِيرِ ، وَالْبُعْدُ عَنْ إِسَاءَةِ الظَّنِّ ، وَالْحَذَرُ مِنْ مَوَاطِنِ
الظُّلْمِ وَالْاِعْتِسَافِ (٢) .

قال ابن حزم - رحمه الله - : « مَنْ أَرَادَ الْإِنْصَافَ فَلْيَتَوَهَّمْ نَفْسَهُ مَكَانَ خَصْمِهِ ،
فَإِنَّهُ يَلُوحُ لَهُ وَجْهٌ تَعَسَّفُهُ » (٣) .

واخيراً قال الاخ عبد الكريم العماد - حفظه الله - :

أَنْصِفْ وَإِنْ كُنْتَ ذَا جَاهٍ وَمُرْتَبَةٍ وَعُدْ إِلَى الْحَقِّ مَهْمَا كُنْتَ مُقْتَدِرًا
فَمَنْ تَكَبَّرَ فِي حَقِّ أَهْيَنِ بِهِ وَمَنْ تَوَاضَعَ فِي حَقِّ فَقْدٍ كَبْرًا

(١) « صفة الصَّفوة » (١٦٧/٢) .

(٢) « أَخْطَاءُ فِي أَدَبِ الْمَحَادَثَةِ » (ص ٧٤) .

(٣) « الْاِخْتِلافُ وَالسَّيْرُ » (ص ٨٠) .

الرفق

أي أخي ، لا شك أن الرفق من أهم الصفات التي يجب أن يتحلّى بها المحاور ، فليس المهم توصيل الحقيقة للناس ، ولكن الأهم هو الأسلوب والطريقة التي تصل بها إلي قلوبهم ، والطريقة هي الرفق ، والرفق هو اللطف، ومعناه الدفء بالتي هي أحسن .

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ، ولا ينزع من شيء إلا شانه » (١) .

وعنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله » (٢) .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعطي حظه من الرفق ، فقد أعطي حظه من الخير ، ومن حرم حظه من الرفق ، فقد حرم حظه من الخير » (٣) .

فمن أعطي الرفق والخلق ، فقد أعطي الخير كله والراحة ، وحسن حاله في دنياه وآخرته ، ومن حرم الرفق والخلق ، كان ذلك سبيلاً إلى كل شر وبليّة إلا من عصمه الله (٤) .

قال الشاعر:

الرفق أيمن شيء أنت تتبعه
والخرق أشأم شيء يقدم الرجل (٥)

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) .

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٣٥) و(٦٢٤) و(٦٣١) و(٦٢٥٦) و(٦٣٩٥) و(٦٤١) و(٦٩٢٧) ،
ومسلم (٢١٦٥١) .

(٣) أخرجه الترمذي (١٣٠٢) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٠٥٥/٢) ، والصحيحة (٥١٩)
و (٨٧٤) .

(٤) « الحلية » (١٨٠/٣) .

(٥) يقدم الرجل : يقوده ويتقدمه .

وذو التَّشْبِثِ مِنْ حَمْدِ إِلَى ظَفِيرٍ مَنْ يَرْكَبِ الرَّفْقَ لَا يَسْتَحْقِبُ (١) الزَّلَّالَ (٢)
واعلم - أخي عَلَّمَنِي اللهُ وَإِيَّاكَ - أَنَّ أَكْثَرَ الْمَخَالَفَاتِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَالْبَدْعِ فِي
الدِّينِ ، إِنَّمَا رَسَخَتْ فِي قُلُوبِ الْعَوَامِّ بِجَهْلِ بَعْضِ الْمَحَاوِرِينَ ؛ أَظْهَرُوا الْحَقَّ
بِاسْلُوبِ الشَّدَّةِ وَالْغِلْظَةِ ، مُلَبِّسًا الشَّيْطَانَ عَلَيْهِمْ بِدَعْوَى التَّخَطُّطَةِ ، وَدَعْوَى
الضَّلَالِ ، وَدَعْوَى الْإِبْتِدَاعِ ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا قَوْلَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يُبَدِّدُ أَوْ يُخْشَى ﴾ (٤٤) ﴿ طه : ٤٤ ﴾ .

وَكَأَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يَقُلْ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عِنْدَمَا قَالَتْ لِلْيَهُودِ : « بَلِّ
عَلَيْكُمْ السَّامُ (٣) وَاللَّعْنَةُ » ، « يَا عَائِشَةُ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ » (٤) .
وَفِي رَوَايَةٍ مُسْلَمٌ : « يَا عَائِشَةُ ، لَا تَكُونِي فَاخِشَةً » ، أَوْ فِي ثَالِثَةٍ لَهُ :
« مَهْ (٥) يَا عَائِشَةُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَالتَّنَحُّشَ » .

وَإِذَا كَانَتِ الْآيَةُ قَدْ نَزَلَتْ فِي حَقِّ أَكْفَرٍ خَلَقَ اللهُ ، وَاسْتَحَقَّ الْكَلِمَةَ الْبَيِّنَةَ ،
وَإِذَا كَانَ الْحَدِيثُ وَرَدَّ فِي حَقِّ الْيَهُودِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ، وَاسْتَحَقُّوا الرَّفْقَ ، أَفَلَا
يَسْتَحَقُّ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ الْبَدْعِ وَالْإِنْحِرَافِ هَذَا اللَّيْنُ وَالرَّفْقُ !؟ .

وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الرَّفْقِ السُّكُوتُ عَنِ الْبَدْعِ ، أَوْ أَنْ يُدَاهِنَ عَلَى الْمَعْصِيَةِ ، أَوْ
أَنْ يُسَايِرَ عَلَى الْإِنْحِرَافِ الْمُنْهَجِيِّ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْخَوَارِجِ الشَّدَّةُ وَالْغَضَاظَةُ ،
فَالْمُبْتَدِعُ إِذَا لَمْ يَأْتِ بِمَا يُخْرِجُهُ عَنِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ مُسْلِمٌ ، لَهُ حَقُّ الْإِسْلَامِ مِنَ
الْمَوْلَاةِ وَالنُّصْرَةِ ، وَالْمَوْلَاةِ - وَمِنْهَا النُّصْرَةُ - مُقَيَّدَةٌ بِشُرُوطٍ مَعْرُوفَةٍ ، مِنْهَا الْأَ
يَتَقَوَّى بِهَذِهِ الْمَوْلَاةِ عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَالْأَتَاكُونَ سَبَبًا فِي إِعَانَتِهِ عَلَى بَدْعَتِهِ ،

(١) اسْتَحْقَبَ الشَّيْءَ : جَعَلَهُ فِي حَقِيَّتِهِ ، كَأَنَّهُ يَرْجِعُ بِهِ إِلَى أَهْلِهِ .

(٢) « رَوْضَةُ الْعُقَلَاءِ » (ص ٢١٦) .

(٣) السَّامُ : الْمَوْتُ .

(٤) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ فِي حَاشِيَةِ (ص ٢١٤) .

(٥) مَهْ : كَلِمَةٌ نَهْيٌ وَرَجْرٍ ، وَهِيَ اسْمُ فِعْلٍ أَمْرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى السُّكُونِ ، مَعْنَاهُ : انْكَفَيْفِ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ .

إلى غير ذلك .

ثُمَّ إِنَّ الْبِدْعَ لَيْسَتْ عَلَى رُتْبَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلَكِنْ كَمَا يَقُولُ الشَّاطِبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : « وَلَقَدْ ثَبَتَ التَّفَاوُتُ فِي الْمَعَاصِي ، فَكَذَلِكَ يُتَّصَرُّ مِثْلَهُ فِي الْبِدْعِ » (١) وكما قال ابن تيمية : « فَالْتَّفَكِيرُ يَخْتَلِفُ بِحَسَبِ حَالِ الشَّخْصِ ، فَلَيْسَ كُلُّ مُخْطِئٍ ، وَلَا مُبْتَدِعٍ ، وَلَا جَاهِلٍ ، وَلَا ضَالٍّ يَكُونُ كَافِرًا ، بَلْ وَلَا فَاسِقًا ، بَلْ وَلَا عَاصِيًا » (٢) .

ثُمَّ إِنَّ أَحْكَامَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ تَرْجِعُ إِلَى أَهْلِ الْعِلْمِ وَالتَّقْوَى ، وَمَذْهَبِ إِمَامٍ مِنْ أُمَّةِ السَّلَفِ أَوْ قَوْلٍ لَهُ لَا يَطَّرُدُ عَلَى كُلِّ مُبْتَدِعٍ ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ : « وَكَثِيرٌ مِنْ أَجْوَبَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ مِنَ الْأُئِمَّةِ خَرَجَ عَلَى سُؤَالِ سَائِلٍ قَدْ عَلِمَ حَالَهُ ، أَوْ خَرَجَ خُطَابًا لِمَعِينٍ قَدْ عَلِمَ حَالَهُ ، فَإِنَّ أَقْوَامًا قَدْ جَعَلُوا هَذَا عَامًّا ، فَاسْتَعْمَلُوا مِنَ الْهَجْرِ وَالْإِنْكَارِ مَا لَمْ يُؤْمَرُوا بِهِ » (٣) .

قال الشاعر :

لَوْ سَارَ أَلْفٌ مُدَجِّجٌ (٤) فِي حَاجَةٍ لَمْ يَقْضِهَا إِلَّا الَّذِي يَتَرَفَّقُ (٥)

وقال آخر :

لَمْ أَرِ مِثْلَ الرَّفْقِ فِي لَيْنِهِ مَنْ يَسْتَعِينُ بِالرَّفْقِ فِي أَمْرِهِ
أَخْرَجَ لِلْعِذْرَاءِ مِنْ خِذْرِهَا يَسْتَخْرِجُ الْحَيَّةَ مِنْ جُحْرِهَا (٦)

ولكن ماذا عن الشدة ؟ ، لا شك أن الرفق هو الأصل ، إلا أن الشدة قد

(١) « الاعتصام » (٣٩/٢) .

(٢) « الفتاوى » (١٢٠ / ١٢) .

(٣) المرجع السابق (٢٨ / ٢١٣) .

(٤) المدجج : الفارس الذي قد توارى بالسلاح من كثرتة .

(٥) « روضة العقلاء » (ص ٥١٦) .

(٦) « حياة الحيوان » (١ / ٢٧٥) .

تُشْرَعُ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا ، كَمَا قِيلَ :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ رَاحِمًا فَلْيَقْسُ - أحيانًا - عَلَى مَنْ يَرْحَمُ
فَالشُّدَّةُ - أحيانًا - مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَلَا يُوفَّقُ لِمَعْرِفَةِ الْمَوْقِفِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ
الشُّدَّةَ إِلَّا الْخُلَّصُ مِنَ الرُّجَالِ ، وَالْمُحَاوِرُ الْحَكِيمُ يَسْتَعِدُّ الشُّدَّةَ إِلَى جَانِبِ
اسْتِخْدَامِهِ الرَّفْقَ ، وَهَكَذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَدْ رَفَقَ بِعُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ حِينَما
كَانَتْ يَدُهُ تَطْيِشُ فِي الصَّحْفَةِ (١) ، وَبِمُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ السُّلَمِيِّ حِينَما تَمَحَّدَتْ فِي
الصَّلَاةِ (٢) ، وَبِالْأَعْرَابِيِّ الَّذِي بَالَ فِي الْمَسْجِدِ (٣) ، وَبِالشَّابِّ الَّذِي جَاءَ يَسْتَأْذِنَهُ
فِي الزَّنْبِيِّ (٤) ، وَبِسَلْمَةَ بْنِ صَخْرٍ الَّذِي أَصَابَ مِنْ أَمْرَاتِهِ فِي رَمَضَانَ قَبْلَ أَدَاءِ
كُفَّارَتِهِ (٥) .

وَاسْتَعْدَمَ الشُّدَّةَ مَعَ مَنْ تَخْتَمُ بِالذَّهَبِ (٦) ، وَمَعَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ مَسَحُوا
الْأَرْجُلَ أَثْنَاءَ الْوُضُوءِ (٧) ، وَمَعَ الْإِمَامِ الَّذِي أَطَالَ بِالصَّلَاةِ (٨) ، وَمَعَ أَبِي ذَرٍّ
حِينَما سَبَّ غُلَامَهُ (٩) ، وَمَعَ عُمَرَ حِينَما سَمِعَهُ يَحْلِفُ بِأَبِيهِ (١٠) ، وَكَانَ مِنْ
أَسْبَابِ هَذَا التَّنَوُّعِ مُرَاعَاةُ أَحْوَالِ الْمُخَاطَبِينَ ، فَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ
الرَّفْقَ بِالْجَاهِلِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ حُكْمَ الشَّرْعِ لِصِغَرِ سِنِّهِ ، أَوْ حَدِيثَ عَهْدِهِ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٥٣٧٧) وَ (٥٣٧٨) ، وَمُسْلِمٌ (٢٠٢٢) .

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٥٣٧) .

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٢٢٠) وَ (٦١٢٨) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَ (٢١٩) وَ (٦٠٢٥) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ .

وَمُسْلِمٌ (٢٨٤) وَ (٢٨٥) عَنْ أَنَسٍ .

(٤) تَقْدِيمُ تَخْرِيجَةٍ فِي حَاشِيَةِ (ص ١٩٨) .

(٥) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ (٢٢١٣) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٢٩٩) ، انظر صحيح سنن التِّرْمِذِيِّ لِلأَلْبَانِيِّ (١/٥٣٢) .

(٦) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (١٨٩/١) .

(٧) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦٠) وَ (٩٦) وَ (١٦٣) ، وَمُسْلِمٌ (٢٤١) عَنْ ابْنِ عَمْرٍو .

(٨) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٩) وَ (٧٠٢) وَ (٧٠٤) وَ (٦١١٠) وَ (٧١٥٩) ، وَمُسْلِمٌ (٤٦٦) عَنْ أَبِي

مَسْعُودِ الْأَنْصَارِيِّ .

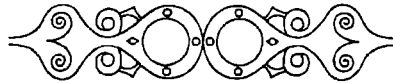
(٩) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٠) وَ (٢٤٥) وَ (٦٠٥٠) ، وَمُسْلِمٌ (١٦٦١) .

(١٠) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٦١٠٨) وَ (٦٦٤٦) ، وَمُسْلِمٌ (١٦٤٦) عَنْ ابْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

بالإسلام ، واستخدمَ الشدةَ مع مَنْ صَدَرَ مِنْهُمْ ما لا يُتَوَقَّعُ مِنْهُمْ ذلكَ لِطَوْلِ
صُحْبَتِهِمْ لَهُ ، ولعلمهم وورعهم وتقواهم ، واللهُ تعالى أعلم بالصواب (١) .

واخيراً قالَ أبو الفتح البستي:

ورافق الرفقَ في كُلِّ الأُمُورِ ، فَلَمْ
ولا يُغْرِنَكَ حَظُّ جَرِّهِ خَرْقُ
يَنْدَمُ رَفِيقٌ ، ولم يَذُمَّهُ إِنْسَانٌ
فَالخَرْقُ هَدْمٌ وَرَفِقُ المَرْءِ بِنْيَانٌ (٢)



(١) انظر « مراعاة أحوال المخاطبين » (ص ٨٦) .

(٢) « جواهر الأدب » (ص ٦٧١) .

الحِلْمِ

أي أخي ، هناك ارتباطٌ مُؤَكَّدٌ بينَ ثِقَةِ المحاورِ بنفسِه وصدقِ مذهبِه وبينَ حلمِه مع الآخرين ، فمتى كان كذلك اتَّسعَ صدرُه ، وامتدَّ حلمُه ، وعذَرَ النَّاسَ من أنفسهم ، والتَّمَسَ المَبْرُراتِ لأغلاطهم ، فإذا عَدَاَ عليه غرٌّ يُريدُ تجريحه ، ولم يَقبَلِ السَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا ، بَلْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، يفيضُ من حِلْمِه على ذوي النَّزَقِ (١) والطَّيشِ ، فيُطْلِقُونَ ألسِنَتَهُم بالدُّعَاءِ والنَّيِّءِ ، هذا حكمُ الله .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (٣٤) ﴿ فَصَلَّتْ : ٣٤ ﴾ .

قال ابن حبان - رحمه الله - : « الواجبُ على العاقلِ توطِينُ النَّفْسِ على لزومِ العَفْوِ عن النَّاسِ كافَّةً ، وتركُ الخُروجِ لمجازاةِ الإساءةِ ؛ إذ لا سببَ لتسكينِ الإساءةِ أحسنُ من الإحسانِ ، ولا سببَ لنماءِ الإساءةِ وتهييجها أشدُّ من الاستعمالِ بِمِثْلِهَا » (٢) .

وقال أيضاً : « النَّاسُ على ضُرُوبٍ ثلاثةٍ : رجلٌ أعزُّ منك ، ورجلٌ أنتَ أعزُّ منه ، ورجلٌ ساواك في العزِّ ، فالتَّجاهلُ على مَنْ أنتَ أعزُّ منه لُؤْمٌ ، وعلى مَنْ هو أعزُّ منك جنفٌ ، وعلى مَنْ هو مثلكَ هراشٌ كهراشِ الكَلْبَيْنِ ، ونقارٌ منقارِ الدَّيْكَيْنِ ، ولا يفترقان إلاَّ عَنِ الحَدْسِ والعَقْرِ والهَجْرِ ، ولا يكادُ يوجدُ التَّجاهلُ وتركُ التَّحالمِ إلاَّ مَنْ سَفِيهينِ ، ولقد أحسنَ الذي يقولُ :

مَا تَمَّ حِلْمٌ وَلَا عِلْمٌ بِلَا أَدَبٍ وَلَا تَجَاهَلٌ فِي قَوْمِ حَلِيمَانَ
وَمَا التَّجَاهَلُ إِلَّا تَوْبٌ ذِي دَنْسٍ وَلَيْسَ يَلْبَسُهُ إِلَّا سَفِيهَانِ (٣)

(١) النَّزَقُ : السَّفَهَ والطَّيشَ .

(٢) « روضة العقلاء » (ص ١٦٦) .

(٣) المرجع السابق (ص ٢١٢) .

فكن - اخي - كما قال منصور بن محمد الكريزي:

سَأَلَزِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مُذْنِبٍ وَإِنْ كَثُرَتْ مِنْهُ إِلَيَّ الْجَرَائِمُ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا وَاحِدٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ شَرِيفٌ وَمَشْرُوفٌ وَمِثْلٌ مُقَاوِمٌ
فَأَمَّا الَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ فَضْلَهُ وَأَتَّبِعُ فِيهِ الْحَقَّ ، وَالْحَقُّ لَازِمٌ
وَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَإِنْ قَالَ صُنْتُ عَنْ إِجَابَتِهِ عَرْضِي وَإِنْ لَمْ لَائِمٌ
وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ أَوْ هَفَا تَفَضَّلْتُ إِنَّ الْحِلْمَ لِلْفَضْلِ حَاكِمٌ (١)

وقد يظنُّ ظانٌّ أنَّ العَفْوَ عن المِسِيءِ ، والإِحْسَانَ إِلَيْهِ مع القُدْرَةِ عَلَيْهِ موجبٌ للذِّكَّةِ والمِهَانَةِ ، وأنَّه قد يجرُّ إلى تَطَاوُلِ السُّفَهَاءِ ، وهذا خطأ ؛ لِأَنَّ الحِلْمَ والعَفْوَ لا يَشْتَبَهُ بِالذِّكَّةِ بِحَالٍ ، فَإِنَّ الذِّكَّةَ احْتِمَالُ الأذَى عَلَى وَجْهِ يُذْهِبُ بِالكِرَامَةِ ، أَمَّا الحِلْمُ فَهُوَ إِغْضَاءُ الرَّجُلِ عَنِ المَكْرُوهِ ، حَيْثُ يَزِيدُهُ الإِغْضَاءُ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ رِفْعَةً وَمِهَابَةً .

قال كعب الغموي:

حَلِيمٌ إِذَا مَا الحِلْمُ زَيْنَ أَهْلِهِ مَعَ الحِلْمِ فِي عَيْنِ العَدُوِّ مَهْيَبٌ
إِذَا مَا تَرَاهُ الرَّجَالَ تَحَفَّظُوا فَلَمْ يَنْطِقِ العوراءُ (٢) وَهُوَ قَرِيبٌ (٣)

فالعفو إسقاطُ حَقِّكَ جَوْدًا وكرَمًا وإِحْسَانًا مع قُدْرَتِكَ عَلَى الانتِقَامِ ، فتؤثِّرُ التَّرْكَ رَغْبَةً فِي الإِحْسَانِ ، ومكَارِمَ الأَخْلَاقِ ، بِخِلَافِ الذُّلِّ فَإِنَّ صَاحِبَهُ يَتْرَكَ الانتِقَامَ عَجْزًا وَخَوْفًا ومِهَانَةً نَفْسِ ، فلهذا غير محمودٍ ، لعلَّ المُنْتَقَمَ أَحْسَنُ حَالًا مِنْهُ (٤) .

(١) المرجع السابق (ص ١٦٦) .

(٢) العوراء : الكلمة القبيحة .

(٣) الحلم ، (ص ٦٠) .

(٤) مدارج السالكين ، (٢/٣٢٨) .

قال الشاعر:

لا يَبْلُغُ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا حَتَّى يَذِلُّوا - وَإِنْ عَزُّوا - لَأَقْوَامٍ
وَيُسْتَمُوا فَتَرَى الْأَلْوَانَ مَسْفِرَةً لا صَفْحَ ذُلٌّ وَلَكِنْ صَفْحُ أَحْلَامٍ

والحلم أقلُّ كُفَّةً ، وأيسرُ مؤنَّةً ، فما أجمله لك تاجًا ! ، فإن لم تكن
حليماً فتحلِّمْ ، حتى يُصبحَ ذلكَ فيكَ سَجِيَّةً وَخُلُقًا ، فقد قال حبيُّكَ ﷺ :
« إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ » (١) .

وقال ﷺ للأشجَّ بن عبد القيسِ : « إِنَّ فِيكَ لَخُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ : الْحِلْمُ
وَالْأَنَاةُ » ، قال : « يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أهما خُلُقَانِ تَخَلَّقْتُ بِهِمَا ، أَمْ جَبَلْنِي اللَّهُ
عليهما ؟ » ، قال : « بَلْ جَبَلَكَ اللَّهُ عليهما » فقال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي
عَلَى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ » (٢) .

قال الكريزي:

إِذَا أَنَا كَافَيْتُ الْجَهْلَ بِفِعْلِهِ فَهَلْ أَنَا إِلَّا مِثْلُهُ إِذْ أَحَاوَرُهُ ؟
وَلَكِنْ إِذَا مَا طَاشَ بِالْجَهْلِ طَاشِ عَلَيَّ ، فَإِنِّي بِالتَّحَلُّمِ قَاهِرُهُ (٣)

وقد بَلَغَ الرَّسُولُ ﷺ فِي حِلْمِهِ وَعَقْفِهِ الْغَايَةَ الْمِثَالِيَّةَ ، فعلى جادة

المثال :

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ (٤)
نَجْرَانِي غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ ، فَجَبَذَهُ (٥) بِرِدَائِهِ جَبَذَةً شَدِيدَةً ، حَتَّى

(١) تقدّم تخريجه .

(٢) أخرجه أبو داود (٥٢٢٥) ، وأحمد (٢٠٦/٤) ، وأخرج شطره الأوّل مسلم (١٧) والترمذي

(٢٠١١) عن ابن عباس .

(٣) « روضة العقلاء » (ص: ٢١) .

(٤) البرد : كساءٌ مُخَطَّطٌ يَلْتَحِفُ بِهِ ، جمعه برودٌ .

(٥) الجبذة : الجذبة .

نظرتُ إلى صَفْحَةٍ (١) عَاتِقِ (٢) رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَثْرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْدَتِهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، مُرُّ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ ضَحِكَ ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ (٣) .

قال ابن حجر - رحمه الله - مُتَخَلِّقًا عَلَى هَذَا النِّصْبِ : « وَهَذَا مِنْ رَوَائِعِ حِلْمِهِ ﷺ وَكَمَالِهِ ، وَحُسْنِ خُلُقِهِ ، وَصَفْحَةِ الْجَمِيلِ ، وَصَبْرِهِ عَلَى الْأَذَى فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ ، وَالتَّجَاوُزِ عَلَى جَفَاءِ مَنْ يُرِيدُ تَأْلُفَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَلِيْتَأَسَى بِهِ الدُّعَاةُ إِلَى اللَّهِ وَالْوَلَاةُ بَعْدَهُ فِي حِلْمِهِ ، وَخُلُقِهِ الْجَمِيلِ مِنَ الصَّفْحِ وَالْإِصْغَاءِ ، وَالْعَفْوِ ، وَالِدَّفْعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » (٤) .

وقد كان لِأَيِّمَّةِ السَّلَفِ عَقُولٌ رَاجِحَةٌ ، وَحِكْمَةٌ بِالْغَةِ ، رَادَهَا الْقُرْآنُ نُورًا عَلَى نُورِهَا ، فَكَانُوا غِيظَ الْعَدُوِّ ، وَقَوَامَ الْأَمْرِ .

دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ :

« هِيَ (٥) يَا بْنَ الْخَطَّابِ ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ (٦) ، وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ » ، فَغَضِبَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى هَمَّ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ بْنُ قَيْسٍ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١٩٩) ﴿ { الْأَعْرَافُ : ١٩٩ } ، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ » ، فَمَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا ، وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ (٧) .

(١) الصَّفْحَةُ : الْجَانِبُ .

(٢) الْعَاتِقُ : مَا بَيْنَ الْعُنُقِ وَالْكَتِفِ .

(٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣١٤٩) وَ (٥٨٠٩) وَ (٦٠٨٨) ، وَمُسْلِمٌ (١٠٥٧) .

(٤) الْفَتْحُ (٥٦/١٠) ، وَشَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَى مُسْلِمٍ (١٤٦/٧-١٤٧) .

(٥) هِيَ : كَلِمَةٌ تَنْبِيهُ ، وَتَحْمَلُ مَعْنَى التَّهْدِيدِ .

(٦) الْجَزْلُ : الشَّيْءُ الْكَثِيرُ .

(٧) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٤٦٤٢) وَ (٧٢٨٦) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ .

قال الشاعر:

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَا
وَأَنْ كَانَتْ النِّعْمَاءُ فِيهِمْ جَزَوْا بِهَا
وَأَنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ عَلَى جَلِّ حَادِثٍ
مِنَ الْأَمْرِ: رُدُّوا فَضْلَ أَحْلَامِكُمْ رَدُّوا^(١)

والحلم من أشرف الأخلاق ، وأحقها بذوي الألباب ، فمتى ما عرضَ
المحاور عن الجاهل ، فقد حفظَ على نفسه عزَّتها ، ونأى بها عن المهاترات
والإقذاع .

قال الشافعي - رحمه الله - :

إِذَا سَبَّيْ نَذَلُّ تَزَايَدْتُ رَفْعَةً
وَكَلِمَةٌ لَمْ تَكُنْ نَفْسِي عَلَيَّ عَزِيزَةً
وَمَا الْعَيْبُ إِلَّا أَنْ أَكُونَ مُسَابِيَهُ
لَمَكَّتْهَا مِنْ كُلِّ نَذَلٍ تُحَارِيَهُ^(٢)

والخرب تقول: « إن من ابتغاء الخير اتقاء الشر »^(٣) .

وروي أن رجلاً نال من عمر بن عبد العزيز ، فلم يُجِبْهُ ، فقيل له : « ما
يَمْنَعُكَ منه !؟ » ، فقال : « التقى ملجم »^(٤) .

وأكثرَ رجلٌ من سبِّ الأحنف وهو لا يُجِيبُهُ ، فقال - يعني السَّابَّ - :
« والله ، ما منعه من جوابي إلاَّ هواني عليه »^(٥) .

قال الشاعر:

رَجَعْتُ عَلَى السَّفِيهِ بِفَضْلِ حِلْمٍ
وَكَانَ الْحِلْمُ عَنْهُ لَهُ لِحَامًا^(٦)

(١) « الحلم » (ص ٥٦) .

(٢) « ديوان الشافعي » (ص ٢٩) تحقيق البقاعي .

(٣) « الأمثال » (ص ١٥٩) .

(٤) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/٤٢٤) .

(٥) « أدب الدنيا والدين » (ص ٢٥٣) .

(٦) اللِّجَامُ : ما يُلْجَمُ به الفرس في فمه .

وَوَظَنُّ بِي السَّفَاهَ فَلَمْ يَجِدْنِي أَسَافَهُهُ ، وَقُلْتُ لَهُ سَلَامَا
فَقَامَ يَجْرُ رَجْلَيْهِ ذَلِيلًا وَقَدْ كَسَبَ الْمَذْمَةَ وَالْمَلَامَا
وَفَضْلُ الْحِلْمِ أْبْلَغُ فِي سَفِيهِ وَأَحْرَى أَنْ يُنَالَ بِهِ انتِقَامَا (١)

وعن عبد الملك - أو قيس بن عبد الملك - قال : « قام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته ، وعرض له رجلٌ بيده طومار (٢) ، فظنَّ القومُ أنه يريدُ أمير المؤمنين ، فخاف أن يحبسَ دونهُ ، فرماه بالطومار ، فالتفت عمرُ ، فوقعَ في وجهه فشجَّه » ، قال : « فنظرتُ إلى الدِّماء تسيلُ من وجهه وهو قائمٌ إلى الشمسِ ، فلم يبرحَ حتَّى قرأ الطومار ، وأمرَ له بحاجته ، وختلَّى سبيلَه » (٣) .
وأسمع رجلُ ابنَ هبيرة ، فأعرضَ عنه ، فقال : « إِيَّاكَ أَعْنِي » ، فقال :
« وَعَنْكَ أَعْرِضُ » (٤) .

قال الشاعر:

أَوْ كُلَّمَا طَنَّ الذُّبَابُ طَرَدْتُهُ ؟ إِنَّ الذُّبَابَ - إِذَا - عَلَيَّ كَرِيمٌ (٥)
على أنَّهُنَاكَ حالات يكون فيها الجهلُ من الحِلْمِ ، كما قال ابن حبان - رحمه الله - : « وربما يُدفع العاقلُ إلى الوقت بعد الوقت إلى مَنْ لا يُرضيه عنه الحِلْمُ ، ولا يُقنعه عن الصَّفْحِ ، فحينئذٍ يحتاجُ إلى سفيهٍ ينتصرُ له ؛ لأنَّ ترك الحِلْمِ في بعضِ الأوقاتِ من الحِلْمِ » (٦) .

(١) « الحِلْمِ » (ص ٣٤) .

(٢) الطومار : صحيفة مطوية .

(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/٤٢٣) .

(٤) « بهجة المجالس » لابن عبد البر (٢/٤٣٦) .

(٥) « أدب الدنيا والدين » (ص ٢٥٣) .

(٦) « روضة العقلاء » (ص ٢١٣) .

قال الشاعر:

إِذَا كُنْتَ بَيْنَ الْحِلْمِ وَالْجَهْلِ قَاعِدًا وَخَيْرَتَ أَنِّي شِئْتَ ، فَالْحِلْمُ أَفْضَلُ
وَلَكِنْ إِذَا أَنْصَفْتَ مَنْ لَيْسَ مُنْصَفًا وَلَمْ يَرْضَ مِنْكَ الْحِلْمَ فَالْجَهْلُ أَفْضَلُ (١)

ولم ينكر الرسول ﷺ على النّابغة الجعديّ حينما أنشد بحضرته :
ولا خيرَ في حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ (٢) تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكْدَرَا
ولا خيرَ في جَهْلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَلِيمٌ إِذَا مَا أوردَ الأَمْرَ أَصْدَرَا (٣)

ومن الحالات التي ينبغي فيها الغضب ، ولا يشرع فيها الحلم عند انتهاك حرمة الله ، والاعتداء على شرعه ، ويدل عليه قول عائشة رضي الله عنها : « ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ، ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه ، إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم الله بها » (٤) .

وفي رواية : « فإن انتهكت حرمة الله ، كان أشد الناس غضباً لله » (٥) .
ومن اللطائف في هذا الباب حوار معن بن زائدة (٦) مع بعض الشعراء غاية في الحلم ، فقد كان معن لا يغيظ أحداً ، ولا أحداً يغيظه ، فقال بعض الشعراء : أنا أغيظه لكم ، ولو كان قلبه من صخر ، فراهنوه على مئة بعير ، إن أغاظه أخذها ، وإن لم يغيظه دفع مثلها ، فعمد الرجل إلى جمل ، فذبحه وسلخه ، ولبس الجلد مثل الثوب ، وجعل اللحم من خارج ، والشعر من

(١) المرجع السابق .

(٢) بوادر : جمع بادرة ، وهي الحدّة عند الغضب .

(٣) « البداية والنهاية » (٦ / ٥٦٠ ، ٥٦١) .

(٤) أخرجه البخاري (٣٥٦٠) ، ومسلم (٧٨) .

(٥) الرواية ذكرها الحافظ في الفتح ، وسكت عنها (٥٧٦/٦) .

(٦) هو أبو الوليد معن بن زائدة ، كان جواداً شجاعاً ، حليماً جزيلاً العطاء ، عاش في دولتي بني أمية وبني العباس ، ثم قتله قوم من الخوارج سنة (١٥١هـ) .

داخل ، والدُّبَابُ يَقَعُ عَلَيْهِ وَيَقُومُ ، وَلِبَسَ بَرَجْلِيهِ نَعْلَيْنِ مِنْ جِلْدِ الْجَمَلِ ،
وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيْ مَعْنٍ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ ، وَمَدَّ رَجْلِيهِ فِي وَجْهِهِ ، وَقَالَ :

أنا - والله - لا أبدي سلامًا عَلَى مَعْنٍ الْمُسَمَّى بِالْأَمِيرِ
فَقَالَ لَهُ مَعْنٌ : السَّلَامُ لَكَ ، إِنْ سَلَّمْتَ رَدَدْنَا عَلَيْكَ ، وَإِنْ لَمْ تُسَلِّمْ فَمَا
عَتَبْنَا عَلَيْكَ . فَقَالَ :

سَأَرْحَلُ عَنْ بِلَادٍ أَنْتَ فِيهَا وَلَوْ حَزَتْ الشَّامَ مَعَ الثُّغُورِ
فَقَالَ لَهُ مَعْنٌ : الْبِلَادُ بِلَادُ اللَّهِ ، إِنْ نَزَلْتَ فَمَرْحَبًا بِكَ ، وَإِنْ رَحَلْتَ كَانَ
اللَّهُ فِي عَوْنِكَ . فَقَالَ :

وَأَرْحَلُ مِنْ بِلَادِ أَلْفِ شَهْرٍ أَجِدُ السَّيْرَ فِي أَعْلَى الْقُفُورِ (١)
فَقَالَ لَهُ : مَضْحُوبًا بِالسَّلَامَةِ . فَقَالَ :

أَتَذْكُرُ إِذْ قَمِيصُكَ جِلْدُ شَاةٍ وَإِذْ نَعْلَاكَ مِنْ جِلْدِ الْبَعِيرِ !؟
فَقَالَ مَعْنٌ : أَعَرَفْتُ ذَلِكَ وَلَا أَنْكَرُهُ . فَقَالَ :

وَتَهَوَى كُلُّ مِصْطَبَةٍ وَسُوقٍ بِلَا عَابِدٍ لَدَيْكَ وَلَا وَزِيرٍ
فَقَالَ لَهُ مَعْنٌ : مَا نَسِيتُ ذَلِكَ يَا أَخَا الْعَرَبِ . فَقَالَ :

وَتَوَمَّكَ فِي الشِّتَاءِ بِلَا رِدَاءٍ وَأَأْكَلُكَ - دَائِمًا - خُبْزَ الشَّعِيرِ
فَقَالَ لَهُ مَعْنٌ : الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ . فَقَالَ :

وَفِي يُمْنَاكَ عُمَّارٌ (٢) قَوِيٌّ تَذُودُ بِهِ الْكِلَابَ عَنِ الْهَرِيرِ
فَقَالَ مَعْنٌ : مَا خَفِيَ عَلَيْكَ خَبْرُهَا ، إِذْ هِيَ كَعَصَا مُوسَى . فَقَالَ :

فَسُبْحَانَ الَّذِي أَعْطَاكَ مُلْكًا وَعَلَّمَكَ الْقُعُودَ عَلَى السَّرِيرِ

(١) الْقُفُورُ : جَمْعُ قَفْرٍ ، وَهِيَ الْأَرْضُ الَّتِي لَا مَاءَ فِيهَا وَلَا عَشْبَ ، وَلَا بَشَرَ ، وَيَجْمَعُ - أَيْضًا - عَلِي

قَفَارٍ .
(٢) الْعُمَّارُ : عَصَا فِي طَرَفِهَا زَجٌّ .

فَقَالَ مَعْنٌ ذَلِكَ بِفَضْلِ اللَّهِ لَا بِفَضْلِكَ . فَقَالَ :

فَعَجَّلَ يَا بَنَ نَاقِصَةَ بِمَالٍ فَإِنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى الْمَسِيرِ

فَأَمَرَ لَهُ بِالْفِ دِينَارٍ ، فَقَالَ :

قَلِيلٌ مَا أَمَرْتَ بِهِ ، فَإِنِّي

لَأَطْمَعُ مِنْكَ بِالشَّيْءِ الْكَثِيرِ

فَأَمَرَ لَهُ بِالْفِ دِينَارٍ أُخْرَى ، فَقَالَ :

فَنَثَّكَ إِذْ مَلَكَتَ الْمَلِكَ رِزْقًا

بِلا عَاقِلٍ ، وَلَا جِأِ خَطِيرِ

فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثِمِائَةِ دِينَارٍ ، فَقَالَ :

وَلَا أَدَبٍ كَسَبْتَ بِهِ الْمُعَالِيَّ

وَلَا خُلُقٍ وَلَا رَأْيٍ مُنِيرِ

فَأَمَرَ لَهُ بِأَرْبَعِمِائَةِ دِينَارٍ ، فَقَالَ :

فَمِنْكَ الْجُودُ وَالْأَفْضَالُ حَقًّا

وَقَيْضُ يَدَيْكَ كَالْبَحْرِ الْعَزِيرِ

وَمَا زَالَ يَطْلُبُ الزِّيَادَةَ حَتَّى أَخَذَ مَا قُدِّرَ لَهُ ، وَانصَرَفَ مُتَعَجِّبًا مِنْ حِلْمِ

مَعْنٍ ، وَعَدَمِ انْتِقَامِهِ مِنْهُ ، ثُمَّ قَالَ لِنَفْسِهِ : مِثْلُ هَذَا لَا يَنْبَغِي أَنْ يُهْجَى بَلْ

يُمدَحُ ، وَاغْتَسَلَ وَلبَسَ ثِيَابَهُ ، وَرَجَعَ إِلَيْهِ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَمَدَحَهُ ، وَاعْتَذَرَ لَهُ بِأَنَّ

الْحَامِلَ لَهُ عَلَى هَجْوِهِ الْمِثَّةَ بَعِيرٍ الَّتِي صَارَ الرَّهْنُ عَلَيْهَا نَظِيرَ إِغَاظَتِهِ لَهُ ، فَأَمَرَ لَهُ

بِمِثَّةٍ بَعِيرٍ يَدْفَعُهَا نَظِيرَ الرَّهْنِ ، وَبِمِثَّةٍ بَعِيرٍ أُخْرَى لِنَفْسِهِ ، فَأَخَذَهَا وَانصَرَفَ (١) .

وَآخِرُ مَا قَالَ الشَّاعِرُ :

لِلْمَرْءِ زَيْنٌ إِذَا هُمَا اجْتَمَعَا

مُ وَالْحِلْمُ ، فَقَالَ السُّمُوُّ وَارْتَفَعَا

إِلَّا بِجَمْعٍ لَذَا وَذَاكَ مَعَا (٢)

الْعِلْمُ وَالْحِلْمُ حُلَّتَا كَرِمَ

كَمٍ مِنْ وَضِيعٍ سَمَا بِهِ الْعَدُ

صِنَوَانٍ لَا يَسْتَتِمُ حُسْنُهُمَا

(١) « بهجة المجالس » للأثيري (ص ١٨٣) .

(٢) « جامع بيان العلم » (١/١٢٦) .

الأناة

الأناة هي مظهرٌ من مظاهر خُلُق الصبرِ ، وهي صفةٌ من صفاتِ المحاور الحكيم صاحب العقل والرزانة ، بخلاف العجلة فهي من صفاتِ المحاور الفاشل صاحب الطيش والرُعونة ، الذي لا يملك الإرادة القويّة على ضبط نفسه تجاه انفعالاته العجولة ، ولسمو الأناة أحبّها الله عزّ وجلّ ، فقد قال رسولُ الله ﷺ للأشجّ : « إِنْ فَيْكَ لَخُلُقَيْنِ يَحِبُّهُمَا اللَّهُ : الْحِلْمُ ، وَالْأَنَاةُ » (١) .

فعلى المحاور أن يتريث ويتأنّى قبل أيّ حوار ؛ لأنّ ذلك أدعى لصفاء القرية ، فلا خيرَ في الرأى الفطير ولا الكلام القضيبي (٢) ، والعرب تقول : « الخطأ زاد العجول » (٣) ، ونجاح أيّ حوارٍ مرهونٌ بالأناة ، ودوام النظر في عواقب الأمور .

قال ابن حبان - رحمه الله - : « الرافق لا يكاد يسبق ، كما أن العجل لا يكاد يلحق ، وكما أن من سكت لا يكاد يندم ، كذلك من نطق لا يكاد يسلم ، والعجل يقول قبل أن يعلم ، ويوجب قبل أن يفهم ، ويحمد قبل أن يجرب ، ويذم بعدما يحمد ، يعزم قبل أن يفكر ، ويمضي قبل أن يعزم ، والعجل تصحبه الندامة ، وتعتزله السلامة ، وكانت العرب تُكنّي العجلة أمّ الندامات » (٤) .

قال الشاعر:

الرفق يُمنُّ (٥) والأناة سعادةٌ فتانٌ في أمرٍ تلاقٍ نجاحاً (٦)

(١) تقدّم تخريجه في حاشية (ص ٢٢١) .

(٢) الرأى الفطير: هو الذي لا ينضج والكلام القضيبي : هو المرتجل. انظر «رهرة الادب» (١/١٥٤) .

« مجمع الأمثال » (١/١٣١) .

(٤) « روضة العقلاء » (ص ٢١٦) .

(٥) اليمُنُّ : البركةُ .

(٦) « تاريخ بغداد » وتهذيب ابن عساکر « (٥/٢٣٥) .

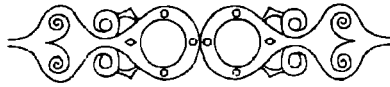
وقال ابن المقفع: « إنَّ كَلامَ العَجَلَّةِ والبَدَارِ موَكَّلٌ به الزَّلَلُ ، وسوءُ التَّقْدِيرِ ، وإنَّ ظَنَّ صاحِبُهُ أنَّ قَدِ اتَّقَنَ وأَحْكَمَ ، واعْلَمَ أنَّ هذه الأُمُورَ لا تُدْرَكُ ، ولا تُمَلِكُ إلاَّ بِرَحْبِ الذَّرَاعِ ^(١) عندَ ما قِيلَ وما لَمْ يُقَلْ ، وقَلَّةِ الإِعْظَامِ لما ظَهَرَ من المروءة ، وما لَمْ يظَهَرَ ، وسَخَاوَةُ النَّفْسِ عن كَثِيرٍ من الصَّوَابِ مَخَافَةَ الخِلافِ والعَجَلَّةِ » ^(٢) .

وقال الرَّمْضَسَرِيُّ: « خَيْرُ الأَلْسِنِ المَخزُونُ ، وخَيْرُ الكَلَامِ المورُونُ ، فَحَدَّثُ - إنَّ حَدَّثْتَ - بأَفْضَلِ من الصَّمْتِ ، وزَيْنِ حَدِيثِكَ بالوَقَارِ وحُسْنِ السَّمْتِ ، إنَّ الطَّيِّشَ في الكَلَامِ يُتْرَجَمُ عن خَفَةِ الأحلامِ ، وما دَخَلَ الرَّفْقُ في شيءٍ إلاَّ زَانَهُ وما زَانَ المتكَلِّمَ إلاَّ الرَّرْانَةُ » ^(٣) .

قال الشاعر يمدح محاوراً عاقلاً:

بصيرٌ بأعقابِ الأمورِ ، كأنما
يُخاطِبُهُ في كُلِّ أمرٍ عواقِبُهُ
وقال ابن هاني المغربي:

وكلُّ أَناءٍ في المِوَاطِنِ سُؤدَدٌ
ومَنْ يَتَبَيَّنُ أَنَّ لِلصَّفْحِ مَوْضِعاً
وما الرَّأْيُ إلاَّ بَعْدَ طُولِ تَتَبُّتٍ
ولا كَأَناءٍ من قَدِيرٍ مُحْكَمٍ
مِنَ السِّيفِ يَصْفَحُ عن كَثِيرٍ وَيَحْلُمُ
ولا الحَزْمُ إلاَّ بَعْدَ طُولِ تَلُومٍ



(١) رَحْبُ الذَّرَاعِ: سَعَةُ العِلْمِ ، وسعة الأَفْقِ ، وقوَّةُ التَّبَصُّرِ .

(٢) « الأَدَبُ الصَّغِيرُ والكَبِيرُ » (ص ١٢٢-١٢٣) .

(٣) « أطواقُ الدَّمْبِ » (ص ٧٩) .

التَّغَابِي

أي أخي ، ما أَجْمَلَ أَنْ يَتَغَابَى وَيَتَغَافَلَ المحاور عَنْ هَفْوَةٍ ، أَوْ سَقَطَةٍ ، أَوْ زَلَّةٍ صَدَرَتْ مِنْ محاوره ؛ فَالتَّغَابِي والتَّغَافُلُ مِنْ أخلاقِ عِظَمَاءِ الرِّجَالِ .

قال الطائي:

ليس الغيبي بسيد في قومه لكن سيد قومهِ المتغابي (١)

وقال ابن الرومي:

يتغابي لهم ، وليس لموق (٢) بل لب فوق لب اللبيب

قال ابن المقفع : « إِنَّ مِنْ أَرَبِ الأَرَبِ دَفَنَ أَرِيهِ مَا استطاع ، حتَّى يُعرفَ بالمسامحةِ فِي الخليقة ، والاستقامةِ على الطريفة » .

ومن التَّغَافُلِ الأُتْعَابُ مَنْ استربت (٣) بصدقه ، وصدق مودته ، كما قال منصور النمرى :

أقل عتاب من استربت بوده لست تئال مودة عتاب (٤)

والعتاب يُحرِّكُ مِنْ محاورك مَا سَكَنَ ، لكنَّهُ - مع ذلك - خيرٌ مِنَ الحقدِ .

قال الاختف بن قيس - رحمه الله - : « العتابُ مفتاحُ التَّعَالِي ، والعتابُ خيرٌ

من الحقدِ » (٥) .

فإذا كنتَ على ثقةٍ مِنْ محاورك ، واضطرت إلى عتابه ، فعاتبه عتاباً لطيفاً والتمس له عذراً وسترًا بين يدي عتابك .

(١) « أدب الدنيا والدين » (١٤٠/١) .

(٢) الموق : الحمق في غياوة .

(٣) استربت : داخلتك الريبة .

(٤) « رسائل الإصلاح » (١٥٠/٢) .

(٥) « السير » (٩٤/٤) .

قال الشاعر:

أُعَاتِبُ ذَا الْمُوَدَّةِ مِنْ صَدِيقٍ إِذَا مَا رَأَيْتَنِي ^(١) مِنْهُ اغْتِرَابُ
 إِذَا ذَهَبَ الْعِتَابُ فَلَيْسَ وَدٌّ وَيَبْقَى الْوُدُّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ ^(٢)
 وَقَدْ تَجِدُ فِي نَفْسِ مَحَاوِرِكَ مَا يَدْعُوهُ إِلَى عِتَابِكَ ، فْتَمَنِّحْهُ جِيئًا طَلْقًا ،
 فَيَذْهَبُ مَا فِي نَفْسِهِ عَلَيْكَ .

قال الشاعر:

أُزُورُ مُحَمَّدًا وَإِذَا التَّقَيْنَا تَكَلَّمْتُ الضَّمَائِرُ فِي الصُّدُورِ
 فَأَرْجِعُ لَمْ أَلْمَهُ ، وَلَمْ يَلْمَنِي وَقَدْ رَضِيَ الضَّمِيرُ عَنِ الضَّمِيرِ ^(٣)
 وَمِنَ التَّغَافُلِ قَبُولُ عُذْرٍ مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِرًا ، فَقَبُولِ الْأَعْذَارِ مِنْ صِفَاتِ
 الْمَحَاوِرِ الْكَرِيمِ ، حَتَّى وَلَوْ كَانَ الْمُعْتَذِرُ كَاذِبًا .

قال ابن حبان - رحمه الله - : « لا يجب للمرء أن يعلن عقوبة من لم يعلن ذنبه ، ولا يخلو المعتذر في اعتذاره من أحد رجلين : إما أن يكون صادقًا في اعتذاره ، أو كاذبًا ، فإن كان صادقًا فقد استحق العفو ؛ لأن شر الناس من لم يقل العثرات ، ولا يستر الزلات ، وإن كان كاذبًا فالواجب على المرء - إذا علم من المعتذر إثم الكذب ورييته ، وخضوع الاعتذار ، وذلته - ألا يعاقبه على الذنب السالف ، بل يشكر له الإحسان المحدث الذي جاء به في اعتذاره ، وليس يعيب المعتذر إن ذلَّ وخضع في اعتذاره إلى أخيه » ^(٤) .

وقال ابن المبارك - رحمه الله - : « المؤمن طالب عُذْرٍ لِإِخْوَانِهِ ، وَالْمُتَنَافِقُ طَالِبٌ

(١) رَأَيْتُ الشَّيْءَ : رَأَى مِنْهُ مَا يَكْرَهُ ، وَيَقْلُقُ لَهُ .

(٢) « بهجة المجالس » (٧٣٨/٤) .

(٣) « عيون الأخبار » (٢٦/٣) .

(٤) « روضة العقلاء » (ص ١٨٤-١٨٥) .

عَشْرَاتِهِمْ» (١) .

وقال الشافعي - رحمه الله - :

اقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِرًا
لَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ
إِنْ بَرَّ (٢) عِنْدَكَ فِيمَا قَالَ أَوْ فَجَرًا (٣)
وَقَدْ أَجَلَّكَ مَنْ يَغْصِيكَ مُنْتَبِرًا (٤)

ومن التَّغافلِ عَدَمُ المُواخَذَةِ بالزَّلَّةِ ، فعلى المحاور العاقلُ ألاَّ يزهْدُ في محاوره بسببِ هَفْوَةٍ ، ولا سِيماً إذا كانت يسيرةً ، أو من شَخْصٍ له فَضْلٌ ، كما قيل :

وَإِذَا الْحَبِيبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِالْفِ شَفِيعِ (٥)
وبعضُ المحاورينَ إذا رأى من محاوره زَلَّةً زَهْدَ فِيهِ ، وهذا خَطَأٌ ؛ فَمَنْ الَّذِي ما سَاءَ قَطُّ؟! .

قال بشَّارُ بنُ بَرْدٍ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَدَى (٦)
وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ (٧) كُلُّهَا؟
ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ؟!
كَفَى الْمِرَّةَ نَبِلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهُ (٨)

وقال التابغة الذبياني :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبَقٍ أَحَا لَا تَلْمُهُ (٩)
عَلَى شَعْتِ (١٠) أَيُّ الرُّجَالِ الْمُهْدَبِ؟ (١١)

(١) « آداب العشرة » (ص ٤٣) .

(٢) بَرٌّ : صَدَقَ .

(٣) فَجَرَ : كَذَبَ .

(٤) « ديوان الشافعي » (ص ٦٠) تحقيق البقاعي .

(٥) « مفتاح دار السعادة » (١/١٧٧) .

(٦) الْقَدَى : جمع قذاة ، وهي ما يقع في العين ، والشَّرَابُ ، والماء من تُرَابٍ ، وغير ذلك .

(٧) السَّجَايَا : الأخلاق والطُّبَاعُ ، مفردهما سَجِيَّةٌ .

(٨) « ديوان بشَّار بن بَرْدٍ » (ص ٤٥) .

(٩) لَا تَلْمُهُ : أي لَا تَجْمَعُهُ إِلَيْكَ .

(١٠) الشَّعْتُ : أتساخ الرأس من الغُبَارِ ، والمقصود على ما به من الزَّلَّاتِ والهفواتِ .

(١١) « أدب الدنيا والدين » (ص ١٧٣) .

المُدَارَة

المُدَارَة خُلُقٌ مِنْ أَخْلَاقِ النَّبُوَّةِ ، يُحْكِمُهَا الْأَذْكِيَاءُ ، وَلَا يَتَعَدَّى حُدُودَهَا الْفَضْلَاءُ وَهِيَ تَرْجِعُ إِلَى حُسْنِ اللَّقَاءِ ، وَطِيبِ الْكَلَامِ ، وَالتَّوَدُّدِ لِلنَّاسِ ، وَتَجَنُّبِ مَا يُشِيرُ بِسَخَطٍ مِنْ غَيْرِ ثَلَمٍ لِلدِّينِ .

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ ، فَقَالَ : « ائْذِنُوا لَهُ ، بَشْرَ أَخُو الْعَشِيرَةِ ^(١) » ، فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي وَجْهِهِ ، وَانْبَسَطَ إِلَيْهِ ، فَقُلْتُ : « يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قُلْتَ مَا قُلْتَ ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ الْقَوْلَ ؟ » فَقَالَ : « يَا عَائِشَةُ ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ تَرَكَهُ - أَوْ وَدَعَهُ - النَّاسَ اتَّقَاءً فَحَشِيهِ » ^(٢) .

قَالَ ابْنُ حَبَّانٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : « الْوَاجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يُدَارِيَ النَّاسَ مُدَارَاةَ الرَّجُلِ السَّابِحِ فِي الْمَاءِ الْجَارِي ، وَمَنْ ذَهَبَ إِلَى عَشْرَةِ النَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُوَ ، كَدَّرَ عَلَى نَفْسِهِ عَيْشَهُ ، وَلَمْ تَصْفُ لَهُ مَوَدَّتُهُ ؛ لِأَنَّ وِدَادَ النَّاسِ لَا يُسْتَجْلَبُ إِلَّا بِمُسَاعَدَتِهِمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَائِثًا ، فَإِذَا كَانَتْ حَالُهُ مَعْصِيَةً ، فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَةَ ، وَالْبَشْرُ قَدْ رُكِبَ فِيهِمْ أَهْوَاءٌ مُخْتَلِفَةٌ ، وَطِبَائِعُ مُتَبَايِنَةٌ ، فَكَمَا يَشْقُ عَلَيْكَ تَرْكُ مَا جُبِلْتَ عَلَيْهِ ، فَكَذَلِكَ يَشْقُ عَلَى غَيْرِكَ مُجَانِبَةُ مِثْلِهِ ، فَلَيْسَ إِلَى صَفْوِ وِدَادِهِمْ سَبِيلٌ إِلَّا بِمُعَاشَرَتِهِمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ ، وَالْإِغْضَاءَ عَنْ مُخَالَفَتِهِمْ فِي الْأَوْقَاتِ » ^(٣) .

وَقَالَ (يُضَافًا) : « مَنْ التَّمَسَّ رِضَى جَمِيعِ النَّاسِ ، التَّمَسَّ مَا لَا يُدْرِكُ ، وَلَكِنْ

(١) العشيبة : القبيلة ، أي بَشْرَ هذا الرجل منها .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٢) و (٦٠٥٤) و (٦١٣١) ، ومسلم (٢٥٩١) .

(٣) « روضة العقلاء » (ص ٧١) .

يقصد العاقلُ رضى مَنْ لا يجدُ من مُعاشِرَتِهِ بُدْأً ، وإن دَفَعَهُ الوَقْتُ إلى استِحسانِ أَشْيَاءٍ من العاداتِ كانِ يَسْتَقْبِحُهَا ، واستقباحِ أَشْيَاءٍ كانِ يَسْتَحْسِنُهَا ، ما لم يكنِ مائِماً ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ من المَدَاراةِ ، وما أَكْثَرَ مَنْ دارى فلم يَسلَمْ ! ، فكيف تُوجدُ السَّلَامَةُ لِمَنْ لا يُداري ؟! « (١) .

وقال الخطابي : أَنشَدَنِي ابنُ مالِكٍ ، قال : أَنشَدَنِي الدَّغُولِيُّ فِي سِياسةِ العامَّةِ :

إِذَا أَمِنَ الْجُهَّالُ جَهْلَكَ مَرَّةً
وَأَنَّ نَارِيَتَ السَّفِيهِ إِذَا نَزَا (٢)
وَلَا تَتَعَرَّضُ لِلسَّفِيهِ وَدَارِهِ
فَيَخْشَاكَ تَارَاتٍ ، وَيَرْجُوكَ مَرَّةً
فَعَرَضُكَ لِلجُهَّالِ عُنْمٌ مِنَ العُنْمِ
فَأَنَّ سَفِيَهُ مِثْلُهُ غَيْرُ ذِي حِلْمٍ
بِمَنْزِلَةِ بَيْنِ العَدَاوَةِ وَالسَّلْمِ
وَتَأْخُذُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ بِالْحَزْمِ (٣)

وقال ابنُ بِنانَةَ السَّعْدِيُّ :

وَإِذَا عَجَزْتَ عَنِ العَدُوِّ فَدَارِهِ
فالنَّارُ بِالماءِ الهَدْيُ هُوَ ضِدُّهَا
وَأَمْرِجْ لَهُ ؛ إِنَّ المِزاجَ وَقَاقُ
تُعْطِي النَّضاجَ وَطَبَعُهَا الإِحْرَاقُ (٤)

ومن المَدَاراةِ إِذا حَدَّثَ مُحاورُكَ بِكلامٍ غريبٍ أَلَّا تُبادِرَ إلى تَكْذِيبِهِ ، وَتَفْنِيدِ قَوْلِهِ ، فَهَذَا الصَّنِيعُ لا يَحْسِنُ أبدأً ، وَليسَ من صِفاتِ عَظَماءِ الرُّجالِ وَأَكابِرِهِمْ ، فَإِنَّهُمْ يَتَغاضُونَ عَنِ خَطِئِ مُحاورِهِمْ ، وَيَتعامُونَ عَنِ زَلَّتِهِ ، وَإِذا كانِ الخَطَأُ كَبيراً ، فَإِنَّهُمْ يَبِينُونَ لَهُ الخَطَأَ ، وَيُرْشِدُونَهُ إلى الصَّوابِ بِأَجْمَلِ عِبارَةٍ ، وَأَلْطَفِ إِشارةٍ .

(١) المرجع السابق (ص ١٧١) .

(٢) نَزَا : وَثَبَ وَأَرَادَ الشَّرَّ .

(٣) العزلة « ص ١١٠ » .

(٤) « جواهر الأدب » (ص ١٧١) .

قال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه : « ثلاثة من قريش ، أحسنها أخلاقاً ، وأصبحها وجوهاً ، وأشدّها حياءً ، إن حدّثوك لم يكذبوك ، وإن حدّثتهم بحقّ أو باطل لم يكذبوك : أبو بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح » (١) .

وقال ابن حبان - رحمه الله - : « العاقل إذا دقعه الوقت إلى صُحبة من لا يثق بصداقته ، أو صداقة من يثق بأخوته ، فرأى من أحدهما زلةً ، فرفضه لزلته ، بقي وحيداً لا يجد من يُعاشِر ، فريداً لا يجد من يُخادِن ، بل يُغضي على الأخ الصادق زلّاته ، ولا يُناقش الصديق السيئ على عثراته ؛ لأنّ المناقشة تلزمه في صحيح أصل الوداد أكثر ممّا تلزمه في فرعه » (٢) .

وَمِنْ جَمِيلِ مَا يَنْسَبُ لِلْإِمَامِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي تَالِبٍ قَوْلُهُ :

أَغْمَضُ عَيْنِي عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
وَمَا مِنْ عَمَى أُغْضِي وَلَكِنْ لَرُبَّمَا
وَأَسْكُتُ عَنْ أَشْيَاءَ لَوْ شِئْتُ قَلْتُهَا
أُصْبِرُ نَفْسِي بِاجْتِهَادِي وَطَاقَتِي

وَإِنِّي عَلَى تَرْكِ الْغُمُوضِ قَدِيرٌ
تَعَامَى وَأَغْضَى الْمَرْءُ وَهُوَ بَصِيرٌ
وَلَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْمَقَابِلِ أَمِيرٌ
وَإِنِّي بِأَخْلَاقِ الْجَمِيعِ خَبِيرٌ (٣)

(قال منصور بن سنان الكزيري :

أَغْمَضُ عَيْنِي عَنْ صَدِيقِي كَأَنِّي
وَمَا بِي جَهْلٌ غَيْرَ أَنَّ خَلِيقَتِي
مَتَى مَا يَرِينِي (٤) مِفْصَلٌ فَقَطَعْتُهُ

لَدَيْهِ بِمَا يَأْتِي مِنَ الْقُبْحِ جَاهِلٌ
تُطِيقُ احْتِمَالَ الْكُرْهِ فِيمَا أُحَاوِلُ
بَقِيْتُ وَمَا لِي فِي نُهُوضِي مَفَاصِلُ

(١) « عيون الأخبار » (٢٣/٢) .

(٢) « روضة العقلاء » (ص ٧٣) .

(٣) « ديوان الإمام علي » (ص ١٠٦) .

(٤) يقول : لو أنّي كلّما رايتني من صديقي أمرت بسبب فصل ما بيننا من مودة ، لم أجد عند احتياجي إلى من ينهض بي عند عثرتي صديقاً .

وَلَكِنْ أَدَارِيهِ وَإِنْ صَحَّ شِدْنِي فَإِنْ هُوَ أَعْيَا كَانَ فِيهِ تَحَامُلٌ (١) (٢)
 وَقَدْ تَقِيمُ الْحُجَّةَ الدَّامِغَةَ عَلَى مُحَاوِرِكَ ، فَيَسَلُّمُ لَكَ بِعَقْلِهِ ، لَكِنَّهُ لَمْ يُسَلِّمِ
 لَكَ بِعَاطِفَتِهِ ، فَتَلْجَأُ إِلَى الرَّفْقِ وَالْمَدَارَاةِ مَهْمَا طَالَ الزَّمَنُ ، وَالْعَرَبُ تَقُولُ : « إِذَا
 لَمْ تَغْلِبْ فَاخْلِبْ » (٣) .

وَإِذَا حَاوَرْتَ ذَا يَدٍ بَاطِشَةً ، أَوْ ذَا لِسَانٍ عُرِفَ بِنَهْشِ الْأَعْرَاضِ ، فَاْمَنْحُهُ
 جِيئًا طَلْقًا ، وَتَجَنَّبْ مَا يَكُونُ لَهُ أَثَرٌ فِي نَفْسِهِ عَلَيْكَ .

قَالَ عَقَالُ بْنُ شَبَبَةَ : « كُنْتُ رَدِيفَ أَبِي ، فَلَقِيَهُ جَرِيرٌ عَلَى بَغْلٍ ، فَحَيَّاهُ أَبِي
 وَالطَّفَهُ ، فَلَمَّا مَضَى قُلْتُ لِأَبِي : أَبْعَدَ مَا قَالَ لَنَا مَا قَالَ !؟ ، قَالَ أَبِي :
 أَفَأَوْسَعُ جُرْحِي !؟ » (٤) .

وَقَالَ هَمْدَةُ بْنُ الْفَضْلِ : « قُلْتُ لِأَبِي : لِمَ نَجْلِسُ إِلَى فُلَانٍ ، وَقَدْ عَرَفْتَ
 عِدَاوَتَهُ !؟ ، قَالَ : أَخْبِي نَارًا ، وَأَقْدَحُ فِي وُدِّهِ » (٥) .

وَقَالَ الْمَهَاجِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ :

وَأَنِّي لِأَقْصِي الْمَرْءَ مِنْ غَيْرِ بَغْضِهِ
 لِيُحْدِثَ وُدًّا بَعْدَ بَغْضَاءٍ ، أَوْ أَرَى
 وَقَالَ آخَرُ :

تَجَنَّبْ صَدِيقَ السُّوءِ وَاصْرِمْ حِبَالَهُ
 وَأَحْبِبْ حَبِيبَ الصُّدْقِ وَاحْذَرْ مِرَاءَهُ
 وَإِنْ لَمْ تَجِدْ عَنْهُ مَحِيصًا فَدَارِهِ
 تَلَّ مِنْهُ صَفْوَ الْوُدِّ مَا لَمْ تُمَارِهِ (٧)

(١) يقول : إنَّ من الحكمة أن أداري صديقي ، وأغض عن زلاته ؛ حتى إذا صحَّ وُدُّه قويتُ به ،
 وأعطاني شدةً في أمري ، وإنَّ ضعف وعجز وجدتُ فيه بعض ما يتحمل به من قوة أنتفعُ بها .

(٢) روضة العقلاء ، (ص ٧٣) .

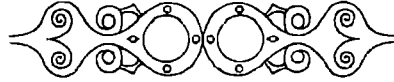
(٣) الأمثال ، (ص ١٥٦) .

(٤) ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، عيون الأخبار ، (٢٢/٣) .

(٧) روضة العقلاء ، (ص ٧٢) .

ومن اللطائف في هذا الباب ما ذكر عن ابن شوذب قال :

« كانت لرجلٍ جاريةٌ ، فوطئها سرّاً ، فقال لأهله : إنّ مريمَ كانت تغتسلُ في هذه اللَّيلةِ ؛ فاغتسلوا ، فاغتسلَ هو واغتسلَ أهلهُ » ، قال ابن شوذب : « وكانت مريمُ تغتسلُ في كُلِّ ليلةٍ » (١) .



(١) رواه ابن حبان في « روضة العقلاء » (ص ٧٣) .

الابتعاد عن المداهنة

بعد أن أوضحنا شيئاً من المداراة ، يحسنُ بنا أن نوضحَ ما هي المداهنة ؛ لأنَّ الأشياءَ تتميزُ بصدِّها .

فالمداهنة هي إظهار الرضى بالمنكر ، فهي بلادةٌ في النفسِ ، واستكانةٌ للهوى .

وأصلُ المداهنة من الدهان : وهو الذي يظهر على الشيء ، ويسترُ باطنه . فالمداهنُ يلقي الفاسقَ المُعلنَ بفسقه ، فيؤلفه ، ولا يُنكرُ عليه ولو بقلبه ، أو يرى منكراً ، ويقدرُ على دفعه ، ولم يدفعه حفظاً لجانب مرتكبه ، أو جانب غيره ، ويترك بعض ما هو عليه من أمر الدين ممَّا لا يرضاهُ النَّاسُ مُصانعةً لهم ، فهذه المداهنة هي التي رغبَ مشركوا مكة في وجودها عند النبي ﷺ ، فقد قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَذُؤا لَو تَدَهَّنْ فَيَدَهَّنُونَ ﴾ (٦) ﴿ القلم : ٩ ﴾ .

ولقد حذرَ الرسول ﷺ من سوءِ عاقبةِ المداهن ، وعدم الأخذ على يده ؛ فعن النُّعمان بن بشيرٍ رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « مثلُ المداهنِ (١) في حدودِ الله ، والواقعُ فيها مثلُ قومِ استهموا (٢) ستمينةً ، فصارَ بعضهم في أسفلها ، و صارَ بعضهم في أعلاها ، فكان الذي في أسفلها يمرُّون بالماء على الذين في أعلاها ، فتأذوا به ، فأخذَ فأساً ، فجعلَ ينثرُ (٣) أسننَ الستمينة ، فاتوه فقالوا : ما لك ؟! قال : تأذيتُم بي ، ولا بد لي من الماء ، فإن أخذوا على يديهِ (٤) أنجوه ، ورجوا أنفسهم ، وإن تركوه أهلكوه ، وأهلكوا أنفسهم » (٥) .

مثلُ المداهنِ : أي صفة .

(١) الاستهام : الاقتراع .

(٢) ينقر : يخرق .

(٣) أخذوا على يديهِ : منعه ورجروه .

(٤) أخرجه الترمذي (٢١١٣) .

وقد فصل العلامة ابن بطال - رحمه الله - الفرق بين المداراة والمداهنة . فقال :
 «المداراة من أخلاق المؤمنين ، وهي : خَفَضُ الجَنَاحِ للنَّاسِ ، ولينُ الكلمة ،
 وتركُ الإغلاظِ لهم في القول ، وذلك من أقوى أسبابِ الألفةِ ، وظنُّ بعضهم
 أنَّ المداراة هي المداهنة فغلط ؛ لأنَّ المداراة مندوبٌ إليها ، والمداهنة محرمةٌ .
 والفسوقُ أنَّ المداهنة من الدهانِ : وهو الذي يظهرُ على الشيءِ ، ويستر
 باطنه ، وفسرها العلماءُ بأنها : معاشرَةُ الفاسقِ ، وإظهارُ الرضى بما هو فيه من
 غيرِ إنكارٍ عليه .

والمداراة : هي الرفقُ بالجاهلِ في التعليمِ ، وبالفاسقِ في التَّهْيِ عن فعله ،
 وتركُ الإغلاظِ عليه حيثُ لا يظهر ما هو فيه ، والإنكارُ عليه بلطفِ القولِ
 والفعلِ ، ولا سِيماً إذا احتيجَ إلى تألُّفه ، ونحو ذلك » (١) .
 والمداهنُ يَعَجَلُ إلى كُلِّ قولٍ يَشْتَهيه محاوره بغضِّ النَّظَرِ عن قناعتِهِ من
 عدمها ، ولشوقي قصيدة لطيفة عنوانها « نديمُ الباذنجان » قال فيها :

كَانَ لِسُلْطَانٍ نَدِيمٌ ^(٢) وَا ف	يُعِيدُ مَا قَالَ بِلا اِخْتِلافِ
وَقَدْ يَزِيدُ فِي التَّنَا عَلَيْهِ	إِذَا رَأَى شَيْئاً حَلاً لَدِيهِ
وَكَانَ مَوْلَاهُ يَرَى وَيَعْلَمُ	وَيَسْمَعُ التَّمَلِّقَ ^(٣) لَكِنْ يَكْتُمُ
فَجَلَسَا يَوْمًا عَلَى الخَوَانِ ^(٤)	وَجِيءَ فِي الأَكْلِ بِبِاذنِجَانٍ
فَأَكَلَ السُّلْطَانُ مِنْهُ مَا أَكَلَ	فَقَالَ : هَذَا فِي المِذاقِ كالعَسَلِ
قَالَ النَّدِيمُ : صَدَقَ السُّلْطَانُ	لَا يَسْتَوِي شَهْدُ وَبِاذنِجَانٍ
هَذَا الَّذِي غَنَى بِهِ الرَّئِيسُ ^(٥)	وَقَالَ فِيهِ الشُّعْرُ جالِينوسُ

(١) « فتح الباري » (١٠٠/٥٢٨) .

(٢) النديم : المجلس على الشراب .

(٣) التمليق : التناق .

(٤) الخوان - بضم الخاء أو بكسرهما - ما يؤكل عليه الطعام (المنضدة) .

(٥) الرئيس : يعني ابن سينا .

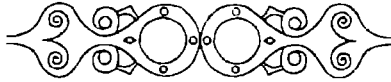
وَيُرِدُ الصَّدْرَ وَيَشْفِي الْغَلَّةَ
 وَمَا حَمَدتُ مَرَّةً آثَارَهُ
 مُذْ كُنْتُ - يَا مَوْلَايَ - لَا أَحِبُّهُ
 وَسَمَّ فِي الْكَأْسِ بِهِ سُقْرَاطَ
 وَقَالَ : كَيْفَ تَجِدُونَ قَوْلَهُ ؟
 عُدْرًا فَمَا فِي فَعَلْتِي مِنْ بَاسٍ
 وَلَمْ أَنْادِمَ قَطُّ بِأَذْنِجَانَا (٢)

يُذْهَبُ أَلْفَ عِلَّةٍ وَعِلَّةٌ
 قَالَ (١) : وَلَكِنْ عَذَّةٌ مَرَارَةٌ
 قَالَ : نَعَمْ ، مُرٌّ وَهَذَا عَيْبُهُ
 هَذَا الَّذِي مَاتَ بِهِ بِقُرَاطَ
 فَالْتَفَتَ السُّلْطَانُ فِيمَنْ حَوْلَهُ
 قَالَ النَّدِيمُ : يَا مَلِيكَ النَّاسِ
 جَعَلتُ كِي أَنْادِمَ السُّلْطَانَا

وختلاصة القول في الفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة : هي التنازل
 عن شيء من حقوقك لمصلحة متحققّة .

والمداهنة : هي التنازل عن شيء من الدين ، فهي - إذا - من صفات
 المنافقين .

فحريٌّ بالمحاور أن يسلك طريق المداراة ، وينأى (٣) بنفسه عن طريق
 المداهنة .



(١) يعني السلطان .

(٢) « الشوقيات » (٤/١٢١) .

(٣) ينأى : يبعد .

الابتعاد عن الخجل^(١)

الخَجَلُ : هو الشعور بالحرج والاضطراب عند مواجهة الناس عموماً ، وعلى هذا فهو يختلف عن الحياء الذي هو : شعورٌ بالانقباض والحرج عن فعل ما يشين ، أو ذكْرِهِ ، وعلى هذا فالحياء محمودٌ ، والخجل مذمومٌ .

من مظاهر الخجل :

- ١ | توتر الأعصاب عند لقاء الآخرين .
- ٢ | التلعثم في الكلام ، وعدم القدرة على الحوار معهم .
- ٣ | اضطراب الجوارح ، واحمرار الوجه .
- ٤ | عدم الثقة بالنفس في مباشرة كثير من الأعمال بحضور الآخرين .

علاج مرض الخجل :

- ١ | اندمج اجتماعياً ضمن مجموعة من زملائك ، أو جيرانك ، أو أقاربك ، وشاركهم في حوارهم .
- ٢ | ألق بعض النكت المضحكة على الآخرين ، وشاركهم في الضحك .
- ٣ | حاول أن تتعرف على من تلقاهم في بعض المناسبات ، مثل : الطائفة ، أو الحافلة ، أو بعض الأماكن العامة ، وحاوهم وتعرف على أفكارهم .
- ٤ | عند عرض أفكارك حاول أن تقنع نفسك بأنك تتحدث لوحدك ، وليس أمامك أحد عند الحديث .

- ٥ | حافظ على صلاة الجماعة في المسجد ، وتول الإمامة ، وبخاصة في

(١) استفدت هذا البحث من كتاب « حتى لا تكون كلاً » .

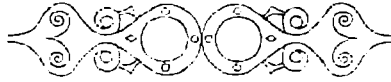
الصلاة الجهرية عندما تُتاح لك فرصة لذلك .

٦ | ألقى خاطرة بعد الصلاة على المصلين .

٧ | احرص على أن تُشارك الآخرين في الحوار عندما يكون موضوع الحوار في الجوانب التي تعلم تفوقك فيها .

٨ | إذا أحسست بتوتر أعصابك ، فحاول أن تسترخي قليلاً ثم تعود للحوار .

٩ | قبل مواجهتك للآخرين خطط لحوارك وأفعالك ، وتوقع رد فعل محاورك وعدل خطتك على ضوء ذلك ، ثم تمرن على ما ستقوله ، وحاول أن تطبقه أكثر من مرة ، ثم نفذ ما خططت له مباشرة ، وبصدق وأدب مع الآخرين ، وإذا تكرر هذا منك عدة مرات ، فسيزول الحجل بإذن الله .



الخاتمة

الحمدُ لله الَّذِي وَقَفَنِي لِإِنجَازِ هَذَا البَحْثِ ، فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ مَا كُنْتُ لَاهْتَدِي إِلَيْهِ ، وَأَسْأَلُهُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قَبُولَهُ ، وَجَعَلَهُ نَافِعًا مَبَارِكًا مُفِيدًا ، وَقَدْ عَرَفْنَا مِنْ خِلَالِ هَذَا البَحْثِ أَنَّ الحِوَارِ أَصْلٌ مُهِمٌّ مِنْ أَصُولِ دَعْوَتِنَا ، فَمِنْ خِلَالِ الحِوَارِ النَّاجِحِ يُمَكِّنُنَا أَنْ نَفْهَمَ النَّاسَ ، وَنَحْسِنَ عَشْرَتَهُمْ ، وَنَتَحَسَّبَ إِلَيْهِمْ ، وَنَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى مَا فِيهِ صَلَاحُهُمْ وَنَجَاتُهُمْ .

وَمَعَ أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ عَزِيزٌ بِالفِطْرَةِ ، كَرِيمٌ النِّفْسِ بِتَكْرِيمِ اللَّهِ لَهُ ، وَلَقَدْ كَرَّمَنَا سَيِّدُ أَدَمَ ﷺ { الإِسْرَاءُ : ٧٠ } ، فَهُوَ يَمِيلُ إِلَى مَنْ يَحْتَرِمُ لَهُ شَخْصِيَّتَهُ الَّتِي أَكْرَمَهَا اللَّهُ ، فَاحْتَرَامُنَا لِشَخْصِيَّةِ أَيِّ إِنْسَانٍ هُوَ مِفْتَاحُ الدُّخُولِ إِلَى قَلْبِهِ ، وَمَلَأَ كَانِ الدُّخُولِ إِلَى ذَلِكَ القَلْبِ يَعْتَمِدُ اعْتِمَادًا كَبِيرًا عَلَى حُسْنِ المِحَاوَرَةِ ؛ أَحْبَبْتُ أَنْ أَكْتُبَ مَا حَرَّرْتَهُ هُنَا عَلَى حَسَبِ مَا فَهَمْتُهُ بِفَهْمِي القَاصِرِ ، وَعِلْمِي المَحْدُودِ ، عَسَى أَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ إِخْوَانِي مِنْ طَلَبَةِ العِلْمِ وَغَيْرِهِمْ ، بِحَيْثُ يَأْخُذُونَ مِنْهُ الثَّمَارَ ، وَيُلْقُونَ الحَطَبَ فِي النَّارِ ، وَيَلْتَفِتُونَ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ الصَّوَابِ ، وَلَوْ كَانَ قَائِلُهُ حَقِيرًا ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَلَكَةَ سَبَأَ فِي حَالِ كَوْنِهَا تَسْجُدُ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ هِيَ وَقَوْمُهَا ، لَمَّا قَالَتْ كَلَامًا حَقًّا صَدَّقَهَا اللَّهُ فِيهِ ، وَلَمْ يَكُنْ كُفْرًا مَانِعًا مِنْ تَصْدِيقِهَا فِي الحَقِّ الَّذِي قَالَتْهُ ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهَا فِيمَا حَكِي اللَّهُ عَنْهَا : ﴿ إِنَّ المَلائِكَةَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَابَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ ؛ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُصَدِّقًا لَهَا : ﴿ وَكَأَنَّهُمْ يُفْعَلُونَ ﴾ (٣٤) ﴿ { النَّمْلُ : ٣٤ } .

وَلِلَّهِ دَرْ الشَّاعِرِ القَائِلِ :

لَا تَحْقِرَنَّ الرَّأْيَ وَهُوَ مُوَافِقٌ
فَالدَّرُّ - وَهُوَ أَعَزُّ شَيْءٍ يُقْتَنَى -
حُكْمَ الصَّوَابِ إِذَا مَا آتَى مِنْ نَاقِصٍ
مَا حَطَّ قِيَمَتُهُ هَوَانُ الغَائِصِ

ولا نُبرئُ أنفسنا من خَلَلٍ ولا رَيْبٍ ، ولا نكتبُ بِشَرَطِ البراءةِ من كُلِّ عيبٍ بل نعترفُ بالقُصورِ ، ونسألُ اللهَ العَفْوَ عَمَّا جَرَى به القلمُ من خطيئٍ غيرِ مقصودٍ ، كيف لا وقد قالوا : « الإنسانُ في فُسْحَةٍ من عقلِهِ ، وفي سلامَةٍ من أفواهِ جنسِهِ ، ما لم يضعْ كتابًا ، ولم يقلْ شعراً » .

وقالوا : « مَنْ صَنَّفَ كتابًا ، فقد استشرفَ للمدحِ والذَّمِّ ، فإن أحسنَ فقد استهدفَ من الحَسَدِ والغَيْبَةِ ، وإن أساءَ فقد تعرَّضَ للكُذِبِ والشَّتْمِ » .

ولا أزعِمُ خلوَّ هذا الجهدِ المتواضعِ من خَلَلٍ ونقصٍ وتقصيرٍ ، بل أقولُ : « إن يَكُ صوابًا فمن الله ، وإن يَكُ خطأً فمَنِّي ومن الشَّيطانِ ، والله عزَّ وجلَّ ورسولُهُ بريثان » (١) .

ورحِمَ اللهُ امرأً وجدَّ خَللاً أو خطأً فنبهني ، وأختمَ هذا البحثُ بما ختمَ به الإمامُ محمدُ بنُ إبراهيمِ الوزيرِ كتابه العظيمُ « العواصِمُ والقواصِمُ » ، وهو قوله :

جَمَعْتُ كتابي راجياً لقبولِهِ رَجَوْتُ بِنَصْرِ المصطَفَى وحديثِهِ وَمَنْ يَتَشَفَّعُ بِالْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ (٢)	منَ اللهِ ، فالمرجُوُّ منه قَرِيبُ تُكْفِّرُ لي يومَ الحِسابِ ذُنُوبُ إِلَى اللهِ في أمرٍ ، فليسَ يَخِيبُ إِلَى اللهِ فالرَّبُّ الكَرِيمُ يُجِيبُ لكم بالدُّعاءِ للعبُدِ حينَ يَغِيبُ يُبَلِّغُ غَلِيلٌ (٣) أو يُكْفِّرُ حُوبٌ (٤)
---	---

(١) هذا قاله عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أثناء جوابه على استفتاء . انظر « مسند الإمام أحمد » رقم (٤٢٧٦) (١٣٧/٦) و صحیح إسناده أحمد شاکر ، انظر تعليقه علي المسند (١٣٧/٦) .

(٢) هذا فيه نظرٌ ، إذا قصدَ الإمامُ ابنُ الوزيرِ - رحمه الله - التوسُّلَ إِلَى اللهُ بجاهِ نبيِّه ، فهو توسُّلٌ بدعيٌّ ، لا نوافقه عليه .

(٣) الغليلُ : شدَّةُ العطشِ .

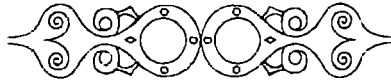
(٤) حوبٌ : ذنبٌ .

وَإِنْ بَلَيْتَ مِنِّي الْعِظَامُ تَشْيِبُ
فَسْتَرًا وَغَفْرًا ، فَالْقُصُورُ مَعِيبُ
مِنَ الْخَلْقِ أُخْطِئُ تَارَةً وَأُصِيبُ
وَقَدْ يُكْسِرُ الْمِرَّانُ وَهُوَ صَلِيبُ
حَلَى مِنْهُ ، وَرَدَ بِالْأَجَاجِ مَشُوبُ
إِلَيْكُمْ تَلَقَّى طِيبَتَكُمْ فَيَطِيبُ

وَلَا تَغْفُلُونِي إِنِّي بَلَيْتُ بُوْدَكُمْ
وَمَهْمَا رَأَيْتُمْ فِي كِتَابِي قُصُورَهُ
وَلَكِنْ عُذْرِي وَاضِحٌ وَهُوَ أَنَّنِي
وَقَدْ يَنْتَنِي الصَّمْنَمُ (١) وَهُوَ مَجْرَدٌ
وَلَكِنِّي أَرْجُو إِذَا حَلَّ دَارَكُمْ
يَكُونُ أَخَا دُونِكُمْ ، فَإِذَا انْتَهَى

وَأخِيرًا أَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ يَغْفِرَ لِي زَلَاتِي وَخَطِيئَاتِي ، وَجُرْأَتِي
عَلَى مَا لَا أَحْسَنَ وَلَا أَطِيقَهُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ ، وَصَلَّى
اللَّهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَأَتْبَاعِهِ إِلَى يَوْمِ
الدِّينِ ، وَبَارِكْ وَسَلِّمْ .

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .



(١) الصَّمْنَمُ : السِّيفُ .

المصادر والمراجع

- { ١ } « القرآن الكريم » .
- { ٢ } « الإبانة في أصول الديانة » لابن بطّة .
- { ٣ } « أبناء الغمر » لابن حجر العسقلاني .
- { ٤ } « إحياء علوم الدين » لأبي حامد الغزالي .
- { ٥ } « الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية » .
- { ٦ } « أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة » لمحمد بن إبراهيم الحمد .
- { ٧ } « الأخلاق والسير » لابن حزم الأندلسي .
- { ٨ } « آداب البحث والمناظرة » لمحمد الأمين الشنقيطي .
- { ٩ } « أدب الدنيا والدين » لأبي الحسن الماوردي .
- { ١٠ } « أدب الطلب ومنتهى الأرب » للشوكاني .
- { ١١ } « أدب العشرة وذكر الصحبة والأخوة » لبدر الدين الغزي .
- { ١٢ } « الأدب الكبير والأدب الصغير » لابن المقفع .
- { ١٣ } « أدب المجالس » لابن عبد البر .
- { ١٤ } « الأذكار » للنووي .
- { ١٥ } « استخراج الجدل من القرآن الكريم » لابن الحنبلي .
- { ١٦ } « إرشاد الفحول » للشوكاني .
- { ١٧ } « إصلاح المجتمع » لليمانى .
- { ١٨ } « أصول الجدل والمناظرة في الكتاب والسنة » لمحمد بن إبراهيم العثمان .
- { ١٩ } « أصول الفقه » لابن مفلح المقدسي .
- { ٢٠ } « أضواء البيان » لمحمد الأمين الشنقيطي .
- { ٢١ } « أطواق الذهب » للزمخشري .
- { ٢٢ } « أعلام الموقعين عن رب العالمين » لابن قيم الجوزية .

- { ٢٣ } « الاعتصام » للشَّاطِئِي .
- { ٢٤ } « الإعلام » لِحَيْرِ الدِّينِ الزَّرْكَلِيِّ .
- { ٢٥ } « الإعلان بالتَّوْبِيخِ لِمَنْ ذَمَّ التَّارِيخُ » لِلسَّخَاوِيِّ .
- { ٢٦ } « إغائة اللَّهْفَانِ » لابن قَيْمِ الجوزِيَّةِ .
- { ٢٧ } « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم » لابن تيمية .
- { ٢٨ } « أقوال مأثورة » لمحمَّد لطفِي الصَّبَّاحِ .
- { ٢٩ } « الأمالي » .
- { ٣٠ } « الأمثال » لأبي عبيد .
- { ٣١ } « الأمر بالاتباع » للسيوطي .
- { ٣٢ } « إيثار الحقِّ على الخلق » لابن الوزير .
- { ٣٣ } « بدائع الفوائد » لابن قَيْمِ الجوزِيَّةِ .
- { ٣٤ } « البداية والنهاية » لابن كثير .
- { ٣٥ } « البدر الطَّالع » للشوكانِي .
- { ٣٦ } « بغية الإيضاح » للصَّعِيدِي .
- { ٣٧ } « بهجة المجالس وأنس المجالس » لابن عبد البر .
- { ٣٨ } « بهجة المجالس » للأثري .
- { ٣٩ } « البيان والتبيين » للجاحظ .
- { ٤٠ } « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي .
- { ٤١ } « تاريخ الجدَل » لأبي زهرة .
- { ٤٢ } « تاريخ دمشق » لابن عساكر .
- { ٤٣ } « ذكره السَّامِعُ والمتكلِّمُ في أدب العالم والمتعلِّم » لجارِ الدِّينِ ابنِ جماعة .
- { ٤٤ } « تربية الأطفال في الإسلام » لمحمَّد النَّاصِرِ ، وخولة درويش .
- { ٤٥ } « ترتيب الموضوعات » للذَّهَبِيِّ .
- { ٤٦ } « ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان » لابن الوزير .

- { ٤٧ } « تسليية أهل المصائب » لمحمد المنبجي .
- { ٤٨ } « التعالم وأثره على الفكر والكتاب » لبكر بن عبد الله أبو زيد .
- { ٤٩ } « التعريفات » للجرجاني .
- { ٥٠ } « تفسير القرآن العظيم » لابن كثير .
- { ٥١ } « التفسير القيم » لابن قيم الجوزية .
- { ٥٢ } « التقريب لحد المنطق » لعلي بن حزم الأندلسي .
- { ٥٣ } « تلخيص الحبير » لابن حجر العسقلاني .
- { ٥٤ } « التمهيد » لابن عبد البر .
- { ٥٥ } « تهذيب الأخلاق » للجاحظ .
- { ٥٦ } « تهذيب ابن عساكر » .
- { ٥٧ } « تهذيب الأسماء واللغات » للنووي .
- { ٥٨ } « تهذيب الكمال » للمزي .
- { ٥٩ } « التوايين » لابن قدامة المقدسي .
- { ٦٠ } « تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان » لابن سعدي .
- { ٦١ } « جامع بيان العلم وفضله » لابن عبد البر .
- { ٦٢ } « جامع العلوم والحكم » لابن رجب الحنبلي .
- { ٦٣ } « الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين » لمقبل بن هادي الوادعي .
- { ٦٤ } « جوامع الأدب والأخلاق » للقاسمي .
- { ٦٥ } « جواهر الأدب » لأحمد الهاشمي .
- { ٦٦ } « حتى لا تكون كلاً » لعوض بن محمد القرني .
- { ٦٧ } « الحجّة في بيان المحجّة » لأبي القاسم الأصبهاني .
- { ٦٨ } « الحسبة في الإسلام » لابن تيمية .
- { ٦٩ } « الحكمة في الدعوة إلى الله » للقحطاني .
- { ٧٠ } « الحلم » لابن أبي الدنيا .

- { ٧١ } « الحوار آدابه وضوابطه في ضوء الكتاب والسنة » ليحيى بن محمد رمزي .
- { ٧٢ } « حلية الأولياء » لأبي نعيم الأصفهاني .
- { ٧٣ } « حياة الحيوان » لكamal الدين الدميري .
- { ٧٤ } « حياة شيخ الإسلام ابن تيمية » لمحمد بهجة البيطار .
- { ٧٥ } « درء تعارض العقل والنقل » لابن تيمية .
- { ٧٦ } « دلائل النبوة » لليهقي .
- { ٧٧ } « ديوان أبي العتاهية » .
- { ٧٨ } « ديوان ابن الأمير الصنعاني » .
- { ٧٩ } « ديوان ابن هاني » .
- { ٨٠ } « ديوان الإمام علي » .
- { ٨١ } « ديوان بشار بن برد » .
- { ٨٢ } « ديوان عبد الكريم العماد » مخطوط .
- { ٨٣ } « ديوان الشافعي » .
- { ٨٤ } « ديوان المتنبي » .
- { ٨٥ } « الذريعة إلى مكارم الشريعة » للراغب الأصفهاني .
- { ٨٦ } « الذيل على طبقات الحنابلة » .
- { ٨٧ } « الرد على المخالف » لبكر بن عبد الله أبو ريد .
- { ٨٨ } « رسائل الإصلاح » لمحمد الخضر حسين .
- { ٨٩ } « الروض الباسم » لابن الوزير .
- { ٩٠ } « روضة العقلاء ونزهة الفضلاء » لابن حبان البستي .
- { ٩١ } « رياض الصالحين » للنووي .
- { ٩٢ } « الرياض الناظرة » لابن سعدي .
- { ٩٣ } « زاد المسير في علم التفسير » لابن الجوزي .
- { ٩٤ } « زاد المعاد في هدي خير العباد » لابن قيم الجوزية .

- { ٩٥ } « زهرة الأدب » للحصري .
- { ٩٦ } « سراج الملوك » لأبي بكر الطرطوشي .
- { ٩٧ } « سلسلة الأحاديث الصحيحة » للالباني .
- { ٩٨ } « السنن » لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي .
- { ٩٩ } « السنن » للترمذي .
- { ١٠٠ } « السنن » لابن ماجه محمد بن يزيد القزويني .
- { ١٠١ } « السنن » للدراقطني .
- { ١٠٢ } « السنن » للبيهقي .
- { ١٠٣ } « السنن » للدارمي .
- { ١٠٤ } « سير أعلام النبلاء » للذهبي .
- { ١٠٥ } « سيرة ابن هشام » .
- { ١٠٦ } « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » لابن العماد الحنبلي .
- { ١٠٧ } « شرح أصول الاعتقاد » .
- { ١٠٨ } « شرح السنة » لأبي محمد البربهاري .
- { ١٠٩ } « شرح السنة » للبغوي .
- { ١١٠ } « شرح العقيدة الطحاوية » لابن أبي العز الحنفي .
- { ١١١ } « شرح حديث » ما ذئبان جائعان « لابن رجب الحنبلي .
- { ١١٢ } « شرح الكواكب المنير » .
- { ١١٣ } « شرح التووي على صحيح مسلم » .
- { ١١٤ } « الشريعة » لأبي بكر الآجري .
- { ١١٥ } « الشوقيات » لأحمد شوقي .
- { ١١٦ } « الصاحبي » لابن فارس .
- { ١١٧ } « الصحاح » لإسماعيل بن حماد الجوهري .
- { ١١٨ } « صحيح ابن حبان »

- { ١١٩ } صحيح البخاري .
- { ١٢٠ } « صحيح الجامع الصغير وزيادته » للألباني .
- { ١٢١ } « صحيح سنن الترمذي » للألباني .
- { ١٢٢ } « صحيح مسلم » .
- { ١٢٣ } « صفة الصفوة » لابن الجوزي .
- { ١٢٤ } « صفحات من صبر العلماء على الشدائد والتحصيل » لعبد الفتاح أبي غدة .
- { ١٢٥ } « طريق الهجرتين » لابن قيم الجوزية .
- { ١٢٦ } « عدة الصّابرين وذخيرة الشّاكرين » لابن قيم الجوزية .
- { ١٢٧ } « العزلة » للخطّابي .
- { ١٢٨ } « عقيدة السلف أصحاب الحديث » .
- { ١٢٩ } « العقيدة السلفية من كلام رب البرية » للجديع .
- { ١٣٠ } « عمدة القاري شرح صحيح البخاري » لبد الدين العيني .
- { ١٣١ } « العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده » لابن رشيقي القيرواني .
- { ١٣٢ } « العواصم والقواصم » لابن الوزير .
- { ١٣٣ } « عين الأدب والسياسة » لعلي بن هذيل .
- { ١٣٤ } « عيون الأثر » .
- { ١٣٥ } « عيون الأخبار » لابن قتيبة الدينوري .
- { ١٣٦ } « فتاوى ابن تيمية » جمع ابن القاسم .
- { ١٣٧ } « فتح الباري بشرح صحيح البخاري » لابن حجر العسقلاني .
- { ١٣٨ } « فتح المجيد شرح كتاب التوحيد » لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ .
- { ١٣٩ } « الفاضل في صفة الأدب الكامل » لمحمد بن أحمد الوشاء .
- { ١٤٠ } « الفرقان » لابن تيمية .
- { ١٤١ } « الفرق بين النصيحة والتعبير » لابن رجب الحنبلي .
- { ١٤٢ } « فقه السيرة » للغزالي بتحقيق الألباني .

- { ١٤٣ } « الفقيه والمتفقه » للخطيب البغدادي .
- { ١٤٤ } « الفنون » لابن عقيل الحنبلي .
- { ١٤٥ } « في أصول الحوار » الندوة العالمية للشباب الإسلامي .
- { ١٤٦ } « فيض القدير شرح الجامع الصغير » للمناوي .
- { ١٤٧ } « قانون التأويل » لأبي بكر ابن العربي .
- { ١٤٨ } « قواعد الأحكام في مصالح الأنام » للعز بن عبد السلام .
- { ١٤٩ } « القواعد الأساسية للغة العربية » للهاشمي .
- { ١٥٠ } « قواعد ومنطلقات في أصول الحوار ورد الشبهات » للرحيلي .
- { ١٥١ } « الكافية في الجدل » لإمام الحرمين الجويني .
- { ١٥٢ } « الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز » لأبي حفص المعروف بالملأ .
- { ١٥٣ } « كتاب الصناعتين » لأبي هلال العسكري .
- { ١٥٤ } « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » لشهاب الدين النجفي المرعشي .
- { ١٥٥ } « كيف تكسب الأصدقاء وتؤثر في الناس ؟ » لدليل كارنيجي .
- { ١٥٦ } « لسان العرب » لابن منظور .
- { ١٥٧ } « لطائف المعارف » لابن رجب الحنبلي .
- { ١٥٨ } « لمحات في فن الحوار » لبديري .
- { ١٥٩ } « المجتبي »
- { ١٦٠ } « مجلة الأسرة العدد (٧٠) .
- { ١٦١ } « مجلة الغذاء العدد (٢٧) .
- { ١٦٢ } « مجمع الزوائد ومنبع الفوائد » للهيتمي .
- { ١٦٣ } « المحاسن والمساوي » لإبراهيم البيهقي .
- { ١٦٤ } « المحنة » للمقدسي .
- { ١٦٥ } « مختصر صحيح مسلم » للألباني .

- { ١٦٦ } « مختصر الصواعق المرسله على الجهمة والمعطلة » لابن قيم الجوزية .
- { ١٦٧ } « مدارج السالكين » لابن قيم الجوزية .
- { ١٦٨ } « مرعاة أحوال المخاطبين » لفضل إلهي ظهير .
- { ١٦٩ } « المستدرک على الصحیحین في الحديث » للحاکم .
- { ١٧٠ } « المسند » لأحمد بن حنبل الشيباني .
- { ١٧١ } « المصنّف » لعبد الرزاق الصنعاني .
- { ١٧٢ } « المصنّف » لابن أبي شيبة .
- { ١٧٣ } « المعجم الكبير » للطبراني .
- { ١٧٤ } « معجم المناهي اللفظية » لبكر بن عبد الله أبو زيد .
- { ١٧٥ } « المغازي » لابن إسحاق .
- { ١٧٦ } « المغني » لابن قدامة .
- { ١٧٧ } « مفتاح دار السعادة » لابن قيم الجوزية .
- { ١٧٨ } « مناقب أحمد » لابن الجوزي .
- { ١٧٩ } « مناقب الشافعي » للرازي .
- { ١٨٠ } « مناقب الشافعي » لليهقي .
- { ١٨١ } « مناهج الجدل في القرآن الكريم » لزاهر الالمعي .
- { ١٨٢ } « المنتقى من مكارم الأخلاق » للخراطي ، انتقاء أبي طاهر السلفي .
- { ١٨٣ } « منهاج السنة النبوية » لابن تيمية .
- { ١٨٤ } « المنهاج بترتيب الحجاج » لأبي الوليد الباجي .
- { ١٨٥ } « الموافقات في أصول الأحكام » للشاطبي .
- { ١٨٦ } « نقض المنطق » لابن تيمية .
- { ١٨٧ } « النونية » لابن قيم الجوزية .
- { ١٨٨ } « النونية » للقحطاني .
- { ١٨٩ } « هجر المبتدع » لبكر بن عبد الله أبو زيد .

الضموم

رقم الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الشيخ الوداعي - رحمه الله -
٧	مقدمة المؤلف
١١	تمهيد :
١٣	تعريف الحوار
٢١	عناية القرآن بالحوار .
٢٦	عناية السنة بالحوار .
٣٣	عناية السلف بالحوار .
الباب الأول	
٥٧	أصول الحوار :
٥٩	الإقرار بالخلاف .
٦٣	التجرد في الحوار .
٦٦	العلم .
٦٩	الرجوع إلى النص ادرء النزاع .
٧٣	عدم ادعاء العلم في كل حال .
٧٦	حسن الفهم .
٧٨	تحديد الهدف .
٨٠	الأمانة والتوثيق .
٨١	الابتعاد عن الرخص المفتعلة .

٨٣ عدم الدُخول في النِّيَّة .

الباب الثاني

٨٧ آداب الحوار :

٨٩ فنُّ الأسئلة .

٩٣ تحديدُ الشَّخصيَّة .

٩٨ تقويم اللِّسان

١٠٥ البَيان

١١١ الأمثلة .

١١٥ لكلِّ مقامٍ مقالٌ

١٢١ الكلمة الطَّيِّبة .

١٢٥ حاوره باسمه .

١٢٩ لا تَسْتخدِمُ لفظَةَ « أنا » .

١٣٠ حُسن الاستماع

١٣٤ الحوارُ الصَّامت .

١٤٠ مُحاورة الصُّغار .

١٤٧ لا تُحاور هَؤلاءِ .

١٧٠ المُعارضة .

١٧٣ فُضُولُ الحوار .

الباب الثالث

١٧٧ صفات المحاور :

١٧٩	حُسْنُ الْخُلُقِ
١٨٣	الصَّبْرُ
١٨٧	بَسْطُ الْوَجْهِ
١٩٢	التَّوَابُضُ
١٩٧	الرَّحْمَةُ بِالْخَصْمِ
٢٠٠	الهُدُوءُ
٢٠٤	الصَّدْقُ
٢١٠	الْإِنْصَافُ
٢١٤	الرِّفْقُ
٢١٩	الْحِلْمُ
٢٢٨	الْأَنَاةُ
٢٣٠	التَّغَابِي
٢٣٣	المُدَارَاةُ
٢٣٨	الابتعاد عن المُدَاهَنَةِ
٢٤١	الابتعاد عَنِ الْحَجَلِ
٢٤٣	الخاتمة
٢٤٦	المراجع
٢٥٤	الفهرس

